السنة
في مواجهة خصوم الإسلام

الدكتور
بدر بن محمد عمر عبد الرحمن

الألوكة
www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

السُنَّةُ

في مواجهة خصوم الإسلام

إعــداد

فضيلة الشيخ / عمر محمد عمر عبد الرحمن

غفرَ الله تعالى له ولوالديه ولسائرِ المسلمين

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن
يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩ وَلَوۡ نَشَآءُ
لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ
فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠
وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ
وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾

[محمد: ٢٩ – ٣١] ..

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، الملك الحق المبين، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين، نبينا محمد الأميِّ الأمين، صلِّ اللهمَّ وسلَّم وبارك عليه وعلي آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلي يوم الدين، يومئذٍ تعرضونَ لا تخفي منكم خافية ..

وبعدُ ....

فلقد تعرضت السنَّة النبويَّة قديمًا وحديثًا لهجماتٍ وطعناتٍ اتخذت ألوانًا وصورًا وأشكالًا متنوعة، تارةً بالطعن في حُجّيتها جملةً بدعوى الاكتفاءِ بالقرآنِ الكريمِ، أو بدعوى التناقض والتضاد الحاصل بين بعض نصوصها في الظاهرِ، وتارةً بافتراءِ واختلاقِ أحاديث ونسبتها زورًا وبهتانًا إلى النبيِّ الكريمِ ﷺ ؛ لأهدافٍ وغاياتٍ معينةٍ؛ كالتملّق إلى الحكام وإرضائهم، وتارةً بالطعن في رواة السنّة، وغمزهم بكثرةِ الروايةِ على حسابِ الفهم .

وقد قيض الله ﷻ للسنّة النبويّة في كل عصرٍ أعلامًا وأفذاذًا وجهابذةً مِنَ العلماءِ بذلوا الغالي والنفيس في حفظها وضبطها، والذَبِّ عَنْ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عرينها، وحماية بيضتها، فكانوا بحق أسودًا في ميدانِ السنّة النبوية، ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

ولا يمكن أَنْ يقع التعارض أوالتناقض أو الاختلاف حقيقةً في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الصحيحة؛ لأَنَّ التعارض أمارةٌ مِنْ أماراتِ الجهل أو العجز تعالى الله ورسوله عَنْ ذَلِكَ علوًّا كبيرًا .

وكل خبرين عُلِمَ أَنَّ النبيَّ ﷺ تَكَلَّم بهما = فلا يصح دخول التعارض فيهما على وجهٍ ، وَإِنْ كان ظاهرهما متعارضين؛ لأَنَّ معنى التعارض بين النصوص القرآنية أو الحديثية يُبطل التكليف إِنْ كانا أمرًا ونهيًا، أو إباحةً وحظرًا، أو يوجب كون أحدهما صدقًا والآخر كذبًا إِنْ كانا خبرين، والنبي ﷺ منزهٌ عَنْ ذلك أجمع، ومعصومٌ منه باتفاق الأمة.

وفي هذا الكتاب الذي بين يديكَ الآن، أحاول جمعَ بعضَ مَا يقوله ويدعيه أولئك الذين أنكروا سنَّة النبيِّ ﷺ بالتطاول عليها أو تكذيبها، أو ادعاء أنَّ في القرآنِ الكريم غُنية عنها، وسأحاول بفضل الله أَن أتجه بهذا البحث وجهة موضوعيَّة بحتة في الدفاع عن السُنَّة لتتضح أصول القضايا، ويستبين منهجها، وتجلو الغاية من ورائها.

وعلى الله قصد السببيل ؛؛؛

أبو صهيب

عمر محمد عمر عبد الرحمن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفَصْلُ الأَوَّلُ

حقيقة السُّنَّة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إِنَّ كلمة السنَّة كلمة عربيَّة وضعها العرب، واصطنعوا حروفها واستعملها القرآن على نحو ما يستعملها النَّاس، واستعملتها السنَّة النبويَّة المطهرة على نحو ما هي مستعملة في القرآن وعلى ألسنة النَّاسِ.

والسنَّة في وضعها اللغويّ قد وضعت للدلالة على مَا يجمع الطريق والمنهج والسيرة والشريعة.

والعرب تديرها على هذه المعاني كلها.

فأنت تستطيع أَنْ تتبع هذه المادة في لسان العرب مثلاً لترى أَنَّها لَمْ تخرج عن ذلك [١].

وَشُرَّاحُ الحديثِ يستعملونَ كلمة (سنَّة) بحسب ورودها في سياقها، لكنهم يلفتون النظر إلى السنَّة بهذا المعنى اللغويّ، فيقول ابن حجر رحمه الله : (ومعنى قوله سنَّة: أي شريعة وطريقةٌ لازمة) [٢].

وأنت تستشعر من هذا التعبير هذه الصرامة في الوقوع، وهذا النظام في الالتزام، وهذا التتابع والتوالي في الإيقاع على وجهٍ واحد، كأنَّما يحكمه قانون جبريّ، كتلك القوانين الواقعة في الطبيعة والتي تحكم جميع ظواهرها المندرجة تحتها.

---

[١] راجع : لسان العرب ٢١٢٣/٣ وما بعدها من مادة سنن.

[٢] فتح الباري ٣/ ٦٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَلَمَّا كانت السنَّة على هذا النحو مِنَ الصـرامة فـي دلالاتهـا، وانتظام الجزئيات المندرجة تحتها مِنْ ناحية، ومن ناحية أخرى رأينا أن للإنسان ملحظًا اختياريًّا في أَنْ جعل تصرفاته تتبع نسقاً واحداً، سـميت القاعدة التي تضبط هذه الأنواع من السلوكيات بالسنَّة، في حين أن غيرها من ظواهر الطبيعة والحياة، لم يكن فيه هذا الملحظ الاختياري، فسـميت القاعدة التي تضبط كل مجموعة منها: قانونًا.

ولعلك معي قد فهمت معنى كلمة ــ اللزوم ــ الواردة في عبـارة ابن حجر رحمه الله.

وعلماء التفسير كعلماء الحديث يستعملون السنَّة بهذا المعنى نفسه لا يختلفون ولا يبدلون ولا يغيرون، إلَّا في مزيد شرحٍ وتفصيل.

وهذه عبارة الرازي يشرح بها كلمة (سنن) التي هي جمع سـنَّة، وستراهُ يحاول أَنْ يرجع بالكلمة إلى أصل اشتقاقها، كما سـتراه يضـع المعنى الجامع الذي تدل عليه هذه الكلمة، وتلك عبارته بين يديك قـال: "وَأَمَّا السنَّة فهي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع، وفـي اشـتقاق هـذه اللفظة وجوه: أحدها: أنها ــ فعلة ــ مِنْ سن الماء يسنه إذا والى صـبه، والسن : الصب للماء، والعـرب شـبهت الطريقـة المسـتقيمة بالمـاء المصبوب فإنَّه لتوالي أجزاء الماء فيه على نهج واحـد يكـون كالشـئ الواحد، والسنة: فعلة، بمعنى مفعول. وثانيها: أن تكـون مـن : سـننت النصل والسنان، أسنه سنا فهو مسنون حددتـه علـى المسـن، فالفعـل

المنسوب إلى النبي ﷺ سنة على معنى أنه مسنون. وثالثها: أَنْ يكـــونَ مِنْ قولهم: سن الإبل إذا أحسن الراعى، والفعل الذي داوم عليه النبي ﷺ سمى سنَّة بمعنى أَنَّهُ ﷺ أحسن رعايته وإدامته "[١] اهــ.

والمتأخرون من المفسرين قد واكبوا تقدَّم العلوم الإنسانية، مـــن نحو فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع وعلوم النفس وعلوم السياسة إلى آخر هذه القائمة الطويلة مِنْ ألقاب العلوم، التي اكتظَّ بها هذا العصـــر وســـعد بآثارها العباد من مخلوقات الله، المتأخرون مِنَ المفسرين الذين واكبـــوا هذه العلوم الإنسانية، وهضموا مسائلها ظهرت آثار هذه المفاهيم علـــيهم وهم يتأملون القرآن الذي يبدو معجزًا في كل عصرٍ باعتبار أَنَّهُ يأتي في كل زمان بما يعجز أهله.

هؤلاء العلماء المتأخرون في مجال التفسير والفهم في آيـــات الله. فهموا لفظة (السنن) على أَنَّهَا مجموعة القوانين التـــي تحكـــم ظـــواهر التاريخ والسلوك البشريّ، على معنى أَنَّ سلوك البشر ليس هكذا ســـلوكًا عشوائيًّا بغير ضابطٍ، ولَا هو بالسلوك المنقطع عَنْ مقدماتـــه ونتائجـــه، بحيث يستطيع المرء أَنْ يُنشئ سلوكًا معينًا، أو يمتنع عن سلوك آخر من غير أَنْ يستثمر أو يعاني مِنَ النتائج المترتبة على الإيجـــاب فـــي هـــذا السلوك، وعلى السلب والإحجام عن سلوك آخر.

---

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ٤/٤٦٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إِنَّ الأمر في حوادث التاريخ الذي هو سجل الإنسانية وجامع سلوكها وتصرفاتها ليس أنفا، أي ومضة في فراغ، ليس لها ما يسبقها من مقدمات، وليس هناك ما يترتب عليها من نتائج، والسلوك الإنساني في نفس الوقت ليس سلوكًا جبريًّا، لا يملك المرء حياله من تصرف، ولا يتمكن أمامه من أن يعترض أو يرفض أو يمتنع.

إنَّهُ لنظام بديع لا يشذ عن سلسلة النظم الموجودة في الكون من نحو نظام الطبيعة ونظام الكون والحياة.

يفهم المتأخرون من العلماء هذا ويشرحونه بغاية الدقة.

وبين يديك عبارة المنار في كلمة (سنَّة) وهي تهتم بتحليل المعنى اللغويّ في أصل الوضع، أو في تحليل المعاني العلمية التي أوحى بها هذا اللفظ ودل عليها دلالة قاطعة.

يقول صاحبُ المنار: "السنن جمع سنَّة وهي الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع، قيل إنَّهَا من قولهم: سن الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنَّه لتوالي أجزائه على نهجٍ واحد يكون كالشئ الواحد، ومعنى (خلت): مضت وسلفت. أي إنَّ أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة وغير ذلك، قد جرى على طرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليس الأمر أنفا كما يزعم القدرية، ولا تحكما واستبداداً كما يتوهم الحشوية "[١].

والقرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد استعمل هذه الكلمة (سنَّة) بالإفراد وبالجمع، واستعملها مضافة إلى اسمه تعالى، كما استعملها مضافة للمرسلين، بل هو قد استعملها مضافة إلى الأمم السالفة الذين أرسل الله إليهم الأنبياء ، وبعث إليهم الرسل.

والمتأمل في هذا الاستعمال القرآني لهذه الكلمة يجد : أَنَّها قد استعملت بهذا الاتساع اللغويّ العام لتشمل الطريقة المتبعة، وتشمل السيرة حسنة كانت أو سيئة، مستقيمة كانت أو معوجة.

وقد بلغ ورودهما في القرآن عدًّا نحو ست عشرة مرة، أضيفت إلى لفظ الجلالة الصريح والظاهر (الله) ثماني مرات منها، وهي على النحو التالي:

﴿**مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا**﴾ [الأحزاب/ ٣٨].

﴿**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا**

[١] تفسير المنار - للشيخ رشيد رضا ١١٥/٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب/ ٦٠-٦٢].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر/ ٤٢-٤٣].

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر/ ٨٤-٨٥].

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح/٢٢-٢٣].

وقد وردت لفظة سنَّة في القرآن مضافةً إليه سبحانه بنون العظمة مرة واحـــدة : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء / ٧٦-٧٧].

وقد وردت في القرآن مضافة إلى المرسلين كما في الآية أعلاه .

وقد أوردها القرآن مضافةً إلى مَنْ أرسل إليهم:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال/ ٣٨].

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف/٥٥].

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر/ ٤٣].

وقد وردت مضافة إلى اسم الموصول الدال على جماعة قد خلت من قبل مرة واحدة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء/٢٦].

وأخيراً وردت كلمة سنَّة مطلقة بغير إضافة على صيغة الجمع مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران/ ١٣٧].

هذه هي استعمالات القرآن الكريم لكلمة سنَّة أو سنن، وهي تشير على الجملة إلى نسقٍ اجتماعيٍّ وتاريخيٍّ معين، تشيرُ إليه كله حيناً، وتشير إلى جزءٍ مِنْ أجزائه أحيانًا أخرى.

وهذا النسق: هو أَنَّ الله ﷻ خلق الناس وقد هداهم النجدين، ففيهم الاستعداد إلى الخير، وفيهم الميل إلى الشر جميعاً.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد أرسل الله الرسل يرشدون الناس إلى طريق الهدى حتَّى لا يكون للناس حجة بعد الرسل.

وانقسم الناس أمام منهج الله إلى مؤمن وكافر، فأمَّا مؤمنوهم فهم على قسمين: قسم قد استوعب الحقيقة كاملة وعلم أَنَّ العلاقات الاجتماعية سائرة على قوانين هي من فعل الله المنظم الدال على وجوده وعلمه وحكمته، فأعدوا لخصومهم العدة، واستكملوا في وجههم الأهبة، فأيدهم الله بنصره، وأمدهم بمدد من عنده، حتى لو كان عدوهم قليلاً، وحتى ولو كانت عدتهم أقل.

وهناك من المؤمنين فريقٌ آخر تصور أَنَّه لا داعي إلى أن يستكمل الإنسان عدته، ولا أَنْ يتخذ للعدو أهبته مَا دام قد آمن بالله وحده والتزم بمنهجه، وهذا الصنف يعتقد أَنَّ الإيمان عملٌ سلبيٌّ لا حركة معه، إذْ ليس المؤمن من وجهة نظره مطالباً بشئ فوق أَنْ يكون مؤمناً، وأفراد هذا القسم مِن أتباع الأنبياء يحتاجون إلى رجفة عنيفة، تلفتهم إلى ما ينبغي عليهم أَنْ يفعلوهُ، وما يجب عليهم أن يسلكوهُ، فهم لا يلتفتون إلى الحقيقة كاملة إلَّا مِنْ خلال تجربة عمليَّة قوية الدلالة على المقصود.

هؤلاء هم المؤمنون الذين اتبعوا الأنبياء في سلسلة هذا النسق العام.

وأَمَّا الكافرون فإنَّ الرسل قد بذلوا الطاقة، وأفرغوا الوسع على مر التاريخ في سبيل إقناعهم وردهم إلى الله ﷻ، يتبعون منهجه،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وينصتون إلى توجيهاته أمراً ونهياً، غير أَنَّ هؤلاء قد رفضوا اتباع الأنبياء وأصروا على أن يصدوا عن سبيل الله، واصطنعوا لذلك أسلوبين،

أحدهما: الكيد في الخفاء،

وثانيهما: الاستعداد بالقوة والعتاد،

ودافعهم في الحالتين حقد وحسد، أو حرص على منفعة يريدون استمرارها، أو خوف على فوات مركز يريدون بقاءه، أو استكباراً في الأرض بغير الحق.

وربُّ العبادِ ﷻ يدفع بالحق على الباطل ليميز الخبيث من الطيب، ما دامت الأسباب واضحة، والطريق أمام عباده معبدة، والتكافؤ ظاهراً وجلياً، أَمَّا حين تتقطع الأسباب بالمؤمنين ولم يبق لهم إلَّا الله، فإنَّ الله لا يخذلهم، ويظهر ذلك في حالات الكيد في الظلام، والإيذاء في الخفاء وتدبير المؤامرات بطريقة يصعب على الإنسان العادي أن يدركها، فالله ﷻ لا يترك الباطل في هذا الحال يسود، بل يقذف بالحق عليه فيدمغه فإذا هو زاهق.

تلك في سطور صورة كاملة تنظم النسق الاجتماعي الذي يعبر عن علاقة الخير بالشر، والصلاح بالفساد، والرسل وأتباعهم، الكافرين وأعوانهم.

وأنت حين تتأمل العرض القرآني لسنَّة الله في كونه، تجد بجلاء أَنَّ السنَّة في القرآن قد تشير إلى هذه المنظومة بوجهٍ عام، وقد تشير إلى جزءٍ مِنْ أجزائه يتصل هذا الجزء بالمنهج الذي أنزله، وطلب من الناس اتباعه، أو بسيره الرسل مع أقوامهم، أو بأسلوب الكافرين مع رسلهم، أو بسيرة المنافقين مع الأنبياء وتابعيهم، أو بموقف عض المسلمين في موقعة من المواقع.

ولا يصعب عليك بعد أن تتأمل كل حالة استعملت فيه كلمة سنَّة في القرآن الكريم على نحو ما سبقَ، وسوف تعود بعد التأمل وأنت على قناعة أَنَّ القرآن الكريم حين يستعمل كلمة سنَّة، إنَّما يستعملها بمعناها اللغوي العام، ولم يتعرض القرآن الكريم يوماً إلى السنَّة، بمعناها الاصطلاحيّ.

وَمَنْ يتصور أَنَّ القرآن الكريم قد استعمل كلمة سنَّة بمعنى ما ينسب إلى النبيِّ ﷺ مِنْ قولٍ أو فعل أو تقرير أو صفة، وَأَنَّ القرآن يعلق على هذا المعنى بالإثبات أو بالنفي يكون إنسانًا قد حكم على نفسه من أول الأمر بأنَّه لا صلة له بالعلم، ولا حق له في أن يحشر في زمرة العلماء.

والأحاديث النبويَّة المنسوبة إلى النبي ﷺ قد استعملت هذه اللفظة (سنَّة) في أماكن متعددة وبمعاني شتى.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهي قد استعملت كلمة سنَّة للدلالة على ما كـان بـين الأنبيـاء وأممهم،

وهي قد استعملت كلمة سنَّة للدلالة على منـهج الأنبيـاء الـذي انتهجوه لإخراج الناس من ظلمات الجهالة إلى نور الإيمان والتوحيد،

وهي قد استعملت كلمة سنَّة للدلالة على الطريقة والسيرة حسنـة كانت أو سيئة،

وهي قد استعملت كلمة سنَّة للدلالة على طريقة النبيِّ ﷺ خاصـة، ومنهجه في أمته وقومه وذويه.

استعمالات متعددة لكلمة سنَّة في الأحاديث النبوية الشريفة، وَمَـا مِنْ مرة تستعمل فيها كلمة سنَّة إلَّا وهي واضحة الدلالة على المقصـود، بينة بسياقها ناطقة بمعناها، بحيث يصعب على مـدلس أو مغـرض أن يغير هذا المعنى ويتلاعب به، إلَّا أن يكون إنسانًا ساذج الطبع، غـرًا، لا يعلم الأشياء على وجهها، ولا يدرك المعاني المرتبطة بألفاظها، أو هـو يدرك ذلك، ولكنه يقصد إلى التغيير في وجه المسلمين حتى لا يجتمعـوا على رأى واحد، وحتى لا يتضح أمامهم الهدف، وحتَّى لا يضي أمـامهم الطريق، وتلك غاية لا يقصد إليها شريف، مهما كان الجعل المجعول له، ولا يرتضيها لنفسه إنسان، مهما كانت قيمة ما يُعْطَي لَهُ.

والأحاديث النبويَّة قد استعملت كلمة سنَّة على نطاق واسع، يتسع ليشمل المعاني اللغويَّة كلها، وفي أماكن عدة يصعب علينا حصرها، فقد وردت في صحيح البخاري وحده خمس وأربعون مرة، بِمَا فِي ذَلِكَ ألقاب الأبواب، فَمَا بالك بكتب الحديث الأخرى، لكنَّها على أَيَّةِ حالٍ لن تخرج عن هذا الاستعمال اللغويّ بمعناه الواسع العريض.

تلك هي استعمالات القرآن للكلمة، وهذه استعمالات الحديث لكلمتي سنَّة وسنن، وعلى الباحث الذي يحترم بحثه وعقله أَنْ يستعمل الكلمة على نحو ما استعملها ذووها، وألَّا يذهب بعيداً عن ذلك.

وكثيرٌ مِنَ الباحثين لم يستطيعوا أن يخفوا إعجابهم الشديد باستعمالات كلمة سنَّة على نحو ورودها في القرآن الكريم وفي السنَّة النبويَّة معبرة عن هذا النسق الاجتماعي الذي ذكرتُ لك طرفا منه فيما سبق قريبًا.

ومن هؤلاء الباحثين الذين لم يستطيعوا أن يخفوا إعجابهم بهذا الاستعمال الإلهي، والحديث النبوي الشريف لكلمة سنة في نسقها المشار إليه، السيد محمد رشيد رضا حيث قال بعد أَنْ استعرض النسق الاجتماعيّ الذي تدل عليه كلمة سنَّة: " هذا إرشادٌ إلهيٌّ، لم يعهد في كتاب سماويّ، ولعله أرجى إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعيّ، فلم يرد إلَّا في القرآن، الذي ختم الله به الأديان.

كان الملِّيون مِن جميع الأجيال يعتقدون أَنَّ أفعال الله تعالى في خلقه تشبه أفعال الحاكم المستبد في حكومته، المطلق في سلطته، فهو يحابي بعض الناس فيتجاوز لهم عما يعاقب لأجله غيرهم، ويثيبهم على العمل الذي لا يقبله من سواهم، لمجرد دخولهم في عنوان معين وانتمائهم إلى نبي مرسل، وينتقم من بعض الناس لأنهم لم يطلق عليهم ذلك العنوان، أو لم يتفق لهم الانتماء إلى ذلك الإنسان.

هذا ما كانوا يظنون في دينهم ويسندونه إلى مشيئة الله المطلقة، من غير تفكير في حكمته البالغة، وتطبيقها على سننه العادلة، فإن نبههم منبه إلى ما يصيبهم بل ما أصاب أنبيائهم من البلاء، قالوا إنه تعالى يفعل ما يشاء، وذلك رفع درجات أو تكفير للسيئات وأشباه هذا الكلام الذي يشتبه عليهم حقه بباطله، ويلتبس عليهم حاليه بعاطله، و قد كان وما زال علة غرور أصحابه بدينهم، واحتقارهم لكل ما عليه غيرهم، فجاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة، فمن سار على سنته في الحرب ـ مثلا ـ ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحداً أو وثنيا، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً أو نبياً .... ولكن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله تعالى في الأمم، وأحق الناس بالسير على طريقها بين الأمم، لذلك لم يلبث أصحاب النبي ﷺ أَن ثابوا يومئذٍ إلى رشدهم، وتراجعوا للدفاع عن نبيهم، وثبتوا حتى انجلى عنهم المشركون، ولم ينالوا منهم ما كانوا يقصدون" [١].

---

[١] تفسير المنار : ٤/ ١١٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ونعود فنلخص لك مدلولات كلمة سنَّة من حيث إنَّها كلمة لغويَّة بحتة بعد أن بسطنا لك القول في هذا المدلول، وما ترتب عليه من آثار في عقول المفسرين للقرآن، أو الشارحين للحديث النبويّ الشريف.

وجماع القول في معنى هذه الكلمة اللغويَّة أَنَّها تدل على الطريقة المسلوكة راجعة إلى أصلها، إذْ هي من قولهم سننت الشئ بالمسن، إذا واليت تكراره عليه، وإمراره به حتى صنع له سنا أي طريقاً.

وقريب منه أَنْ نقول: إنَّ هذا اللفظ إنَّما يفيد الاستمرار والدوام والأمر بهما، وهو ظاهر في قولك: سننت الماء أي واليت صبه بأسلوب منتظم ودائم.

وإذا ما جمعنا المعنيين معاً يتضح لنا أَنَّ السنَّة إنَّما تفيد الأمر باتباع طريقة معينة والتزامها، والسير عليها حتى تكون هي الطريق والمسار الذي لا يجوز خلافه في مراد من أمر بالتزامهِ[1].

هذا هو المعنى اللغويّ للكلمة.

وللكلمة معناها الاصطلاحي كسائر الكلمات المستعملة في مجال العلوم.

غيرَ أَنَّ كلمة سنَّة قد انفردت مِن بين سائر الكلمات إلَّا قليلاً مِمَّا يماثلها، فدارت على ألسنة كثير من المتخصصين في فنون مختلفة من

---

(١) راجع : إرشاد الفحول ص ٣٣ طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان بلا تاريخ .

شبكة الألوكة
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العلوم، وكان لها عند أصحاب كل فن معنى اصطلاحي تواضع عليه العلماء المنتمون إلى العلوم كلٌ في دائرة تخصصه.

فعلماءُ الفقه لهم في كلمة سنَّة دلالة اصطلاحيَّة معينة تخالف ما تواضع عليه علماء الأصول، كما تخالف ما تواضع عليه العلماء المشتغلون بتسجيل آثار النبي ﷺ وأحاديثه الصادرة عنه، وصفاته الخُلُقية والخَلْقية.

ولهذا وجدنا أنفسنا مضطرين إلى الإشارة لتلك المعاني كلها إشارة سريعة ليكون الأمر بين يدينا أكثر وضوحا :

فالعلماء المشتغلون بأحاديث النبي ﷺ وسيرته والمهتمون بأحواله وصفاته يعرِّفونَ السنَّة بِأنَّها: **ما أُثِرَ عَن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية أو خُلقية أو سيرة، سواء كان قبل البعثة أو بعدها**(١).

أَمَّا الأصوليونَ فهم يستعملون كلمة سنَّة في دائرة أضيق، ذلك لأنهم يهتمون بالأدلة الشرعيَّة، وكيفية استنباط الحكم مِنَ النص، وليس لهم بعد ذلك في مجال عملهم اهتمام بشئ آخر، ولذلك فإنَّهم يقتصرون من المعاني التي تدل عليها كلمة سنَّة على ما يصلح لعملهم، فالسنَّة عندهم إذًا هي: **ما نسب إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.**

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٤٧، وانظر قواعد التحديث ٣٥ ـ ٣٨ وتوجيه النظر ص ٢.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

فمثال ما صدر عن النبي ﷺ مِنَ الأقوالِ: "إنَّما الأعمال بالنيات"[١] ، وقوله ﷺ: "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا"[٢].

ومثال ما صدر عَنْ النبي ﷺ من الأفعال: ما نقله الصحابة من أفعاله ﷺ في شئون العبادة وغيرها كأداء الصلوات ومناسك الحج وآداب الصيام وقضائه بالشاهد واليمين.

ومثال ما أقر النبي ﷺ عليه أصحابه ﷺ وهو يظهر التأييد لما يفعلونه ولا يعترض عليه، وقد يستحسنه منهم، إقراره عليه الصلاة والسلام لاجتهاد الصحابة في أمر صلاة العصر في غزوة بني قريظة[٣] فقد فهم بعضهم هذا المعنى على حقيقته فأخرَّهَا إلى ما بعد المغرب، وفهمه بعضهم على أَنَّ المقصود حث الصحابة على الإسراع فصلاها في وقتها، وبلغ النبي ﷺ ما فعل الفريقان فأقرَّهما ولم يُنكر عليهما.

ومنه : ما روى أن خالد بن الوليد رضي الله عنه أكل ضباً قُدِّمَ إلى النبي ﷺ دون أَنْ يأكله، فقال له بعض الصحابة، أو يحرم أكله يا رسول الله ؟ فقال: لا ، ولكنه ليس في أرض قومي فأجدني أعافه[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعلماء أصول الفقه قد يحملون معنى السنَّة على كل ما أتى فيه دليل شرعي سواء كان هذا الدليل من القرآن، أو كان من أحاديث رسول الله ﷺ، أو كان من فعل الصحابة رضي الله عنهم كجمع المصحف في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

والسنَّة عند علماء الفقه تختلف عَمَّا ذكرناه إذْ هي عندهم تطلق على **ما دون الواجب**، فهي تطلق على **كل مطلوب شرعي لا يترتب على تركه إثم، وإن كان فاعله مأجورًا**، فهي من هذا الباب فوق المباح، ودون الواجب.

والنبي ﷺ قد ورد عنه سلوك بهذه المثابة فيما يعرف بعبادة مستقلة كالسنن الرواتب، وفيما هو داخل العبادات كالتكبيرات في الصلاة غير تكبيرة الإحرام والتسبيحات في الركوع والسجود إلى آخره.

على أَنَّها قد تطلق عند الفقهاء ويعنون بها: **ما يقابل البدعة** كقولهم فيمن طلق زوجته في غير حيض، وفي غير طهر التقيا فيه: "هذا طلاق سنيٌّ" في مقابلة "الطلاق البدعي"، وهو الذي يحدث في طهر التقيا فيه، أو يحدث في حيض حيث يأبى الإسلام بنظامه العام أن يشق على المطلقات بإطالة العدة[١].

---

[١] راجع السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي من ٤٧ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأنت خبيرٌ بِأَنَّ هؤلاء العلماء حين اختلفوا فيما بينهم حول المعنى الاصطلاحي لكلمة سنَّة إنَّما رجع اختلافهم إلى الزاوية التي نظروا منها إلى النبي ﷺ.

فالمحدثون كانت نظرتهم إلى النبي ﷺ باعتبار أَنَّه إمامٌ وقدوةٌ، والإمام والقدوة بالنسبة للمقتدين به محل اعتبار ونظر فهو محل اعتبار ونظر في كل أقواله وأفعاله وتقريراته، كما أنَّه محل اعتبار ونظر في سيرته وصفاته خِلقية وخُلقية، بالإضافة إلى أنَّه محل اعتبار ونظر في مدى تأثيره في أصحابه وقومه الذين عاصروه.

ولما كانت هذه هي الزاوية التي نظر منها المحدثون جاء مفهومهم للسنَّة، وتواضعهم على معناها: مفهوماً عاماً وشاملاً.

أَمَّا علماء أصول الفقه فقد نظروا إلى أَنَّ النبي ﷺ مبلغ شرع عن الله ﷻ، وأنَّه قد أوتى القرآن ومثله معه، فكانت نظرتهم إليه من هذه الزاوية أساساً لفهمهم لمعنى السنَّة وتواضعهم على ما يريدونه منها من معاني ومدلولات، فكانت السنَّة عندهم مقصورة على ما صدر عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته.

أما علماء الفقه فاهتمامهم بالنبي ﷺ باعتبار أَنَّ ما يصدر عنه إنَّما هو تشريع نحن مأمورون بالتزامه، فمنه ما يصل إلى مرتبة الواجب، ومنه ما يقل عن ذلك، فاختص هؤلاء الفقهاء ما يصدر عن النبي ﷺ في

مجال التشريع، لا يرتفع إلى مرتبة الواجب بوصف "السنَّة" وتواضعوا على هذا المعنى ليكون هو المعنى الاصطلاحي عندهم.

وأنت خبير كذلك بأنَّه إذا لم نميز بين المعنى الاصطلاحي على هذا النحو من التمييز كان عرضنا لمعنى السنة مختلطًا ومشوشًا، فما بالك إذا ما دخلنا على تفسير الكلمة من غير أن نميز بين معناها اللغوي ومعناها الاصطلاحي ؟!

ودعني أعرض أمامك بعض العبارات التي رأيت أنها مشوشة لورودها في عصرٍ قديم لم يميز الناس فيه بين مسائل العلم تمييزاً دقيقاً، إمَّا لقلة اهتمامهم بذلك التمييز، أو لأنهم كانوا لا يحتاجون إلى مثله لوضوح الدلالة في أذهانهم..

يقول الشيخ الجرجاني: " السنَّة في اللغة: الطريقة مرضيَّة كانت أو غير مرضيَّة، وفي الشريعة هي الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب، فالسنة ما واظب النبي ﷺ عليها مع الترك أحيانا فإن كانت المواظبة المذكورة على سبيل العبادة فسنن الهدى، وإن كانت على سبيل العادة فسنن الزوائد، فسنة الهدى ما يكون إقامتها تكميلا للدين وهي التي تتعلق بتركها كراهة أو إساءة، وسنة الزوائد هي التي أخذها هدى أي إقامتها حسنة ولا يتعلق بتركها كراهة ولا إساءة ، كسير النبي ﷺ في قيامه وقعوده ولباسه وأكله".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

" السنَّة لغة : العادة، وشريعة: مشترك بين ما صدر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل أو تقرير، وبين ما واظب النبي ﷺ عليه بلا وجوب، وهي نوعان سنة هدى، ويقال لها السنة المؤكدة كالأذان والإقامة والسنن أو الرواتب والمضمضة والاستنشاق على رأى، وحكمه كالواجب المطالبة في الدنيا إلا أن تاركه يعاقب وتاركها لا يعاقب، وسنن الزوائد كأذان المنفرد والسواك والأفعال المعهودة في الصلاة وفي خارجها وتاركها غير معاقب"[١].

وإني قد أردت أن أجنبك وأجنب نفسي هذا النوع من الخلط في المفاهيم لتتضح أمامنا الاستعمالات التي أورد العلماء كلمة سنة فيها، ليكون المقام بيننا وبين غيرنا واضحاً جلياً لا سترة به.

هذه هي السنَّة كما عرَّفها علماء اللغة.

وهذه هي السنَّة كما عرفها علماء التفسير والحديث وعلماء الفقه والأصول.

وهذه هي السنَّة كما عرفها جمهور الأمة وأطبقوا على معرفتها من أيام النبي ﷺ وإلى الآن، وما بعد الآن إلى ما شاء الله مهما غير في وجهها أعداؤها أو تربص بها الشانئون عليها.

* * *

---

(١) التعريفات ـ الجرجاني ، ص ١٠٧ ، ١٠٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفَصْلُ الثَّانِي

شُبهات منكري السُنَّة

الله قد قَصَّ علينا في القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين وبين لنا أَنَّ لكل نبيٍّ أعداء يناوئونه ويصدون عن سبيله ، ففرعون عدو موسى، والنمروذ عدو لإبراهيم، وأبو جهل فرعون هذه الأمة.

ولَمَّا كان نبينا ﷺ يصعب عليه أَنْ يرى رجالًا مِن أمته يكبهم العصيان على وجوههم في جهنم إلى حد أن الموقف قد بلغ على نحو ما صور ربه أنه يكاد أن يهلك نفسه ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آَثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ [الكهف/٦] أخذ رَبَّهُ في تسليته وتخفيف الأمر عليه فهو لأنه عالٍ في مشاعره يغار على رسالته ودعوته.

وحين تتلو آيات القرآن تجد أَنَّ هناك كمًا عظيمًا، منها يخاطب النبي ﷺ بأحوال الأقدمين، وباختصاصات القدرة الإلهيَّة، ليخفف عنه مَا به مِنَ الأسى والحزن.

كقول اللهِ تعالي: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [القصص/٥٦].

وقوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس/٩٩].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾[الأنعام/٣٥].

وَمِنْ هذه الآيات التي سيقت لتسلية النبي ﷺ ما حكاه الله ﷻ عن الأولين، وهو كثيرٌ جدًّا في القرآن.

ومنه قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا﴾[الفرقان/٣١]

وقوله: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾[الأنعام/ ١١٢].

وهؤلاء الشياطين الذين بزغ نجمهم وعلا صوتهم في أيامنا هذه إنكارًا لسنَّة النبيِّ الأمين ﷺ ، واعتراضًا أنْ تكونَ السنَّة مصدرًا من مصادرِ التشريع لهم في هذا الأمر سلف قريب وسلف بعيد!

فمن أسلافهم في عمق التاريخ طائفة تحدَّثَ عنها الإمام الشافعي في فصلٍ طويل ممتع في عرضه وفي نتيجته، أَمَّا إمتاعه في العرض فلأنَّ الإمام الشافعي رحمه الله نقل حوارًا بينه وبين أحدهم على وجهة كما وقع، وهو حوار شيق بين عالم فقيه وقارئ جيد اشتبه الأمر عليه حين استمع إلى جماعة منكري السنة فانتمى إليهم حين اشتبه الأمر عليه،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقرأ عنهم واستمع لهم واستمع إليهم وهضم ما قرأ وما سمع، فقويت الشبهة في ذهنه إلى أَنْ التقى بالإمام الفقيه: محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، وجرى بينهما الحوار الذي نقله الإمام وهو حوار جيد كما قلتُ لأَنَّ الأسئلة يطرحها عالم، ويجيب عنها فقيه.

وما نقله الإمام جيد كذلك في نهايته ونتيجته، ذلك أَنَّ الرجل الذي كان يناقش الإمام لم يكن له هدف خفي، ولذلك فإننا نراه قد أذعن للحق حين سطع الحق أمامه، وتخلص من الشبهة حين تبين له زيفها، وعاد إلى صوابه حين تبين له وعورة السبيل التي سلطها خطأً، وسار عليها خلف إمام ضال[1].

وهؤلاء كذلك لهم سلف قريب، ومنهم ما يُدعي بتوفيق صدقي ورفاقه[2].

والفرق بين القدماء والمحدثين: أَنَّ بعض القدماء كان التفاهم معهم سهلاً ميسوراً شأن التفاهم مع أي عالم في مجاله عرضت عليه شبهة فزاغت به عن هدفه، أو عثرت به أدواته فانكب على وجهه، وفي الحالتين هو يحتاج إلى مرشد خبير يدله على الطريق، وإلى يد قوية تقيل عثرته.

---

(١) راجع الأم للشافعي في جزئه السابع كتاب جماع العلم ص ٢٥٠ وما بعدها .

(٢) راجع مقالين متواليين في مجلة المنار لصاحبها السيد محمد رشيد رضا الأعداد ٧، ١٢ من السنة التاسعة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أمَّا المحدثون فلهم هدف خفي، قعد بهم عن الحق واتباعه، ومع ذلك فلا خبرة لهم بالفن الذي يبحثون فيه، ولا بالمنهج الذي تدرس على أساس منه مسائل هذا العلم.

ومثال هذه الخصال إنْ توافرت في إنسان جمحَ جموحاً يصعب على غير الله رده ، ويستحيل على مخلوق دون إرادة الله أَنْ يقيل عثرته.

أَمَّا الآن فمن حق العلم علينا أَنْ نعرض إلى شبهة هؤلاء، التي أدت بهم إلى أن يرفضوها كمصدرًا مِنْ مصادر التشريع الإسلاميّ.

والمتصفح لكتب القوم في الماضي، ونشراتهم ومنشوراتهم المبثوثة بين الشباب في الحاضر يجد أنَّه يمكن حصرها في أربع :

وهذه الأربع تجمع شتات مَا قالوه قديماً وما قالوه حديثاً بمنهج منضبط، بعيد عن التهويش والتشويش ودق الطبول، وارتفاع الأصوات.

ونحن بفضل الله سنعرض إلى هذه الشبه الأربع واحدة واحدة، ثمَّ تناقش كل شبهة بعد أنْ نذكرها على نحو ما ذكروها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشبهة الأولى:

والشبهة الأولى من هذه الشبه تدور حول هذه الآيات من القــرآن الكريم التي تبيّن أَنَّ القرآن تام، قد حوى كل شيءٍ، والله ﷻ مَا فرَّط فــي الكتاب من شيءٍ، فأتى بالعامِ ثُمَّ فصله تفصيلاً، وأتى بالمجمل ثُــمَّ بينَــه للنَّاسِ تبييناً تاماً، فهو لا يحتاج بعد هذا التبيان إلى شيءٍ آخر، وإلَّــا لــو احتاج إلى شئ آخر لكان القرآن غير صادق فيما قال، وهذا أمر مستحيل على الله ﷻ، وهو مستحيل على كلامه.

هذه هي ناصية الشبهة الأولى وجماعها، وهم ينكرون لها حشــدًا عظيمًا مِنَ الآيات التي تؤيدها، سواء كان الدليل في موضــوعه أو فــي غير موضوعه، فهم يفتحون المعجم المفهرس لألفــاظ القــرآن الكــريم، وينقلون منه المادة بتمامها، ويضعون أمام كل آية جملــة تلائمهــا، ولا يهمهم بعد ذلك أبقيت وحدة الموضوع بين أيديهم أم لم تبق.

على أَيَّة حالٍ فإنَّ هذه الشبة الأولى في أصلها الأصيل، وكلياتهــا التي لا تخرج عنها، مهما علا الضجيج أو ارتفع الصياح.

مناقشة الشبهة:

ونحن حين نريد أن نناقش هذه الشبهة لا نحب أن ننســاق إلــى مناقشة قضية تحتاج بالدرجة الأولى إلى مناقشة قضية قبلها، إذْ لو أننــا انجرفنا إلى مناقشة هذه القضية دون أن نحسن القول في القضــية التــي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تسبقها، لكنا في هذه الحال كمن يعترض على صعود الدرجات الأولى للسلم، ويريد أن تكون بداية صعوده من منتصفه !! وهذا لا شك مطلب ساذج لا يطلبه إلَّا غر أو أحمق.

والقضية التي نريد أن نناقشها أولًا تدور كلها حول وظيفة الأنبياء والرسل.

ونحن نريد أن نكون منطقيين مع أنفسنا ونحن نناقش قضايانا التي هي من هذا المستوى الرفيع، ولنا بعد هذا أن نسأل :

ما وظيفة كل نبي ؟ وما مهمة كل رسول ؟!

والمنطق يقول أَنَّ النبي والرسول مهمتهما تنحصر في ثلاثة أشياء فيما أعلم :-

١ـ فالرسول في مهمته الأولى مبلغ عن الله وحيه الذي يتلقاه بأي وسيلة من وسائل الوحى، وهي متعددة ومتنوعة بدءًا مِن الرؤيا الصادقة، وانتهاء بالنفث في الروع ومرورًا بالوحي بواسطة الملك، وبكلام الله المباشر لرسله وأنبيائه والوحى بهذا الشكل يتلقاه النبي ﷺ، أي نبي. ويبلغه للنَّاس على نحو ما بلغه بغير زيادة وبغير نقصان.

وهذا الوحى الذي يتلقاه النبي على ضربين:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أ) وحيٌّ يعبر عن كلام الله نفسه متعبدٌ بتلاوته، فيه أصول أحكامه وجماع مطلوباته، ورأس أوامره ونواهيه.

ب) وهناك نوع آخر من الوحي: ليس متعبدًا بتلاوته، وإن كان يلزم التشريع لزومًا تامًّا، يسير إلى جوار النوع الأول سير المذكرات التفسيريَّة إلى جوار نصوص القوانين.

فالقانون أي قانون في صياغته لا يجب أن يحتوي جميع التفصيلات بالنص عليها، وإن كان من الضروري أن يحتويها ضمن إطاره العام. وتأتي المذكرات التفسيريَّة من نفس المصدر الذي أصدر القانون العام لتنص على الحالات الفرديَّة وتبين كيفية التطبيق.

هذا أمرٌ معقول، وممارسٌ بالعقل، وهو نفسه أمر معروفٌ في القرآن الكريم، فالله قد ذكر في كتابة مرارًا أنَّه أعطى النبي ﷺ نوعين من الوحي ، النوع الأول المتعبد بتلاوته ولقبه القرآن بالكتاب. والنوع الثاني هو غير متعبد بتلاوته ، وقد لقبه الله بالحكمة. ويشهد لذلك قول الله تعالي: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة/١٢٩].

وقوله ﷻ : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/١٥١]،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقوله ﷻ : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ [البقرة/٢٣١].

وقوله: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران / ١٦٤]،

﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾ [النساء/١١٣]،

﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا﴾ [الأحزاب/٣٤]،

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة/٢].

هذا هو كلام القرآن في نوعي الوحى إلى خاتم المرسلين ﷺ.

على أَنَّ القرآن قد بيَّنَ في أكثر مِنْ موضوع أَنَّ نوعي الوحى المعبر عنهما بالكتابِ والسنَّة ليسا من المسائل الخاصة بالنبي ﷺ، وإنَّما هي سنَّة عامة في الأنبياء جميعًا، فبالنسبة إلى سيدنا داود ﵇ يقولُ القرآن عنه: ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ [البقرة/٢٥١]، وقد قال

في آل إبراهيم عليهم السلام: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء/٥٤].

وفي عيسى عليه السلام ينسب إليه الكتاب والحكمة في موضعين في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[آل عمران/ ٤٧-٤٨]. وقوله جل وعلا ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [المائدة/١١٠].

وفي الأنبياء جميعهم عليهم السلام قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران/٨١].

هكذا يتبين أَنَّ الله قد أعطى النبي القرآن ومثله معه، والقرآن هو كتاب الله ، ومثل القرآن والحكمة: نوع من الوحى إلى جوار النوع الأول.

ومن دقة الأداء القرآني في التعبير عن هذين النوعين، أنَّه فصل بينهما بواو العطف إذا اجتمعا، ليبين أَنَّ هذين النوعين مختلفان لضرورة

التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه، فالمنطق يقتضي أَنَّ الشئ لا يعطف على نفسه.

ومن دقة الأداء القرآني كذلك أَنَّه حين يريد أَنْ يصف هذين النوعين، أو يتحدث عنهما، وعن قيمتهما، إنَّما يتحدث عنهما باعتبار أن مصدرهما واحد، فهذا وحى إلهي، وذاك وحى إلهي، والفرق بينهما فيما ذكرت لك آنفا، ولما كان مصدرها واحدًا أعاد الله الضمير عليهما مفردًا بعد أن فرَّقَ بينهما بحرف العطف في نحو آية البقرة السالفة الذكر وهي: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة/٢٣١].

وصاحب العقل الفصيح يلمح الإشارة من هذه الآية، حيث فرق الله بين الكتاب والحكمة بحرف العطف ليدل على تغايرهما، وأفرد الضمير العائد عليهما، ليدل على وحدة مصدرهما. **فسبحانَ مَنْ هذا كلامُهُ!**

وأنت تستطيع أن تتأمل في آية الأحزاب، كما تأملها الإمام الشافعيُّ مِنْ قبلُ، ليتضح لك أَنَّها أوضح مِمَّا ذُكِرَ في الدلالة على المقصود ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا**﴾ فالتلاوة هنا القراءة المرة بعد المرة، والمتلو هنا شيئان أولهما آيات الله في كتابه، وثانيهما الحكمة وهي صنف آخر من الوحى المتلو، ولا يكون ذلك إلَّا السنَّة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويتلخص مِمَّا ذُكِرَ أَنَّ النبيَّ والرسول وظيفتهما الأولى هي البلاغ عن الله ﷻ، لتسمع الآذان كلام الله ، وتتعقل القلوب وحيه.

٢ـ أَمَّا المهمة الثانية أو الوظيفة الثانية للنبيِّ فهي أنْ يطبق الوحى على نفسه، على نحو ما أراده الله ﷻ، بشرط أَنْ يكون التطبيق في أعلى درجاته.

وهذا التطبيق نفسه ضرورة اقتضتها التربيَّة، وهو في الوقت نفسه ضرورة اقتضتها الدعوة، أَمَّا أَنْ يكون التطبيق بالنسبة للنبي ضرورة تقتضيها التربية فلأنَّ الله ﷻ حين خلق بني آدم خلقهم وفيهم عقل وغرائز، فبالعقل يتمكن الإنسان من هضم ما يقال له، فهو يستطيع مثلا أن يهضم الوحى الذي يبلغه النبي إليه، وهذا الهضم في حد ذاته لا يمكن أن تقوم عليه التربية وحده، فكثير مِنَ الفلاسفة والعلماء يفهمون ويدركون ويحللون، وينتجون في مجال العلم إنتاجًا يدخل ببعضهم إلى مجال العبقريَّة.

ولكن التربية شئ آخر، أعلى مرتبة من مجرد الإدراك والتحليل والتركيب.

ومن حكمة الله ﷻ أن يخلق في الإنسان غرائز ومنها: غريزة حب المحاكاة أو التقليد، وهي غريزة لم يخلقها الله عبثًا، وإنَّمَا خلقها لتؤدي في الإنسان وظيفة سامية، ووظيفة غريزة حب التقليد في الإنسان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أنها تدفعه إلى المثل العُليا من المبادئ والقمم الشامخة من الرجال الذين اصطنعوا هذه المبادئ، واتخذوها لأنفسهم منهج حياة.

وغريزة حب التقليد حين تدفع المرء إلى أن يحاكي المثل متمثلة في القمم الشامخات إِنَّما تفرض عليه أسلوبًا من التربيَّة مَا كان للعقل أَنْ يدفع به إلى مثله.

وتبقى هذه الغريزة لا معنى لها، بل إنَّها لتبقى ضربًا مِنَ العبث، أو لونًا من الشقشقة الفارغة إذا لم يكن هناك مثال يحتذى، وقمة شامخة من بين البشر قد قطعت مسافة التطبيق للمثال إلى أقصى ذرعها، ولا يستطيع إنسان أن يطبق شرع النبي والرسول بصورته الكاملة في أوامره ونواهيه بغير خطأ موجود أو محتمل إلَّا النبي أو الرسول، اللذين لهما بالله صلة دائمة .

فتحتم عقلًا أَنْ تكون وظيفة النبي الثانية هي أَنْ يطبق المنهج على نفسه والناس ينظرون.

وهذا التطبيق لا معنى له فيما أفهم إلَّا أَنْ يكون ذلك هو سلوك النبي وأفعاله، وهو شطر مفهومنا للسنَّة، وجزءٌ هام من معناها على نحو ما بانَ لَنَا سلفا.

أمَّا أن يكون تطبيق المنهج على النبي باعتباره الوظيفة الثانية له ضرورة تقتضيها دعوته، فهذا أمرٌ لا يحتاج إلى نقاش بل هو مما تدركه

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بداهة العقول، ولم لا !! ونحن نشترط في المصلح الاجتماعي "وهي وظيفة لم تبلغ عشر معشار دعوة النبي" أَنْ يكون على قدر مسئوليته، وأن يطبق على نفسه ما يطلب من النَّاس أن يطبقوه على أنفسهم بصورة تفوق مجموعهم، وصدق الله إذْ يقول عن بعض أنبيائه: ﴿**وما أُرِيد أن أُخَالِفَكُمْ إِلَى ما أَنْهَاكُمْ عنه إِن أُرِيد إِلَّا الإِصْلَاح ما استَطعتُ وما تَوفِيقِي إِلَّا بِاللَّه عليهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيه أُنِيبُ**﴾ [هود/٨٨].

وهكذا أجدني لا أحتاج إلى مزيد فوق ما قلت لأؤكد أَنَّ وظيفة الأنبياء الثانية: هي أن يقوم كل واحد منهم بتطبيق المنهج على نفسه.

٣ـ **والوظيفة الثالثة للأنبياء والرسل** هي أَنَّ الواحد منهم في زمانه لابُدَّ أَنْ يتعهد جيلاً في عصر مبعثه، يطبق عليه المنهج بقدرِ مَا يحتمل أبناء هذا الجيل، وهم في العادة يكونون أصحاب عزائم قوية، ونفوس أكثر صفاء بحكم أن النبي بين ظهرانيهم، وبحكم أن الله قد هيأهم لاستقبال دعوة النبي بصورة أكثر صفاء.

والنبي يتعهد هؤلاء الأتباع الذين أخلصوا له، وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وقبلوا أن يفتدوه بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم، وعاهدوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه كل عزيزٍ لديهم.

يتعهد النبي هؤلاء الصفوة ، فيصنعهم على عينه، ويربيهم على منهجه الذي هو وحى الله إليه، فهو يشرح لهم من الوحى ما لا يفهمون، ويُفصل لهم ما كان مجملا من آيات الله ﷻ، ويضيف إلى وحى الله

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المتلو المتعبد به شيئًا لم يكن قد أنزل فيه بتفصيلاته من طريق الوحى الآخر الذي هو الحكمة، ثُمَّ هو يأمرهم بعد ذلك وينهاهم، يحملهم حملا على أن يقبلوا على الطاعة يرغبهم ، ويأخذهم بالحزم على أن يجتنبوا ما نهى الله عنه، وهم أمام النبي سامعون طائعون، يمارسون حياتهم في إطار ما أمرهم النبي ونهاهم، فمن أخطأ منهم: صوبه، ومن أصاب منهم: رضى عن فعله، ومن جهل منهم: وجهه بكلماته، وهو في كل ذلك مؤتمن عليهم، موجه لهم بشرع الله ﷻ، وهم يبتدرون إلى كلامه فينصتون له، ويبتدرون فعله فيقلدونه، وينظرون إلى سمته فيقتدون بسمته.

ومن خلال تربية النبي لهؤلاء الصفوة، نجده يقول حين يوجه، ونجده يقر فعلهم حين يرضى عنه، وقد يستحسنه منهم إذا وافق فعلهم قواعد الشرع، فيخرج جيل يصلح أن يكون القدوة للأجيال، تسير الأجيال بعدهم على سنتهم وطريقتهم لأنَّها حين صنعت إنَّما صُنعت على عين النبي.

ومن هذه الوظائف الثلاث للأنبياء عامة، وللنبي ﷺ خاصة نستطيع أن نستنبط بجلاء ووضوحٍ أَنَّ للنبي ﷺ أقوالًا هي في بلاغ وحى الله المتلو بقسميه، وللنبي ﷺ أفعالًا تظهر من تطبيقات المنهج عليه، وللنبي تقريرات تبدو منه وهو يربي أمته في جيلها الأول، وللجيل الأول سيرة منضبطة على منهج الله كما تعهدهم النبي في تطبيقاته.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذه الحقائق التي بدت أمامنا مِنْ وظائف النبي حين نضمها ضما، ونؤلف بينها تأليف، سنجد أَنَّها هي السنَّة بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، فسنَّة النبيِّ ﷺ ليست سوى أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وأوصافه الخلقية، وآثار الجيل الأول في صفائه وارتفاعه ممن ثبتت صحبتهم لرسول الله ﷺ واتباعهم له .

ونحنُ لسنا بحاجةٍ بعد ذلكَ إلى التأكيد على أَنَّ السنة والقرآن جميعا يعودان إلى مصدر واحد وهو الله ﷻ، وإذ لا يخفى على عاقل أَنَّ الله ﷻ هو المشرع وحده وأَنَّه ليس لغيره مهما كان هذا الغير، إليه أن يتولى أمرًا من أمور التشريع وهذه نقطة اتفاق ينبغي أَلَّا نحيد عنها. غير أَنَّ الذي ينبغي أن ننبه إلى بعناية هو أَنَّ القرآن الكريم قد نص على بعض التشريعات تفصيلًا، من نحو ما تعلق به منكرو السنَّة، ولكنه في نفس الوقت قد ذكر بعض الأشياء على وجه الإجمال، وصاغها صياغة عامة، وترك للنبي ﷺ أَنْ يبينها للناس، والنبيُّ إذًا بينها بعد أنْ أخبره جبريل عليه السلام بها، فيكون بيانه عليه الصلاة والسلام لها مبنيًّا على وحىٍ صريحٍ، وهو إذا بينها بعد أن نفث الله في روعه، أو بعد اجتهاد منه أقرَّهُ الشارع عليه فهو كذلك جاء مبنيًّا على وحىٍّ، إذْ النفث في الروع وحىٌّ ولا شكَّ والإقرار على فعل فعله النبي هو بمنزلة الوحى الصريح، إذْ لا يعقل أن يفعل النبي ﷺ فعلا خطأ، ويقره الله ﷻ عليه.

ولا يجوز لإنسانٍ أَنْ يماري في هذا إلَّا إذا كان يقصد إلى هدم الشريعة من أساسها.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والأمثلة التي قام بها النبي مِمَّا يبين القرآن، ويشرحه ويجليه بما فعله النبي ﷺ في موضوع الصلاة ، إذْ الصلاة في القرآن الكريم قد ورد الأمر بها على الجملة، وكان الأمر العام، عاريًّا عن الكيفيَّة التي تؤدَّي بِهَا الصلاة، وعاريًّا من عدد الصلوات بل هو عار من عدد الفرائض في اليوم الواحد، بالإضافة إلى أَنَّه لم يتعرض للشروط الواجبة في أداء الصلاة إلى غير ذلك.

فجاءت السنَّة النبويَّة فبينت عدد الفرائض في اليوم الواحد، وبينت عدد الركعات في كل فرض، وبينت الكيفيَّة التي تؤدَّي عليها الصلاة، والشروط اللازمة لهذا الأداء.

وتستطيعُ أَنْ تقولَ مثل هذا في الزكاة، إذْ أَنَّ طلب أدائها في القرآن قد جاء بأسلوب عام، فحددت السنَّة الأموال التي تجب الزكاة فيها، والحد الأدنى لأداء الزكاة (النصاب) والوقت الذي تجب الزكاة بعده، والمقدار الواجب إخراجه إلى غير ذلك.

كما تستطيع أَنْ تطبق الشئ نفسه على الصيام، والحج، والبيع، والشراء، والزواج، والطلاق، والمأكولات والمشروبات .... إلى آخره.

والذين ينكرون السنَّة يخافون من افتضاح أمرهم إذا أقحموا أنفسهم في عمق الشريعة يناقشونها، لأنَّكَ ستجدُ الواحد منهم ساذجًا إِنْ أرادَ أَنْ يثبت على موقفه أمام النَّاس، وستراهُ مدلِسًّا إذَا أراد أن يحافظ على ماءِ وجهه أمام الجماهير.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهو في سذاجته وتدليسه يعبث بعقول النَّاس غاية العبث، ويدخل على الشريعة أمورًا ليست منها، ويُخْرِج مِنَ الشريعة أمورًا هي من أساساتها .

وليس هذا فقط، وإنَّما ستجد نفسك تواجه هؤلاء القوم بأشياء هي موجودة في الشريعة الإسلاميَّة، والقرآن الكريم لم ينص عليها .. وهي موجودة في السنَّة وموافقة للطبع والذوق السليم، وكلها مِمَّا تمجه الأسماع، وترفضه الطباع، فالمرأة مثلا تكون في عصمة الرجل، ولها خالة وعمة، الطبع السليم يمنع أَنْ تتزوج العمة على بنت أخيها والخالة على بنت أختها، والخالة على بنت أختها.

والسنَّة النبويَّة قد جاءت تحرم الجمع في عصمة واحدة، وفي وقت واحد بين البنات والخالات أو البنات والعمات، وأصحاب هذا الاتجاه، اتجاه انكار السنَّة، لا يجدون غضاضة في هذا الجمع والذي أنكره المجتمع المسلم ومجته طباع النَّاس منذ النبي ﷺ وإلى الآن.

ولن أستطرد معك في تفصيلات ما فعلوه من إدخال أمور في الشريعة ليست منها، وإخراج أمور من الشريعة هي من صلبها.

لكني سأقف معك عند هذا المثال: الله ﷻ يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة/١٨٠]، إننا بمقتضى هذه الآية مكلَّفون أن نوصي بشيء

غير معلوم عند الموت للوالدين والأقربين، عندما تكون من أرباب الأموال المالكين للخيرات.

والله ﷻ يقول: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء/١١].

ونحن بمقتضى آيات الفرائض : لا نتحكم إراديًّا في أموالنا قبل موتنا، وإنَّما تنتقل أموالنا بمقتضى الموت من ذممنا إلى ذمم أقربائنا طبقا لنظام دقيق وضعته آيات المواريث.

وإذا كان الأمر سيتوقف على فهمنا نحن للقرآن، فإننا سوف نقف عاجزين أمام هذين الموقفين، فقد يقول قائلنا: إننا نتبع نظام المواريث في آية النساء، فنعطي الآباء والأبناء بمقدار ما فرض الله لهم.

وقد يقول قائل آخر: لا بل إننا سنتحكم في أموالنا قبل موتنا ونقسمها بين أقربائنا بما فيهم الآباء بأسلوب نرتضيه، وبطريقة نقترحها، ونلزم بها من يخلفنا على طريقة الوصية كما نصت عليه آية البقرة السالفة الذكر.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإنَّ كل واحدٍ من الموقفين سيجد له أنصارا وأتباعا، وسيجد له مؤيدين مغرضين في مواقفهم، أو غير مغرضين.

ولكن رحمة ربك أوسع لنا من ذلك، فجاءت السنَّة فاصلة في هذا الموقف وحاكمة فيه، ولا يغرنك ما يشوش به هؤلاء، ويرفعون به عقيرتهم ليخدعوك حين يقولون: كيف تكون السنَّة حاكمة وفاصلة في موقف جاء به القرآن والقرآن وحى!! لأنني سأعود لأؤكد لك أنَّ السنَّة وحى كما أَنَّ القرآن وحى، وأنَّك في القرآن مأمورٌ باتباع النبيِّ في سنته، كما أنك مأمور في اتباعه حين يبلغك القرآن عن ربه.

أمور عظيمة وكثيرة تدلك على خطأ هذا الموقف، وعظم هذا الجرم الذي ترتكبه هذه الشرذمة في حق دينها ونبيها، بل في حق ربها وخالقها.

والقدماءُ مِنَ العلماء قد وجدوا أنفسهم مضطرين لأنْ يقولوا كلمة فاصلة، معذرة إلى ربهم ولعلهم يرجعون، ومن هؤلاء الإمام الشافعي حيث قال في رد هذه الشبهة: فليست تنزل بأحد من دين الله نازلة إلَّا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [إبراهيم/١]. وقال: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل/٤٤].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل/٨٩]..

والتبيان اسم جامع لمعاني مجتمعه الأصول متشعبة الفروع، مِمَّا تعبدهم الله به، ومن ذلك:

١ــ مَا أبانه لخلقه نصًا مثل جعل فرائضه في أَنَّ عليهم صلاةً وزكاةً وصومًا وحجًا، وأنَّه حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونص الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وبين لهم كيف فرض الوضوء مع غير ذلك مما تبين نصًا.

٢ــ ومنها ما أُحْكِمَ فرضه بكتابه، وبيَّنَ كيف هو على لسان نبيه ﵊ مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها وغير ذلك من فرائضه التي أنزل في كتابه.

٣ــ ومنها مَا سَنَّ رسول الله ﷺ مما ليس لله فيه نص حكم، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسول الله ﷺ والانتهاء إلى حكمه فَمَنْ قبل عن رسول الله ، فبفرض الله قبل ، وإلَّا فلا.

٤ــ ومنها ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد، كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم، ثم قال: فكل من قبل عن الله فرائضه في كتابه قبل عن رسول الله سننه بفرض الله طاعة رسوله على خلقه، وأن ينتهوا إلى حكمه ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل. لما افترض من طاعته، فيجتمع القبول لما في

كتاب الله ولسنة رسول الله القبول لكل واحد منها عن الله . وإن تفرقت فروع الأسباب التي قبلت بها عنهما"[١].

وقال الإمام الشوكاني: " اعلم أنَّه قد اتفق مَنْ يعتد بِهِ مِن أهل العلم على أَنَّ السنَّة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنَّها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، وقد ثبت عنه ﷺ أَنَّه قال: ألا وإني أويت القرآن ومثله معه . أي أوتيت القرآن وأوتيت مثله من السنَّة التي لم ينطق بها القرآن، وذلك كتحريم لحوم الحمر الأهليَّة وتحريم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير. وغير ذلك مِمَّا لم يأتِ عليه الحصر ..... والحاصل أَنَّ ثبوت حجية السنَّة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينيَّة ولا يُخالف في ذلك إلَّا مَنْ لاحظ له في دين الإسلام"[٢].

وقال الخطابيّ فى شرح حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو داود في سننه عن المقداد بن معد يكرب : " ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول: عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه".

---

(١) الرسالة : ص ٢٠ ، ٢٢ بتصرف يسير.

(٢) إرشاد الفحول ـ للشوكاني ـ ص ٣٣ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال الخطابي يشرح هذا الحديث: قوله: " أوتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين:

أحدهما: أَّن معناه أَنَّه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو مثل أعطى من الظاهر المتلو.

والثاني: أنَّه أوتى الكتاب وحيًّا يتلى، وأوتى من البيان مثله، أي أذن له أن يبين ما في الكتاب فيعم ويخص، ويزيد عليه، ويشرح ما في الكتاب، فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن".

وقوله: " يوشك رجل شبعان .." يحذر بِهذا القول من مخالفة السنن التي سنَّهَا مِمَّا ليس له من القرآن ذكر، على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض، فإنهم تمثلوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا ..

وأراد بقوله : " متكئ على أريكته " أنَّه من أصحاب الترف والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه " .اهـ

وقال القرطبيُّ : " باب تبيين الكتاب بالسنَّة وما جاء في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل / ٤٤]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور/٦٣]، وقال تعالى: **﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾**[الشوري/٥٢].

وفرض طاعته في غير آية من كتاب الله وقرنها بطاعته ﷻ، فقال تعالى: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**[الحشر/٧].

ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد: أنه رأى محرما عليه ثيابه فنهى المحرم، فقال: أئتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي، قال: فقرأ عليه : **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** [الحشر /٧].

وعن هشام بن حجير قال: كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر. فقال ابن عباس رضي الله عنهما : اتركها ، فقال: إنَّما نهى عنهما أنْ تتخذا سنَّة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : قد نهى رسول الله ﷺ عَنْ صلاة بعد العصر، فلا أدري أتعذب عليهما أم تؤجر، لأنَّ الله تعالى قال: **﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قض الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾**[1].

هذه هي الشبهة الأولى في إجمالٍ مجمل، والرد عليها في تلخيصٍ غير مخل.

ولَمَّا كان علماءُ الأمة في كل زمانٍ قد وقفوا سدًّا منيعًا في وجه هذه الشبهة، ولَمَّا كانت جماهيرُ الأمة فيما عدا المغرضين قد حقروا من

---

[1] الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ٣٢/١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

موقف هؤلاء، وأوقفوهم عند حجمهم الطبيعيّ الناجم عن موقفهم من النبيِّ ﷺ وسنته، اضطر هؤلاء إلى أنْ يميلوا إلى التهويش والتشويش بقولهم المستمر: إذًا أنتم تكذِّبون الله، اعْرضوا أنفسكم على المقياس الوحيد، هل أنتم تغضبون إذَا ذُكِرَ الله وحده ؟! هل أنتم تستريحون إذا مَا ذُكِرَ غير الله ﷻ معه ؟ ثُمَّ هم يلجئون إلى ركيزة أخرى حيث يقولون: إنَّ الكثرة الغالبة من المؤمنين كفرة، لأنَّهم يسبحون بحمد النبي محمد، ولا يسبحون بحمد الله، ألا ترى إلى هذا البهتان؟ ثُمَّ يقولون: والكثرة من المؤمنين اليوم ليسوا بمؤمنين، لأنهم يأخذون بالسنَّة إلى جوار القرآن، ثُمَّ يتوجون هذا بما يخدع البسطاء حين يقولون: إننا لم نقل ذلك وإنَّ هذه الأحكام ليست لنا، وإنَّما الذي حكم بذلك هو الله ﷻ فهو القائل: ﴿**وما أكثر النّاس ولو حرصتَ بمؤمنين**﴾ وهو القائل: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بِالله إلّا وهم مشرِكون**﴾.

سبحانك ربي، أَلم يقل النَّاسُ مِنْ قبل: إنَّ إبليس أفضل من الملائكة؛ لأنَّه أُمِرَ بالسجود لغير الله فأبى، وأمر الملائكة بالسجود لغير الله فسجدوا ؟!

تُدلس هذه الطائفة على الأمة بِمَا لعلها لم تفهمه .

والله ﷻ حينَ يقولُ: ﴿**وما أكثر النّاس ولو حرصتَ بمؤمنين**﴾ عَبَّرَ ﷻ بكلمة النَّاس، والنَّاس هنا كلمة عامة تشمل المؤمن والكافر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحين قَالَ: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾ لم يرجــع الضــمير إلى المؤمنين الذين اتبعوا محمدًا ظاهرًا وباطنًا، إنَّما أَرْجعه إلى الكافــة، وَمَنْ الذي لا يؤمن بالله ربًّا وخالقًا ؟! الجميع مطبقون على الوحدانيَّة في الربوبيَّة، ولكنهم مع ذلك يتوجهون بالعبادة إلى غير الله، ومنكرو الســنَّة تتوجه إليهم هذه الآيات لتكشف عمالتهم لغير الله، وعملهم لحساب جهات أخرى ليدمروا عقيدة المسلمين، بحيث يقضون علــى شــريعتهم وعلــى عقيدتهم، ويحيلونهم في كل قضاياهم على العُرف في كل زمان، وعلــى العادة في كل عصر.

فيالها من ضحكات اختلطت بالدموع على رجال قد فرطــوا فــي دينهم !!

ويا له من عجب ممزوج بالأسى على أناس يفترون على ربهم !!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشبهة الثانية:

وَأَمَّا الشبهةُ الثانية مِمَّا يثيره هؤلاء القوم، ويغبِّرونَ بِهِ في وجه الحق مَا ذكروه مِنْ قولهم: إنَّ الله ﷻ قد تكفل بحفظ القرآن الكريم ولو كانت السنَّة مِمَّا هو مهمٌ في الدين أو عليها معول في الشريعة لتكفل الله ﷻ بحفظها، كما تكفل بحفظ القرآن الكريم وهم يؤيدون كلامهم كالعادة بِمَا يظنون أَنَّه دليلٌ يؤيد كلامهم مِنَ القرآن الكريم مِنْ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر/٩] وهذا لا يصلح لهم إِلَّا إِذَا فسروا الذكر بالقرآن، وجعلوهما مترادفين.

جواب هذه الشبهة:

ونحن لو أردنا أَنْ نناقش هؤلاء القوم بطريقة جدليَّة لفعلنا، إذْ بإمكاننا أَنْ نقولَ: إِنَّ الله ﷻ قد أنزل على الأنبياء السابقين كُتُبًا عليها تدور رسالتهم جميعًا، بحيث يرتبط كل واحد منهم بكتاب أو صحف قد أمره الله أن يبلغها إلى قومه ويحملهم على اتباعها، وما علمنا أَنَّ الله ﷻ قد وعد بحفظ هذه الكتب، بل الذي علمناه خلافه وهو أَنَّ الله ﷻ قد استحفظ أتباع الرسل والممتازين منهم على وجه الخصوص على هذه الكتب وأمرهم أَلَّا يضيعوها، فكان ما كان من التفريط والتضييع، حيث قد علمناه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة/٤٤]، ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون * وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون * أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون * ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلّا أماني وإن هم إلّا يظنّون * فويلٌ للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلًا فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون﴾ [البقرة/ ٧٥-٧٩]، وقد وصل هؤلاء في تحريفهم وتزويرهم إلى أَنَّ قالَ اللهُ فيهم: ﴿يا أيها الرسولُ لا يحزنك الّذين يسارعون في الكفر من الّذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الّذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الّذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾ [المائدة/ ٤١-٤٢].

علمنا أَنَّ الله ﷻ مَا وعد بحفظ الكتب ولا وعد بحفظ الصحف السابقة، ولكن الذي علمناه هو أَنَّ الله قد استحفظ القوم على كتبهم فضيعوها، وهذا الاستحفاظ، وما ترتب عليه مِن الضياع لم يحملا أحدًا من العلماء أو غير العلماء على الشك في نزول هذه الكتب، وأنَّها كانت

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في يوم مِنَ الأيام صادقة النسبة إلى الله ﷻ، وكل الذي شك العلماء فيه هو أَنَّ هذه الكتب لم يتوافر لها الطريق الصحيح للنقل بين الأجيال فكانت هذه الأخيرة هي موضع البحث والنظر، يتأملها مَنْ يتأملها، فيقبل هذه الكتب في صورتها الحاضرة، أو يردها بناء على المنهج الصحيح للنقل والرواية.

إِنَّ هؤلاء قد تشدقوا بآية وردت في كتاب الله وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر/٩] وحملوا كلمة (الذكر) على القرآن وحده دون فعل النبي ﷺ وقوله وتقريراته، وأخرجوا من الذكر بقيَّة أمور الإسلام التي نعتقدها ولا يعتقدونها مِمَّا ذُكِرَ لَكَ سلفاً، وَمِمَّا سيأتي ذكره، حملوا الذكر على القرآن بغير دليلٍ يدلهم على ذلك، فالله حين وعد بالحفظ: إنَّما وعد بحفظ رسالة محمد بتمامها عقيدة وشريعة، وأمر الحفظ لا يتمُّ على هذا النحو إلَّا إذا حفظ القرآن والسنَّة جميعا. وهذا الفهم المبسط قد فهمه علماؤنا الأوائل الذين لهم اهتمام بالعلم، ولهم أدواته التي تساعدهم على الاشتغال به واستجلاء مسائله.

فالإمامُ الشافعيُّ رحمه الله يقولُ في ذلك مؤكدًا أَنَّ السنَّة قد حفظت جملةً وتفصيلا:" إنَّ السنن موجودة عند عامة أهل العلم، وإنْ كان بعضهم أجمع من بعض، ولكن إذا جمع علمهم أتى عليها كلها، وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشئ منها، ثمَّ كان ما ذهب عليه منها موجودا عند غيره، ولا شك أننا نقطع بهذه النتيجة فنحن لا نشك في أنَّه لم يضع من سنَّة رسول الله في الصلاة والزكاة والحج والصيام والمعاملات

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والفرائض شئ قطعًا، وَأَنَّ كل ما كان عليه رسول الله وقاله مجموع مدون وإن اختلفت طرق وتباينت مراتبه"(١).

والشيخ ابن حزم يؤكد نفس المعنى مِنْ أَنَّ السنَّة محفوظة بجملتها وتفصيلها، فيقولُ: "ولا خلاف بين أحدٍ مِنْ أهل اللغة والشريعة في أَنَّ كل وحى نزلَ مِنْ عِند الله فهو ذكرٌ منزل، فالوحى كله محفوظ بحفظ الله تعالى له بيقين، وكل ما تكفل الله بحفظه فمضمون أَن لا يضيع منه وألَّا يحرف منه شئ أبدًا، تحريفًا لا يأتي البيان ببطلانه" .

ثُمَّ رَدَّ ابن حزم على مَنْ زعم أَنَّ المراد بالذكر في الآية القرآن وحده، فقالَ: "هذه دعوى كاذبة مجردة عن البرهان، وتخصيص الذكر بلا دليل.... والذكر واقع على كل ما أنزل الله على نبيه ﷺ مِنْ قرآن أو سنَّة وحى يبين بها القرآن، وأيضا فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿**وأَنزَلْنَا إِلَيكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [النحل/٤٤] فصح أنَّه عليه السلام مأمور ببيان القرآنَ للنَّاس، وفَي القرآن مجملٌ كثير كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك مما لا نعلم ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه، لكن ببيان النبي ﷺ، فإذا كان بيانه عليه السلام لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مِمَّا ليس منه فقد بطل الانتفاع بنص القرآن، فبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فإذاً لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها"(٢).

---

(١) الرسالة : ص ٤٣.

(٢) الأحكام : ١٢١/١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هكذا يركز العلماء على المعقول مِنْ فهم معنى الذكر.

وحتَّى لو انسقنا وراء القائلين بِأَنَّ الذكر المراد منه القرآن الكريم فقط، فإنَّ العلماء يؤكدون على أَنَّ السنَّة هي الأخرى: قد حفظت وحفظها أمرٌ ضروريٌّ لاحتياج المسلمين إليها إلى جانب القرآن، وأنت خبيرٌ حينئذ بأنَّ هذه الشبهة التي نحن بصددها الآن لا تقوى على الصمود أمام العقل، وهي لا تقوى على الصمود أمام مقتضيَّات الشريعة وحتَّى أصحابها الذين اصطنعوها حين انهار أمامهم التفكير العقلي برفضهم للسنَّة انقلبوا إلى الخيال يستلهمون منه الحل، ويطلبون منه النجدة والنصفة، فأمرهم الخيال تارة بطريقة وشريعة سيدنا إبراهيم لتكون بديلاً عن شريعة النبي محمد، وتارة بالعرف الذي يمدهم بالتشريع حين لا يجدون تفصيلات التشريع في القرآن الكريم على نحو ما بينا لك، وعلى نحو ما سنبين لك إن شاء الله.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشبهة الثالثة:

تدورُ هذه الشبهة الثالثة عندهم حول مجموعة من الأحاديث عثروا عليها وهم يقولون أَنَّ خلاصتها جميعًا تدور حول أَنَّ النبي ﷺ قد رفض أن تكون السنَّة حُجَّة بنفسها وأمر المعاصرين له والأجيال التي ستأتي بعده أن يفحصوا ما نُسِبَ إليه مِن الأقوال، فإنْ كان فيها الحق فهو قد قالها، أو هي صحيحة النسبة إليه سواء قالها أم لم يقلها، ثُمَّ هو قد طالب جيله في عصر المبعث، وطالب الأجيال التي تليه إلى أن تقوم الساعة بأن يعرضوا كل ما نُسِبَ إليه القرآن، فَمَا وافق القرآن فهو قاله، وَمَا خالف القرآن، فهو لم يقله.

وهم يستنتجون من هذا كله ونظائره: أَنَّ النبي ﷺ قد رفض حُجَّية السنَّة، ودليلهم هذه الأحاديث المروية عنه، نعم هذه الأحاديث المروية عنه، عجباً لهؤلاء القوم!! يأخذون مِنَ التراث مَا يريدون ويرفضون منه ما يشاءون، فهم ينكرون حُجية السنَّة مستعينين بما يعتقدون أَنَّه مِنَ السنَّةِ.

وَمِنَ الأحاديث التي يرويها هؤلاء القوم ويستشهدون بها: "إنَّ الحديث سيفشو عني، فما آتاكم يوافق القرآن فهو عني، وما آتاكم عني يُخالف القرآن فليس مني".

ومنها: "إذا حدثتم عني حديثاً تعرفونه ولا تنكرونه قلته أو لم أقله، فصدقوا به، فإني أقول ما يعرف ولا ينكر، وإذا حدثتم عني حديثاً

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تتكرونه قلته أو لم أقله، فلا تصدقوا به فــإني لا أقــول مــا ينكــر ولا يعرف".

ومنها: "إني لا أحل إلَّا مَا أحل الله في كتابه ولا أحرم إلَّا مَا حــرَّم الله في كتابه".

وفي رواية: "لا يمسكن النَّاس عليَّ بشيءٍ، فإنّي لا أحل لهم إلَّا مَــا أحلَّ الله ولا أُحرِّم إلَّا مَا حرَّم الله".

هذا هو جماع ما تمسكوا به هُنا، نقلته لك على وجهه، لنتمكن معاً من مناقشته.

لكن مِنْ باب الترويح عن النفس أسأل نفسي: ما هؤلاء القوم الذين يستدلون بالسنَّة وينكرونها، ويأخذون بها ويرفضونها، ويقبضون عليهــا ويتركونها تنفلت من أيديهم، هل مثل هذا يسمى بحثاً ؟!

وهل يسمى ناتج هذا البحث علمًا ؟!

إنَّ شرط العلم الضروريِّ: أَنْ يكون حامله أمينًا على ما يحمــل، واعيًّا بِمَا ينقل، مطمئنًا إلى ما يستنتج.

أسائل نفسي وأحدثها من باب الترويح عنها، فإذا بها تضع أمامي، آيةٌ مِنْ كتاب الله، خاطب الله بها نبيه منذ عصر المبعث في أمثال هؤلاء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القوم حيث أمره بالانصراف عنهم فقال: ﴿**قُلْ اللَّه ثُم ذرهم في خَوضهم يلعبون**﴾ [الأنعام/٩١].

وبعد هذه الترويحة أجمع على أمري، وأخذ بجماع الجد لأحدثك في رَدِّ هذه الشبهة، وسأتركك في مقابلة بينك وبين المحدثين وهم يحكمون على هذه الروايات، حكم الصيرفي الماهر، الذي يميز في المعادن الراقية بين البهرج الفاسد، والمعدن الأصيل الراقي.

ففي الحديث الأول يقول البيهقي رحمه الله : "رواه خالد بن أبي كريمة عن أبي جعفر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخالد مجهول وأبو جعفر ليس بصحابي فالحديث منقطع " (١).

وقال الشافعيُّ رحمه الله : "مَا روى هذا أحد يثبت حديثه في شئ صغير ولا كبير وإنَّما هي رواية منقطعة عن رجل مجهول ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية في شئ" (٢).

وقال ابن حزم رحمه الله يتعرض لبعض رواة هذا الحديث في بعض طرقه ويذكر الحسين بن عبد الله أحد رواة هذا الحديث : " الحسين بن عبد الله ساقط فيهم متهم بالزندقة " (٣).

---

(١) مفتاح الجنة : ص ١٥.

(٢) الرسالة : ص ٢٢٥.

(٣) الإحكام لابن حزم : ٢/ ٧٦.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال البيهقيُّ أيضاً: "والحديث الذي رُوى في عرض الحديث على القرآن باطلٌ لا يصح، وهو ينعكس على نفسه بالبطلان فليس في القرآن دلالة على عرض الحديث على القرآن" [(١)].

وقال الشوكاني ﵀ : "وَأَمَّا مَا يُروى من طريق ثوبان في الأمر بعرض الأحاديث على القرآن، فقال يحيي بن معين إنَّه موضوعٌ وضعته الزنادقة، وقالَ الشافعيُّ: ما رواه أحدٌ عمن يثبت حديثه في شئ صغير ولا كبير، وقال ابن عبد البر في كتابه جامع العلم: قال عبد الرحمن بن مهدي الزنادقة والخوارج وضعوا حديث: "ما آتاكم عني فأعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته وإن خالف فلم أقله"، وقد عارض حديث العرض قوم فقالوا وعرضنا هذا الحديث الموضوع على كتاب الله فخالفه لأنَّا وجدنا في كتاب الله: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ ، ووجدنا فيه: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ ، ووجدنا فيه: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ [(٢)].

هذا ما قاله العلماء في الحديث الأول المنسوب زورًا للنبي ﷺ.

ودونك ما قالوه في الحديث الثاني :-

---

(١) مفتاح الجنة : ٦.

(٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص ٣٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال ابن حزم رحمه الله: "هذا حديثٌ مرسل والأصبغ مجهول، وفيه أيضاً ما نقطع بكذبه وعدم صحته، وهو قوله : " فصدقوا به ، قلته أو لم أقله"، فحاشا لرسول الله ﷺ أَنْ يسمح بالكذب عليه وهو الذي تواتر عنه قوله: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده مِنَ النَّارِ".

ثُمَّ قال ابن حزم : "وعبيد الله بن سعيد ــ أحد رواة الحديث ــ كذابٌ مشهور، وهذا هو نسبة الكذب إلى رسول ا لله ﷺ أَنَّه حكى عنه أَنَّه قالَ "لم أقله، فأنا قلته". فكيف يقول ما لم يقل؟ هل يستجيز هذا إلَّا كذاب زنديق كافر أحمق؟!"(٢).

وقال البيهقي رحمه الله : "قال ابن خزيمة : في صحة هذا الحديث مقال؛ لأنَّا لم نرَ في شرق الأرض ولا غربها أحداً يعرف خبر ابن أبي ذئب من غير يحيى بن آدم، ولا رأيتُ أحداً من علماء الحديث يثبت هذا عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال البيهقي : وهو مختلف على يحيى بن آدم في إسناده ومتنه اختلافاً كبيراً يوجب الاضطراب، منهم من يذكر أبا هريرة، ومنهم من لا يذكره ويرسل الحديث"(١).

والحديث الثالث الذي تمسكوا به، والذي يدور كله حولَ أَنَّ النبيَّ ﷺ قد ذكر أنَّه لا يُحل إلَّا ما أحلَّهُ الله في كتابه، ولا يُحرم إلَّا مَا حرَّم

---

(٢) الإحكام لابن حزم : ٢ / ٧٨ .

(١) مفتاح الجنة : ١٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الله في كتابه، والذي يفيد بفحواه: أَنَّ السنَّة لا تضيف شيئاً إلى التشـــريع، فإنَّ هذا الحديث للعلماء فيه مقال.

قال السيوطي رحمه الله: أخرجه الشافعي والبيهقي من طريق طاووس، قال الشافعي: وهذا منقطع. وكذلك صنع صلى الله عليه وسلم وبذلك أمر وافترض عليـــه أن يتبع ما أوحى إليه، ونشهد أنَّه قد اتبعه، فإنَّما قبل بفرض الله تعالى.

قال البيهقي رحمه الله وقوله "في كتابه": إنْ صحت هذه فإنَّما أراد فيما أوحى الله، ثُمَّ ما أوحى إليه نوعان : أحدهما وحيٌّ يتلى، والآخر وحى لا يتلى[١].

وأنت ترى أَنَّ البيهقي رحمه الله فَسَّرَ الكتاب بِمَا هو أعم مِنَ القرآنِ.

وهكذا رأينا أَنَّ هذه الأحاديث التي استشهدوا بها على كلامهم كلها تحدَّثَ العلماء فيها على نحو ما نقلتُ لَكَ مِن كلامهم، فأصبحت الشـــبهة عاريةٌ عَنْ الدليل، مجردة عن الإثبات.

---

(١) مفتاح الجنة : ١٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشبهة الرابعة :

أَمَّا الشبهة الرابعة التي يسوقها هؤلاء قديماً وحديثاً ، فهي تلك التي تدور حول أنَّ السنَّة لم تُكتب كما كُتِبَ القرآن، وظلت هكذا مهملة بغير كتابةٍ إلى أَنْ انقضى القرن الأول بتمامه، وتبعه القرن الثاني على أثره، حتى جاء الإمام البخاري رحمه الله وابتكر مِنْ خياله شيئاً سجله في كتابه بسند معينٍ.

ولعلَّ الإمام البخاري قد أنصت إلى الشيطان، فأملى عليه الشيطان ما نسباه معاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولم لا !! والبخاري وقرينه يصدق فيهما ما قاله الله تعالي: ﴿**شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه**﴾.

كلام كثير هنا قد ذكروه، ولكني أردتُ أَنْ اختصر لك ، فوضعت ناصية الكلام بين يديك.

رَدُّ هذه الشبهة :

ولو أردنا أَنْ نقفَ عند هذه الشبهة طويلاً لفعلنا، إذْ مِنَ الممكن أن نتتبع سنَّة النبي في عصورها المختلفة، بدء من عصر المبعث وانتهاء بالعصر الذي استقرت فيه السنَّة على نحو ما هي موجودة عليه الآن .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لكني سأترك ذلك إلى مناسبة أخرى من هذا البحث، ولعلهم هنا بشبهتهم تلك قد أعجلوني عَنْ أمر عقدت العزم للحديث فيه، ونحن أمام هذا لاضطرارٍ لابُدَّ أَن نقول كلمة موجزة في رَدِّ هذه الشبهة .

وأنت خبيرٌ بأنَّ هناك روايات تاريخيَّة موثوق بها تفيد أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم قد كتبوا السنة في عصر المبعث، بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وطبقاً لمنهج الرواية في التاريخ نفسه، فإننا مطالبون أن نجمع بين روايات قد منعت من كتابة السنَّة، وروايات أخرى بمقتضاها أبيح كتابة السنَّة، والجمع بين الروايات عمليَّة فنيَّة للمؤرخ والمختص في فن الرواية، ولا يستطيع أن يقوم بها إلَّا مَنْ يملك أدوات العلم، ويسيطر عليها سيطرة تامة، فهو قد يلمح من الروايات ما يفيد أن بعضها أسبق من بعض، ويلمح كذلك أَنَّ بعض العصور يلائم هذه الرواية، والبعض الآخر لا يلائمها، وإنَّما يتطلب غيرها .

وسوف أضربُ لَكَ مثلاً واحداً تتضح به الصورة، ويجلو به المقام.

يتشدق القوم حين يعتزمون إنكار السنَّة، بِمَا رُوى في مسندِ الإمام أحمد وصحيح الإمام مسلم وغيرهما إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكتبوا عني شيئاً إلَّا القرآن وَمَنْ كتب عني شيئاً فليمحه".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويظنون أَنَّهم بذلك قد وجدوا ضالتهم على الأقل في الحكم على العصور بما يوافق هواهم، وينسجم مع طبعهم.

وكان من الممكن أن نقول أَنَّه ليس لهم أن يستشهدوا بحديثٍ مِنَ السنَّة التي ينكرونها، غير أننا سنعدل عن هذا الإلزام لنقول: إنَّ هذا الحديث في مواجهة روايات أخرى وهي صحيحة تعادل في الدرجة هذا الحديث إن لم تزد، ومنها : ـ

مَا رواهُ أبو داود والحاكم وغيرهما عَنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قالَ: قلتُ يا رسول الله، إنّي أسمع منك الشئ فأكتبه، قال: نعم، قلتُ: في الغضب والرضا؟ قال: نعم فإنّي لا أقول فيهما إلَّا حقاً.

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "لم يكن أحدٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً منّي إلَّا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص فإنَّه كان يكتب وأنا لا أكتب".

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمع منه الحديث فيعجبه ولا يحفظه فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: استعن بيمينك وأومأ بيده إلى الخط " .

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما : أن أبا شاه اليمني التمس من النبي صلى الله عليه وسلم أنْ يكتب له شيئاً سمعه من خطبته عام الفتح فقال : "اكتبوا لأبي شاه" .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذه الأحاديث المبيحة للكتابة في مواجهة أخواتها، المانعة لهـا، ممكن للناقد الحصيف أن يجمع بينها بسهولةٍ.

فنحن مثلاً نستطيع أن نتأمل موقف أبي شاه، وطلبه من النبـي ﷺ أن يسمح له بكتابة السنَّة، والنبي ﷺ يأذن له في أن يُكتب له ، بل إنَّـه يأمر بذلك أمراً مطاعاً، نستطيع أن نتأمل ذلك ، لنعلم ببسـاطة أنَّ هـذه الحادثة كانت في فتح مكة، أي في أخريات عصر المبعث، وما قبلها من الروايات التي تمنع كتابة السنَّة في أوائل عصر المبعث، أو على الأقـل في السنوات الأولى من هجرته ﷺ.

ويبدو أَنَّ الروايات التي أباحت كتابة السنَّة كانت جميعها متـأخرة عن الروايات المانعة من كتابتها، وهذا أمرٌ يحمل الباحث على أن يعتقـد أنَّ مَا جاء متأخراً هو المعتمد، وأنَّ ما جاء أولاً كانت له ظروف خاصة.

هذا ، ويبدو أننا لسنا في حاجة إلى مثل هذا الموقف الدفاعي، ذلك أننا نتحدث عن بيئة عربية، والبيئة العربية لها وسـائلها فـي الاحتفـاظ بآثارها وأنسابها، والله ﷻ قد منح العرب ذاكرة حافظة، وملكة قوية، بها يحفظون آثارهم ويحتفظون بأنسابهم، وعلى أساس مـن هـذه الـذاكرة الحافظة اعتمدنا شعر العرب وأنسابها، وتاريخها، من غيـر أن يشـعر الواحد منا بغضاضة في ذلك، ومن غير أن يجد في نفسـه أنَّـه خـالف منهجا علميًّا .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على أَنَّ أكثر المؤرخين حداثة يعتمدون على رواية الرواة، كل ما في الأمر أنهم يشترطون النظر في النص المنقول مقيساً إلى قواعد منهجيَّة باستبعاد مَا عسى أن يكون الهوى قد وضعه ضمن الرواية المرويَّةِ.

الأمرُ إذاً أهون مِمَّا يتصوره هؤلاء، فنحن إذا اعتبرنا ما ذكروه في هذه الشبهة من ناحية الشكل، فإنَّه يمكن أن نرده من ناحية الموضوع، على أساس أَنَّ هناك روايات أخرى تعارض ما ذكروه، وهي متأخرة عنه، ونحن إذا ما رددنا ما ذكروه في الرواية شكلاً وموضوعاً، فهذا من حقنا، ويعضده ما نعرفه من طباع العرب في نقل الروايات، استناداً إلى ما منحهم الله من حافظة قوية، وملكة فرديَّة وجماعيَّة لا تخطئ.

تلك هي الشبهات التي ساقوها، ذكرتُها لكَ على وجهها، واختصرتُ في الإجابة عن بعضها استناداً إلى ما سوف أذكره بعد إن شاء الله في أماكن أخرى من هذا البحث.

وحين ننهي الكلام عن الشبه ، ينتهي معه الحديث عَمَّا أردتُ من هذا الفصل كله ، الذي عقدناه لنوقفك على حقيقة تصور هؤلاء المنكرين للسنَّة، ونبين لك كيف كانوا يفهمونها ويحددون للناس حقيقة فهمهم لها .

وما فعلوه في السنَّة فعلوه فيما يعرف بين العلماء قديماً وحديثًا، بحديث رسول الله ﷺ وهم يقولون في الحديث كما قالوا في السنة،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يقولون: إن النبي ﷺ ليس له حديث معروف، وإذا نسب للنبي حـــديث، فإنه يكون على معنى أن النبي يتكلم بالقرآن، ويستعرضون في ســـذاجة كلمة، حديث ، على نحو ورودها في القرآن إيجاباً وسلباً .

وهؤلاء القوم حين تعقبوا الأحاديث، فرفضوها والسنة فاستبعدوها كان عليهم أن يختطوا لهم طريقا جديداً ، يكملون به ديناً لهم لا نعرفـــه، وكان عليهم أن يختطوا لهم طريقاً جديداً، يكملون به ديناً لهم لا نعرفه ، وكان عليهم من ناحية أخرى أن يجيبوا على بعض ما ترتب على كلامهم من غياب الشريعة في أهم أركانها .

وهذا موضوع الفصل التالي .

*　　*　　*

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثالث

الآثار المترتبة علي إنكار السنّة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

كان من الطبيعي بعد أن تحدثنا عن معنى السنة كما نفهمها، وعن شُبهات المنكرين لها، والرد على ضلالهم، أَنْ نتحدث عن الآثار التي تترتب على إنكار السنَّة .

وأنت لا يخفى عليك أَنَّ السنَّة بالنسبة للشريعة، ليست مِن سقط المتاع، ولا هي بالشئ الهامشيّ الذي يمكن أن نتجنبه، ولا هي بالوليد الذي ألحق بالإسلام زوراً مِن غير أن يكون له سندٌ شرعيٌّ صحيحٌ.

والإسلام كأي دين سماوي يُعالج قضاياه من خلال دوائر متعددة، فهناك مثلاً دائرة الإيمان، وفيها: أنْ يؤمن المرء بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن يؤمن بالقدر خيره وشره من الله.

وهذه الدائرة تقوم أساساً على صحة الوعي بالتوحيد، وأن يتمكن المرء فكريًّا ووجدانيًّا أن يقدر الله حق قدره، ثم يتبع الوعي بالتوحيد : كل مسائل العقيدة في النبوات والسمعيَّات، ومن أركان العقيدة: التصور الصحيح للنبوة والأنبياء وهي مسألة مهمة يجب ألَّا يغفلها كل من يريد أن ينضوي تحت شريعة الإسلام .

ومفهوم النبوة في الإسلام يكاد يكون من أبجديَّات هذا الدين.

و علاقتنا بالنبي ﷺ خاصة وإخوانه النبيين على وجه العموم علاقة تحتمها الضرورة الأخلاقيَّة والتربويَّة، فإذا ما انفصمت عُرى

العلاقة بيننا وبين النبي ﷺ؛ صعب علينا صعوبة تكاد تكون مطلقة أن تكون لنا منظومة تربويَّة .

وهناك دائرة أخرى غير دائرة العقائد، هي دائرة التشريع أو التكليف، سواء أكان هذا التكليف متصلاً بعلاقة الإنسان بربه خاصة، أو متصلاً بعلاقة الإنسان بربه من خلال تشريع يضبط سلوك الأفراد الاجتماعي في مجالات الاجتماع المختلفة.

وهذه الدائرة تحتاج إلى قواعد نظرية عامة، وهي تلك التي تمثل الإطار المذهبي العام الذي يحدد شخصية وهوية الشريعة الإسلاميَّة في هذه الدائرة وفي غيرها.

غير أنَّ الإطار المذهبي وحده لا يكون كافيًّا ما لم تكن هناك أشياء تشبه القوانين الجزئيَّة، والتي تتصل بالواقع اتصالاً مباشرًا.

ويبدو لي أنَّ هذا التحديد، وذلك التخطيط العام، مِنَ الأمور التي لا يتنازع فيها شخصان.

وإذا كان من الممكن أنَّ الإطار المذهبي يتأتى وضعه نظريًّا، وتحديده فكريًّا، فإنَّ هذه القوانين الجزئيَّة المتصلة بالواقع اتصالا مباشرًا تحتاج إلى إنسان فاهم للمنهج، مستوعب للإطار العام واعيًّا بهما غاية الوعي، كي يستنبط هذه القوانين من الواقع إنْ كان المذهب وضعيًّا أو بشريًّا، كما أَنَّه يحتاج إلى أَنْ يكون له من المميزات ما يمكنه أن يستلهم

هذه القوانين من جهة عليا عن طريق الوحى إن كان هذا المذهب دينيًّا موحى به من الله.

وبناء على هذه الكلمات الموجزات نستطيع معاً أن نتصور دور السنَّة في هذه الدائرة .

إنَّ صاحب السنة ﷺ عليه أن يتلقى هذه القوانين الجزئية وحياً يوحى من الله ﷻ، ثمَّ هو مكلف بعد تبليغها أن يربط بينها وبين الواقع ربطاً قوياً، يمكن الأجيال القادمة من تطبيق تلك القوانين على الحالات المماثلة في الأجيال القادمة، كما أنَّه يجعل الناس يتمكنون من أن يقيسوا عليها الأشباه والنظائر، مع توفر شروط القياس التي تجعل تطبيقه مقبولاً.

وهذا الذي ذكرت لك يُعد دوراً خطيراً، لا يمكن الاستهانة به، أو التقليل من شأنه، وإلَّا بقيت الشريعة إطارًا نظريًّا عاما تحتاج إلى ما يربطها بالواقع، ويقر بها من المسائل الجزئيَّة.

والنظم والقوانين والأطر العامة تبقى كلها عديمة القيمة إذا لم تتمكن من إسقاطها على الواقع.

كما أَنَّ هناك دائرة الأخلاق إنْ صَحَّ أَنْ نَخُصها هنا بحديث بعد أن ننتزعها من الدائرة السابقة عليها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ودائرة الأخلاق تحتاج بالإضافة إلى ما ذكرناه من القوانين الجزئيَّة إلى شئ آخر وهو الحملُ على تنفيذها بالقدوة الحسنة، وشرط صاحب القدوة أن يكون معصومًا من الخطأ بعيداً عن الزلل، إذ لسنا بالعقل وحده نُقْبل على فعل الخيرات، ونتجنب اقتراف المعاصي، ومُجانفة الآثام.

والإنسان محل القدوة من أعلى درجاتها لابُدَّ أن تتوافر فيه شروط أهمها الوعي بما يفعل، وعدم جواز الخطأ عليه، إذ لو كان من المخطئين لكان اتخاذه قدوة محلاً للجدل وهو أمرٌ يخلخل الثقة فى محل القدوة، ويُجوّز الاختلاف عليه.

وتلك مسألة تنال من قيمة الرسالة، وتخدش فاعليتها .

ونختم هذه الدوائر بالدائرة الرابعة وهي: علاقة الإنسان بربه من خلال القوانين التي تنظم علاقته بالكون.

والقوانين التي تنظم علاقته بالكون ليست هي القوانين التي تحكم الظاهرة الطبيعيَّة أو الحيويَّة، وإنَّما هي مجموعة أخرى من القوانين يجب على الإنسان أن يقف عليها، وهو يتعامل مع الكون بنظمه وقوانينه التي تحكم ظواهره.

فعالم الطبيعة والكيمياء إذا كانت علاقته بالكون والحياة هي علاقة إنسان تعرف على قوانين الكون والحياة، لديه الحرية في استعمالها، فإنَّه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سيكون ضرره أكثر من نفعه، وسوف يتسلط على الكون بما أوتى من بعض العلوم، ليخرب فيه جوانب ما كان له أن يخربها .

أَمَّا حين يلتزم بمجموعة أخرى من القوانين التي وضعها صانعوه وصانع الكون جميعاً، فإنَّ هذا الالتزام نفسه يفرض عليه نوعاً من العلاقة تحد كثيراً من حريته، وتضع أمامه علامات استفهام كبرى حين يريد أن يستعمل علمه في تخريب جزء من هذا العالم الذي أتيح له أن يكتشف شيئاً من قوانينه .

مِنْ خلال هذه الدوائر الأربع التي رسمنا صورتها أمامك بشئ من الإيجاز، نستطيع أن نتصور أهميَّة السنَّة، ونتصور أَنَّ دورها ليس دوراً هامشيًّا، وأنَّها ليست من سقط المتاع، وأنَّها ليست ابناً غير شرعي للإسلام، ألحق به زوراً وبهتاناً كما ادَّعى أجناس جولد تسيهر في بعض ما كتب من محاضرات عن تطور الشريعة الإسلاميَّة وتبعه في خطواته وعلى دربه من يُبصر الطريق ومن لا يبصره[١].

وعلى الذين ينكرون السنَّة أن يملئوا الفراغ الذي تركته السنَّة في الشريعة الإسلاميَّة يوم أن أخذوا قراراً بتنحيتها، وليسوا بالطبع أصحاب قرار.

---

(١) راجع العقيدة والشريعة ، فجر الإسلام وضحاه . أحمد أمين ، أضواء على السنة النبوية ـ أبو رية وغير ذلك.

سولت لهم أنفسهم أن ينكروا السنَّة، وأن يخدعوا البسطاء بأنَّ هذا أمرُ ممكن، وادَّعوا أَنَّ السنَّة مِن عمل الشيطان، وأنَّها اختلاق اختلقه من اختلقه، ونسبه إلى النبي ﷺ زوراً وبهتاناً .

والتزوير دائماً يكون أمراً سهلاً طالما هو في إطـاره النظـري فهناك إلى جوار الحجة العقليَّة، الجدل الذي لا ينتهـي بأصـحابه إلـى نتيجة، وهناك الخداع الذي ينتهي بأصحابه إلى عكس ما عليـه الأمـر الواقع.

ولقد شاء الله ﷻ أن تكون هناك منطقة نظريَّة للإنسـان يمـارس فيها جدله وَمَا راقه.

لكنَّ الله ﷻ لم يشأ أَنْ يُعطي هذه الفرصة للإنسان حين يريـد أنْ يُسقط كلامه النظري على الواقع المحسوس، فإذا ما حدث ذلك الإسـقاط تبين زيف المواقف الزائفة وصدق الصادق منها.

فأنا الآن أحدثك من خلال حجرة مغلقة وأقـول لـك : إنَّ بَـابَ الحجرة مغلق، وأنت تستمع إليّ وربما تكون من أنصار الذين يقولون إِنَّ الأشياء لا وجود لها في الواقع، وإنَّما وجودها مجرد خيال لا يزيد عليه.

وأنا سأظل أجادلك وتجادلني في أَنَّ الباب مغلق أو مفتوح، وربما ينتهي بنا الجدال حين تقول لي: إنَّ الباب لا حقيقة له، والأحكام المتصلة به نسبيَّة، فالباب مغلق بالنسبة لك، وهو مفتوح بالنسبة لي ولا تناقض .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد ينتهي بنا الجدال على نحوٍ آخر حين أقول لك: لماذا تتناقش نقاشاً نظريًّا والباب أمامنا ؟؟، لماذا لا نحتكم إليه باعتباره أمرًا واقعًا؟؟.

وحين ينتهي النقاش عِنْد هذا الحد لا ينفعك مع هذا الاحتكام للواقع أنْ تقول: إنَّ الباب وهم، وإنَّ وجودك وهم، وإنَّ وجودي وهم، ولا حقيقة للأشياء.

ومن هذا المثل الذي ذكرت لك : يتبين أَنَّه مِنْ حكمة الله أنَّه جعل مساحة للجدل النظري تضيق إلى حد التلاشي إذا احتكمنا إلى الواقع .

وبعدَ هذا أقولُ: إِنَّ منكري السنَّة قد أوجدوا لهم مساحة من الجدل عريضة، حين قالوا: إن سنَّة النبي ﷺ عمل غير شرعي، وإنَّها من ممارسات شياطين الإنس والجن وألاعيبهم، فلما طلب إليهم أن يسقطوا كلامهم هذا على الواقع المحسوس ارتبكوا غاية الارتباك، وانقسموا شيعاً وأحزاباً، يجمعهم حب إنكار السنَّة، ويفرقهم أسلوب التخلص من الأزمة التي أوقعهم فيها مطالبة النَّاس لهم أن يسقطوا كلامهم على الواقع من غير أن يفقدوا حماستهم المكذوبة للدين الإسلامي، ومن غير أن يخدشوا منظومته التي تعارفت الأمة عليها ، أوقعهم مطاردة السؤال لهم، كيف تسقطون كلامكم على الواقع من غير أن تخدشوا منظومة الإسلام المتين، ومن غير أن تحدثوا أرشاً بينكم وبين علماء المسلمين وعامتهم؟!

وقعوا في الحيرة فتواضعوا على أن يظهر كل واحد منهم بحل لهذا الإعضال ويعرضون الحلول في وقت واحد على الأمة، فإن اقتنعت

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأمة بأحدها مجتمعة عليه وخدموه، وإن رفضت الأمة الحلــول جميعــاً قنعوا بهذا الوقت الضائع الذي أوقعوا خاصة الأمة فيــه، وهــي نتيجــة مرضيَّة لهؤلاء، حيث تمكنوا من صرف الأمة عــن ممارســة أمورهــا الجادة، وعن أن تنشغل بما يجعلها في مصاف الأمم الأخرى .

والحلول التي عرضوها على الأمة حتى يرتفعوا بها مــن وهــدة الإعضال التي سقطوا فيها كثيرة، ومنها : أننا نأخذ مِن الإســلام أطــره العامة ونأخذ منه المسائل الجزئيَّة فيما عالجه القرآن من مسائل جزئيَّــة، ونملأ الباقي بما تعارفت عليه الأمة في كل زمانٍ ومكان، كل عصر بما يناسبه، ولا يهم بعد ذلك أن تكون الأمة قد تعارفت على مــا ينفعهــا، أو تعارفت على ما يضرها، إذْ القاعدة العامة عند هؤلاء: أن يحولوا الإسلام من راعي مُثل إلى حامي واقع.

والشر كله في أنْ يتحول القانون في أمة من راعي مثــل، إلــى حامي واقع، إذْ الواقع فيه ما فيه من سفك للدماء، وهتــك للأعــراض، وشذوذ في الرجال والنساء يسمونه في العصر الحاضر المثلية الجنســية ويحبون أن يقتنوا لها.

ويرى أصحاب هذا الحل أَنَّ العُرف يعالج النقص فــي الشــريعة ويحل محل السنَّة، وهم يريدون أن يعرضوا ذلك على الأمة، فإن قبلــت الأمة ذلك كان فيه حتفها، وكانت قد استجابت بغير عقل إلى ما يهلكهــا،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويكون مثلها الذي ضربه الله في القرآن، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلَّا دعاءً ونداءً.

وهناك حلٌ آخرَ يمكن عرضه على الأمة لعلها تستجيب له، وهو أن تعيد ترتيب المنظومة الإسلاميَّة من جديد على ما تهوى وتحب مدعين أنَّ ذلك هو منهج القرآن الكريم آخذين من الآيات ما يصلح لنا، ونحن نغض الطرف، ونرد البصر عن الذي لا يصلح لنا، نبني منظومة جديدة لا تصلح لتربية أفراد، ولا تصلح لبناء أمة، فإنْ قبلها النَّاس كان ذلك ما يحبون، وإن لم يقبلوها فلا بأس، وقت ضائع ضاع على هذه الأمة، كما ضاع عشرات أمثاله.

وليست هذه الحلول هي كل ما في جعبة هؤلاء، ولكنهم حين اصطدموا بالواقع دارت رؤوسهم بالخيالات الكاذبة التي هيأها لهم أثر الصدمة بالواقع، وارتجاج المخ العنيف.

ودعني هُنا أتعرَّض بالتحليل والتفنيدِ لَما جادت به قريحتهم؛

العرف هو الحل

إنَّ قلوبنا لتخفق بالحسرة على المسلمين في كل زمانٍ، وإنَّ أيدينا لتوضع على صدورنا في كل حين، حين يطرح الحديث عن الإسلام، كنا قبل أن نتأمل كلام ربنا نفهم الظلم على أَنَّه اقتناص حق للغير، وانتهابه ليتحقق لمن أخذه بغير حق منفعة عاجلة، وليكن بعد ذلك في المستقبل ما يكون.

وكنا نستقبح غاية الاستقباح أن نجد إنسانًا يعطي شيئًا لا يملكه لإنسان لا يستحقه من غير نفعٍ يعود عليه، كنا نستقبح هذا الفعل لأننا لا نفهم لماذا يتطوع إنسان فيعطي شيئا لا يملكه لإنسان لا يستحقه من غير نفع يعود عليه من هذا العمل، ونظل أمامه مأخوذين، فهو نوع من الظلم قبيح أقبح من النوع الأول، إذْ يمكن لنا أن نقول أن الظالم إذا أخذ ما لغيره معتمدا على قوته، أو قوة حيلته لتحقيق منفعة عاجلة يبتغيها إنه معذور أمام نفسه حيث كان أمامها ضعيفا لم يملك مقاومتها.

أَمَّا هذا النوع الثاني فإننا لم نجد له عذرًا مقبولاً أو غير مقبول، لأَنَّه حين يأخذ ما للغير ويعطيه لغيره من غير منفعة تعود عليه يكون قد خالف جميع المقاييس العقليَّة والأعراف الاجتماعيَّة، ودخل في طور من أطوار المرض النفسي الذي يحتاج معه إلى مصحة للاستشفاء.

فلما جاء القرآن ومعه حديث عن نوعٍ ثالث من أنواع الظلم وسماه القرآن ظلم النفس وهو: أنْ يقوم المرء ببيع مبادئه والتنازل عن شرفه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ودينه لا لشئ إلَّا لكي يحقق متعة لغيره، ويعطيه فسحة من التشفي وهو يثأر منه ومن مبادئه التي لا يدين بها ولا يحترمها.

نوعٌ ثالث من الظلم يستهجنه القرآن ويستقبحه، وبعد أن فتح القرآن عيوننا على هذا النوع الثالث من الظلم رأيناه منتشرًا في الأمة عبر عصورها تحتويه رؤوس، وتتنقل به عقول لا هم لها إلَّا ظلم النفس من غير عاجل منفعة تكافئ هذا الظلم أو تساوي ما يتركه الإنسان من مبادئ وقيم.

راقبنا هذه الأمة في تاريخها المعاصر فوجدنا صورة هذا الظلم بينة لا سترة بها من أمثلتها الصارخة هذا الرجل الذي أطلقوا عليه لقب (الرجل الصنم) في تركيا، وهو بين كفيها وهو سعيد بذلك مسرور، فلما أن شب عن الطوق كان ما كان مما نعرفه جميعا من إسقاط الخلافة الإسلاميَّة، وتسليم تركيا كلها إلى مصطفى كمال، وكانت القرارات الأولى التي أصدرها تدور كلها حول أن تركيا جزء من العالم الغربي، وهي تنتمي حضاريًّا إليه، وعليه فإنَّه لا يجوز والحالة هذه أن يتحمس الأتراك إلى الإسلام، ولا أن يحملوا لواء حضارته.

ومن هنا فإن الزي القومي الذي يرتديه الرجال أو النساء زي لا يعبر إلا عن انتماء هذه الأمة إلى دين ليس لها، وإلى حضارة غريبة عن طباعها، ولا مخرج لها من ذلك كله إلا أن تخلع الطربوش وتلبس القبعة، وأن تتجرد من ثيابها القومي وترتدي بدلا منه الملابس الأوروبية، وما

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يصدق على الرجال ينطبق مثله على النساء، ثم هذه اللغة العربيـــة لغــة غريبة عن الأمة التركية طارئة عليها، جاء بها إليهم الإسلام والمسلمون فما بال الأتراك يتمسكون بهذه اللغة ويكتبون بها تاريخهم وحضارتهم.

لابد أن يتخلصوا منها وأن يكتبوا بحروف أخرى غربية، والقصد هنا واضح وهو إقامة سد من تراب كثيف بين تركيا وماضيها الإسلامي المكتوب بحروف عربيَّة، وهي حروف لو طمست لكـــان الأتـــراك فـــي جيلهم الحديث على الأقل، والأجيال التالية معزولين تماما عـــن تـــراثهم القديم، منتمين إلى تراث آخر لا جذور لهم فيه، فيعجزون العجز كله عن أن ينتموا إلى ماضيهم الأصيل، كما يعجزون بنفس الدرجة عن أن ينتموا إلى تراث لا جذور لهم فيه، فيتمكن الأجنبي من أن يلتهمهم وهم في حالة من انعدام الوزن.

هذا ما فعله الرجل الصنم في تركيا، وقد تكررت الصورة نفســـها في كل الأقطار الإسلاميَّة تقريبا في تلك الحقبة من الزمن.

ومع الظلم الصارخ للنفس الذي مارسه الرجال الأصـــنام رأينـــا محاولة أخرى تعضد هذه المحاولة وتساند تلك الأدوار ليضمن الآخرون استمرارها وتدفقها في العطاء .

وذلك أنهم نشروا في كل بلد أناسا لهم صفات معينة، وطلبوا منهم أن ينشروا في هذه البلاد مبادئ العلمانيَّة.

والعلمانيَّة ليس لها من معنى في الشرق أو في الغرب إلا اجتناب الدين في مسائل تنظيم السلوك، وترتيب قضايا المعايش، سواء أكان مسموحًا له في أن يمارسه الأفراد بصفته شخصيَّة أو غير مسموح له بذلك حسب الحال في كل قطر.

والوسيلة العمليَّة التي تأتي بأحسن الثمار وأسرعها أن يلتف هؤلاء الرجال الذين طلب إليهم نشر مبادئ العلمانيَّة حول الرجال الأصنام في كل قطر ليؤدوا غرضين :

الغرض الأول : أَنَّهم يمنعون عن كل رجل منهم كلمة حق أو نشورة صدق فيظل الرجل معزولاً عن عقل الأمة عزلاً تامًا، وبذلك يضمنون أنَّه لو قذف القدر برجل وطني مخلص أو متدين إلى مركز القيادة فإنَّه يكون والحالة هذه رجلاً بلا عقل وإنسانًا بلا قلب .

والغرض الثاني من الغرضين : هو أَنَّ هؤلاء الموكلين بنشر مبادئ العلمانيَّة حين يكون عملهم إلى جوار القيادة في الأمة يضمنون بحكم مراكزهم أن يكبتوا مشاعر أهليهم وذويهم، وأن يرهبوهم في أوطانهم وأن يشددوا من قبضتهم على قلوبهم ومن طمسهم على أموالهم حتى لا تقوم لهم قائمة ولا يرتفع لهم صوت.

رسمت الخطة على هذا النحو منذ آماد بعيدة، وكان الذين رسموها يمتازون بطول النفس، ويمتازون بالحكمة والأناة، فاصطنعوا لعملهم هذا كل وسيلة ممكنة، واتخذوا لتحقيق غرضهم سبلا مختلفة من الحيل،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأدربًا متنوعة من المكر والخداع، وطال الوقت ونفد الصبر، وقذف الله برجال إلى السلطة عندهم الحمية والخلق وعندهم الدين والشهامة فقاوموا التيار العالي بحكمة وخبرة ودهاء، وسيسجل التاريخ يومًا ما لهؤلاء سطورًا ناصعة البياض على جباههم.

وقبل هذا وبعده وجد الذين خططوا وتحمسوا لما خططوا أَنَّهم برغم طول صبرهم الذي نفد، وصلابة عزيمتهم التي فلت وجدوا أنَّ الوقت الذي طال، والعمل الذي بذلوه لم يزد هذه الأمة في شعوبها إلَّا حماسة لدينها ومبادئها، وكان التقرير الأخير يعرك أذن العلمانيين على حصاة وهو تقرير قد خرج من الغرب خلاصته ما ذكرت لك، وهو أنه برغم طول النفس، وبرغم كثرة البذل والعطاء، وبرغم هذه الصفحات التي حُبرت وقد بلغت الملايين، برغم هذا كله وكثير غيره بقيت العلمانيَّة ودعاتها في جانب والشعوب والأمم كلها في جانب آخر، وهو أمر مقلق يحتاج إلى تغيير في الخطة وإلى تعديل في المسار.

وتغيير الخطة هذه المرة يقوم على أساس أَنَّ الواحد من دعاة العلمانيَّة يعلن أمام الناس أَنَّه متحمسٌ للدين، ملتزمٌ بمبادئه، حام لحماه، لكنه من خلال هذا الحماس عليه أن يقوم بتخريب هذا الدين وأن ينقض أساسه، وأن يتولى إسقاط سقفه على رؤوس أصحابه، إذ لا مفر من أن الشجرة يجب أن يقطعها أصحابها.

وكان هذا هو الاتجاه الجديد، وكانت هذه هي الخطة الاحتياطيَّة التي يجب إبرازها للأمة، فهي علمانيَّة ولكنها مغلفة بستار وغلاف الدين.

وقديما قال قائلهم إننا سنأتي بأقوال الغربيين والمستشرقين ونقدمه للأمة مهما كانت مخالفة للدين، لكننا سوف نلبسها ثوبا رقيقا ناعما كي لا يزعج المسلمين مسماها.

في هذا الإطار العام كان هذا اللون الجديد من الحل، واللون الجديد من الحل هو أن هذه المساحة التي تركها إنكار السنَّة واستبعادها فارغة على رقعة الشريعة الإسلاميَّة الفسيحة نملؤها بالعرف، وندعي أَنَّ الله هو الذي أمرنا بذلك، ولنا في كلمة (معروف) الواردة في القرآن الكريم متسع، إذْ بإمكاننا أَن نحمل كل كلمة (معروف) على العرف وعوائد النَّاسِ.

ولنا في الإطار المذهبي العام للإسلام متسعٌ آخر يسعنا حين نريد أن ندخل على الإسلام أمورًا ليست منه، كل ما في الأمر أننا فقط نحتاج إلى لونٍ من المواءمة بين الإطار المذهبيّ العام وما نريد أن ندخله عليه من آراء غريبةٍ عنه كل الغرابة، وبعيدة عنه كل البعد، وهذا النوع من المواءمة وافتعال المؤاخاة أمر لا يحتاج إلَّا إلى شئ من اللياقة مع قليل من السفسطة، وهما أمران لو توافرا لإمرئ كانت أَزَمّةُ الخلق بين يديه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا هو التوجّه الجديد الذي صمم عليه فلـول العلمانيَّـة بعـد أن خسروا معركتهم أمام الشعوب، وناصية الشعوب بأيديهم، وبعد أن حـال الله بينهم وبين قلوب الأمة، وهم يدفعون بأفرادها إلى جحـيم الهـلاك، وزمهرير المجافاة للدين.

ولكي نكون موضوعيين أكثر : يجب أن نطرح هذا السؤال وهو:

ما الذي فعله منكرو السنَّة على وجه التحديد حين رأوا أَنَّ الحـل في الأعراف الاجتماعيَّة ، وفيما تواضعت عليه الأمم من النَّاسِ ؟؟

والجواب على هذا السؤال يمكن أن نأخذه من بعـض محـاولتهم المنشورة، واسمح لي عزيزي القارئ أن أعرض أمامـك بعـض هـذه المحاولات :

إننا جميعا نعلم أَنَّ القرآن الكريم نزل في مكة أولا، ثم بعد ذلـك تتابع نزوله في المدينة بعد الهجرة.

والقرآن الكريم باعتباره كتابًا إلهيًّا يعلم نفـوس البشـر وكيـف يعالجها وعلى أي المناهج تستقيم، فكانت معالجات القرآن لسـكان مكـة تتصل جميعها بالقلوب لإصلاحها من داخلها وتصحيح وعيها بالتوحيـد الذي هو أساس الدين كله، والابتعاد بها عن منزلقات الشرك حتى تـأمن من داخلها، إذ المشرك ــ كما نعلم ــ موزع الهدف مشـتت الوسـائل، وَمَنْ يُشرك بِاللهِ فكأنَّما خَرَّ مِنَ السماءِ فتخطفه الطيرُ أوْ تهوي بِهِ الـريحُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في مكانٍ سحيقٍ. في مكة إذاً كان القرآن الكريم يعالج قلوبًا وأرواحًا ونفوسًا يجذب أصحابها جذبًا إلى المسار الصحيح بمقدار ما ينأى بها عن كل سبيل معوج، وهذا الهدف السامي يتطلب أن يكون القرآن الكريم منسجما في أسلوبه مع الحالة التي يعالجها فكانت آياته قصيرة وسريعة ومتلاحقة، وكانت ألفاظه شديدة وقوية وزاجرة، وكانت موضوعاته تتصل بالعقيدة وبأصول التشريع العامة، وبقواعد الأخلاق التي لا يختلف عليها اثنان.

كانت هذه بعض سمات آي القرآن المكي.

وحين هاجر النبيُّ ﷺ مِنْ مكة إلى المدينة بدأ في معالجة جيل من البشر يطبق عليه هذا الإطار العام، ويسقط عليه أحكامه التي تضبط حركة الإنسان، وحيث تنتهي به إلى أن يكون هواه مع الشرع الذي آمن بمنزله، وصدق بنبوة متلقيه.

وكان لابُدَّ أن يتأخر هذا الهدف حتى يصبح حول النبي ﷺ رجال يضع على أكتافهم المسئوليَّة، ويطلب منهم أن يتحملوها.

ولما توافر هذا اللون من الرجال حول النبي ﷺ بدأ القرآن الكريم وهو الوحى المتلو، إلى جوار الوحى الخاص الذي يعبر عنه النبي ﷺ بألفاظه في معالجة شئون الدولة الوليدة والأمة الناشئة .

وكان لهذا التشريع الذي عالج الأمة في العصر المدني مساحتان تعبر إحداهما عن قوانين ثابتة تتصل بأصول التشريع، وتعبر الأخرى عن جوانب مرنة اتصالها بالفروع فقط، ثُمَّ ترك التشريع مساحة كبيرة من المباح وهي: تتعلق بسلوك الإنسان الذي ليس للشرع فيه مطلوب بأمر أو بنهي، ومنع المسلمون والوحى ينزل أن يضيقوا على أنفسهم بكثرة السؤال حول قضايا تلك المساحة المرنة.

وللتشريع خصائص جمة يعرفها فرسان هذا المجال وجهابذة القانون في الشرق والغرب .

وكان التشريع بخواصه تلك عاملاً مقلقًا لأصحاب المذهبيَّات المختلفة الذين لا يريدون الحق إلَّا فيما قالوه، ولا يبتغون الهدى إلَّا فيما ابتكروه، وهؤلاء قرأوا القرآن ودرسوا التشريع وهم علماء يدركون قيم الأشياء، فأدركوا أَنَّ الإسلام خطر على مذهبياتهم كلها لما فيه من القدرة على الانتشار، ولما لديه من المقدرة على قيادة البشر من غير أن تختلط عندهم المشاعر، ومن غير أن تمتزج لديهم في لحظة أسى ، ليست بالبعيدة عن لحظات الأمل، الضحكات بالدموع .

قرأ العلماء القادرون على الفهم الإسلام بما لتشريعاته من مميزات، فعلموا أنَّ فيه الخطر كله على مذهبياتهم، فصرحوا بما أنقل أمامك بعضه :

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال المستشرق جورج براون: "لقد كنا نخاف شعوبا مختلفة، ولكننا بعد الاختيار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف، بيد أَنَّ الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع، وقوته في الإخضاع، وحيويته في الانتشار. إنَّه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي الصليبي".

وقال القس الأمريكي صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير في الشرق في مؤتمر القدس التبشيري الذي عقدته إرساليات التنصير الصليبي في عام ١٩٣٥م: "ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحيَّة في البلاد الإسلاميَّة ليست هي إدخال المسلمين في المسيحيَّة لأنَّ في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنَّما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها".

وقال المنصر الصليبي شاتليه في كتابه الغارة على العالم الإسلاميّ: "إذا أردتم أن تغزو الإسلام، وتحصدوا شوكته، وتقضوا على هذه العقيدة، التي قضت على كل العقائد السابقة واللاحقة، والتي كانت السبب الرئيسي لاعتزاز المسلمين وشموخهم، فعليكم أن توجهوا جهود هدمكم إلى نفوس الشباب المسلم والأمة الإسلاميَّة، بإماتة روح الاعتزاز بماضيهم وتاريخهم وكتابهم (القرآن) وتحويلهم عن ذلك بنشر ثقافتكم وتاريخكم، ونشر روح الإباحيَّة، وتوفير عوامل الهدم المعنوي، وحتى لو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لم نجد إلَّا المغفلين منهم، والسذج البسطاء، فإنَّه يكفينا ذلك، لأنَّ الشجرة يجب أَن يتسبب في قطعها أحد أغصانها".

وقال المنصر تاكلي: "يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه، حتى نقضي عليه تمامًا.. وذلك بأن نقول للمسلمين، إنَّ الصحيح في القرآن ليس جديدًا، وأن الجديد فيه ليس صحيحا" [١] .

وهذه النقول التي وضعتها بين يديك تفيد أَنَّ الغرب كان يحسب حسابًا لشعوب وأمم مختلفة، وتَبَيَّنَ له بعد الاحتكاك مع تلك الشعوب أَنَّ الصراع بين الغرب وبينها صراع على المادة وهو صراع تافه إذا حسبت النتائج بميزان الهزيمة والنصر.

والأمر الذي يخيف حقًا هو أَنْ يكون النزال في ميدان العقائد والقيم، والإسلام له في هذا المجال باعٌ طويل بما له من سمات تسهل له التوسع والانتشار.

والمواجهة لا تصلح لحسم معركة من هذا النوع، إذْ لابُدَّ مِن الخداع والتضليل، والخداع هنا يحتاج إلى أقرب الطرق، وأقرب الطرق لقطع شجرة أن تقطع هذه الشجرة بيد أصحابها حتى لا يعقب القطع نزاع.

---

[١] راجع كتاب "رشاد خليفة صنيعة الصليبيَّة العالميَّة" د/ خالد نعيم ، ص ٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وانطلاقًا من هذا المبدأ لابُدَّ أَنْ يهدم الإسلام بالقرآن، ولا يهدم الإسلام بالقرآن إلَّا إذا شوشت معانيه في رؤوس تابعيه، فيقال لهم إنَّ الجديد فيه ليس صحيحًا، وإنَّ الصحيح منه ليس جديدًا، وحتَّى إذا لم يجد الغرب بُدًّا مِنَ الاعتماد على المشوشين والبسطاء والمغفلين، فإنَّ هذا وحده يكون كافيًّا لإحداث نوع من الخلل في صفوف المسلمين.

تلك خلاصة ما نقلت لك من الأقوال وهي أمامك بإمكانك أن تعاود التأمل فيها، ثُمَّ تنطلق بعد ذلك معي على بصيرة لتعلم كيف عرض علينا منكرو السنَّة أمرًا هو من أخطر الأمور، وهو محاولة هدم الشريعة بالقرآن نفسه، ومطلوب منا أن نقتنع بذلك وإلَّا كنا مسلمين متخلفين، وما استطعنا أن نقدم ديننا لغير المسلمين، وكنا في كل حال مكذبين لله فيما يريد منا أن نفعل، ومكذبين له، وحاشانا أن نفعل فيما طلب منا أن نؤمن به .

قالوا : إنَّنَا مسلمون (وهم يتحدثون عن أنفسهم) ولكننا لسنا كسائر المسلمين إننا نُحب أَنْ نقدِّمَ الإسلام في صورة جديدة للعالم، وحتَّى لا يكون الإسلام متعارضًا مع قوانين الدنيا، فأنتم تعلمون معاشر المسلمين أَنَّ الإسلام فيه نقصٌ شديد وهو يتحدث عن القانون العام، وفيه نقص شديد وهو يتعامل مع القوانين الدوليَّة، ونحن لابُدَّ أن نداري ما عندنا من نقص، وبإمكاننا أن نخرج على الإنسانيَّة بإسلام جديد، فقط ينبغي أن نعدل تعديلاً خفيفا فيما اتبعه النبي ﷺ والمسلمون من بعده .

ذلك أَنَّ القرآن الكريم قد نزل على مرحلتين: إحداهما في مكـــة، والأخرى في المدينة .

والقرآن المكيّ قد جاء بمبادئ عامة وأطر شاملة، وحمل النَّـــاسَ على أن يدخلوا في هذا الإطار العام، وعلى أن يعتنقـــوا تلـــك المبـــادئ الشاملة، فالمهم أن يكونوا جميعا مؤمنين بالله، وإن كانت هناك ضـــرورة لصلاة أو صوم أو حج فلا بأس.

والقرآن المدني قد عالج تجربة في المدينة مارسها النبـــي محمـــد والذين معه، والله قد نزل التشريع مرتبطا بهذه التجربة الخاصة، وهـــذا خطأ في التشريع إن قصدناه أن يعبر عن رسالة دائمة، وهو صـــواب إن قلنا أنه يعبر عن تجربة خاصة في مجتمع معين لسنا ملزمين بتعميمها .

وخلاصة الأمر أَنَّ القرآن قد نزل على مرحلتين، تعبر إحـــداهما عن إطار ومبادئ عامة، وتعبر الثانية عن تجربة خاصة هي التي تشتمل على التشريع كله.

وإذا ما أردنا أن نداري أخطاءنا أمام الدنيا حتى لا نلام أو نعيـــر بهذا الدين الملـــئ بالقصور والنقص، فإنه من الممكن أن نعتمد القـــرآن المكي أساسًا عامًا للشريعة، وكل ما فيه أنَّه يطالبنا بالإيمان بالله والعمـــل الصالح والخلق الرشيد، ونحن بعد ذلك نملأ الفراغ في التشريع بما يمليه علينا العرف، وبما تفرضه العادات في المجتمعات، كل بحســـبه وطبقـــا لظروفه .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أَمَّا القرآن المدني فإنَّه يتحتم علينا أنْ نحكم عليه بالنسخ والإلغـــاء فهو قد عَبَّرَ عن فترةٍ مِنَ الزمن لسنا ملزمين بها .

وَمِنْ حُسن الحظ ويمن الطالع أَنَّ المسلمين ممثلين في علمائهم قد قالوا بإمكان النسخ في القرآن، وهو مبدأ رائع لولا ما فيه من اعتقاد في أَنَّ اللاحق ينسخ السابق، وهذا اعتقاد لا مبرر له، إذْ مَا المانع أَنْ نقول: إِنَّ المتأخر هو الذي نسخ وَأَنَّ المتقدم هو الذي نسخه [١].

هكذا صوروا لنا محاولتهم الأخيرة التي رأوا أنها تحل مشـــكلتهم في شغل هذه المساحة التي تركها إنكار السنَّة علـــى خريطـــة التشـــريع الإسلامي، وارتكبوا في سبيل ما قالوه أخطاء علميَّة، وما ذلك إلَّا استجابة لما نقلتُه إليك مِن قبل من أقوال، بأنَّه لا يجوز أن تكون الشريعة حاميـــةً للواقع، وكذا القانون، وإنَّما قيمة كل منهما في أَنْ يكون راعي مثل يحمل الناس عليها بقدر الطاقة من غير إرهاق أو استغراق لكل الوسع.

ولا يقول إنسان ما بأنَّ القانون يحمي واقعا إلَّـــا إذا كـــان يقصـــد إنسان ما بأنَّ يدمر أمة فيسلط عليها جرثومة فساد الأخلاق أو ميكـــروب الفرقة والشقاق.

---

(١) راجع كتاب نحو تطوير التشريع الإسلامي ومقدمة الترجمة لمؤلفه في اللغة الإنجليزية عبد الله أحمد النعيم ، نقله إلى العربية وقدم له حسين أحمد أمين، وراجع : لماذا القرآن ؟ عبد الله الخليفة .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه إحدى وصايا بعض المبشرين على نحو ما نقلت بين يــديك من نقول تعبر عن رأى المبشرين.

حتَّى إنَّ أحدهم ألفَ كتابًا واستحيا مِنَ النَّــاس أن يــذكر اســمه، ووضع بدلاً منه اسمًا مستعارًا على ما أظن، وقد بين لنــا فــي مؤلفــه الصغير الحجم أن الشريعة بعد إنكار السنَّة ينبغي أن تملأ بالعرف، وأن تشغلها عوائد الناس والأمم في كل زمان بما يناسب الزمــان، ويناســب عوائد الأمم، ومؤلف الكتاب يفاجأ بعد إنكار السنَّة أن القرآن الكريم قــد اشتمل على آيات نسبتها إلى آيات القرآن كله نسبة واحد إلى ثلاثين مائتا آية فقط في القرآن هن اللواتي يتحدثن عن التشريع، وقد فوجئ صــاحب الكتاب المذكور بهذه الآيات وعددها، فقال في جرأة على ربه: إِنَّ هــذا مقصود الله ﷻ وتلك إرادته، لأنَّ هذا القدر كاف جدا حتى تترك مساحة كافيَّة لما تعارف عليه الناس كي يخضعوا إليه ويتعاملوا به نظاما كــاملا يحل محل الشريعة الإسلامية .

وهم يؤكدون أَنَّ الله راض كل الرضا عَنْ هذا النظام الذي يعتمــد عوائد الناس ويأخذ بأعرافهم .

وكأني هنا لست أدري أي مقياس في العقل يمكن أن يقــاس إليــه الخطأ والصواب حين تختلف العوائد بين الأمم إلى حد التناقض وكل أمة تعتمد عوائدها بأمر الله .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأي ميزان هو ميزان الشعرة الدقيق الذي على أساس منه سيدخل النَّاس الجنَّة إذا أطاعوا ربهم، وسيلقون في سعير جهنم إذا أساءوا وقصروا .

إباحيَّة مطلقة يريدها هؤلاء العلمانيون حين تسربلوا برداء الدين، وزعموا أَنَّهم أئمة المتقين .

إنَّ الدين كالبحر يطهر النجس إن أراد النجس أن يطهر، ويغرق المجرم إن أراد المجرم أن يسبح عكس التيار.

وللجميع يومٌ مع الله تبيض فيه وجوه وتسود أخرى.

وهكذا تبين لي ولك: فشل هذه المحاولة، فاتجه العلمانيونَ إلي منحى أخر وهو؛

تغيير المنظومة :

لقد عجز القوم فيما سبق عن أن يملأوا الفراغ الذي تركته السنَّة حين أجبروها ألَّا تقتحم عليهم الشريعة الإسلاميَّة بوصفها ابنا غير شرعي للإسلام.

ترك استبعاد السنَّة فراغًا حاولوا أن يملئوه بِمَا يعرفونه بالعرف السائد، وهو الذي تواضعت عليه المجتمعات والأمم في كل عصر، ففشلوا على نحو ما رأيت، فحاولوا هنا في نزوة حمقاء على الشريعة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإسلاميَّة، وإهدار كامل لمشاعر الأمة أن يغيروا المنظومة التي تعارفت عليها الأمة، وورثتها عن نبيها محمد ﷺ.

ووضعوا مكان هذه المنظومة : منظومة أخرى ابتكروها ابتكارا، ويخدعون بها العامة والبسطاء من أصحاب الأهواء والمصالح، ويزعمون أنَّهم في منظومتهم الجديدة يرتبطون بالقرآن أكثر من ارتباط الأوائل، وهم يفهمونه على نحو لم يفهمه القدماء والمحدثون .

وأنا لستُ بالرجل الذي يبحث عن النوايا والأغراض، فأنا لا أهتم كثيرا بالوسائل والغايات .

وانطلاقا مِنْ هذا المبدأ : سوف أحاول أن أعرض عليك ما ابتكروه ويريدون أنْ يحملوا المسلمين عليه من شريعةٍ جديدة مخلخلة ومهلهلة يصعب أن تدرك وظيفتها، ويستعصي عليك أن تستنبط آثارها في المجتمع والناس .

وسأعتمد على تصوير هذه المنظومة على كتاب من جزءين كبيرين كتبه أحدهم وهو إنسان مغمور كآلاف الناس المغمورين أمثاله، وصاحب هذا الكتاب هو: مصطفى كمال المهدوي الذي لا أعرف له وطنًا ولا دينًا، ولست أدري إن كان هذا هو اسم حقيقي، أو اسم مستعار، والكتاب هو : (البيان بالقرآن) جزءه الأول يقع في خمسمائة وإحدى عشرة صفحة من القطع المتوسط وجزءه الثاني يقع في ثلاثمائة وخمس وأربعين صفحة من نفس القطع .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كتاب كبير نسبيًّا يحتوي على محاولة أقل ما يقال فيها أنها عبث بعقول الصبيان، لا يهتم به العقلاء، ولا يحترمه المميزون، وسأعرض عليك قسطًا مِنْ هذه المنظومة الجديدة من باب أَنَّ النبات الطفيلي على سطح الماء، وإن كان لا يؤثر في الماء تحته إلَّا أنه على أية حال يعوق الحركة .

وأنا لن ألتزم بتنظيم قام به في كتابه، إذْ هو مثلا قد بدأ بالحج وأنا سأبدأ معك بالصلاة لأكون متسقًا مع فكرك في ترتيب المنظومة الإسلاميَّة كما تعرفها.

١ــ كلامهم في الصلاة :

والصلاة عندهم لا تعني سوى: رابطة وصلة بين موجدين على أي مستوى كانا من مستويات الوجود، فهي صلةٌ بين الله وعباده ينشئها الله أو ينشئها العبد، وهي صلة بين النبي والملائكة، وبين النبي وربه، ينشئها الله أو ينشئها الملائكة، وهي صلة بين المؤمنين ونبيهم ينشئها المؤمنون، ويؤسسونها.

والذي يبدو لي أَنَّ الصلاة بالمعنى الشرعي عندهم مطلب جزئي لا يأخذ قسطًا كبيرًا من اهتمامات الشريعة، إذْ إِنَّ مسألة الأقوال والأفعال التي تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم، مسألة غير ضروريَّة، ولا هي بالأمر الذي تتوقف عليه المنظومة في الشريعة الإسلاميَّة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَمَّا أوقات الصلاة: فَإِنَّ المسلمين مِن أول محمد ﷺ وإلى الآن ما راعوها حق رعايتها، وما فهموها كما ينبغي أن تفهم، إذْ الله ﷻ قد افترض علينا في اليوم والليلة ست صلوات :

أ ـ صلاة الفجر ووقتها مِنْ حين يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود وإلى مطلع الشمس.

ب ـ وعند الشروق تفرض علينا صلاة أخرى تسمى صلاة الصبح ووقتها إلى الظهيرة، ولم يفطن المسلمون إليها منذ النبي وإلى الآن إلَّا في يومين من كل عام هما يوم الفطر ويوم الأضحى، وكان من الواجب أن يفطنوا إليها في سائر الأيام، ولكن عندهم أن الأمر بها على الإطلاق فيكفيهم منها ما فعلوه .

ج ـ صلاة الظهر وهي تبدأ من ساعة تتوسط الشمس كبد السماء وإلى أن يصير ظل كل شئ مثله .

د ـ وصلاة العصر وهي من حين انتهت صلاة الظهر وإلى دلوك الشمس.

هـ ـ وصلاة الليل الأولى وهي من دلوك الشمس إلى الغسق باستمرار غير منقطع.

و ـ وصلاة الليل الثانية وهي من غياب الشفق إلى منتصف الليل .

هذه هي صلوات الليل واليوم المفروضة، وعددها ست صلوات لا يجب على المرء من الصلاة غيرها.

غير أَنَّ هناك صلاة مندوبة هي صلاة قيام الليل.

ثُمَّ هم يوهمونك أن ذلك مأخــوذ من القرآن بما لا يخفــى عليــك إرادة التدليس فيه .

أَمَّا شروط صحة الصلاة فهي مثلاً: أن يكون المرء واعيًّــا بِمَــا يقرأ وعيًّا تاما، فإن قرأ بلا فهم فلا صلاة له، وإن كان قد غاب عقلــه فلا صلاة عليه.

ويشترط أن يكون طاهرًا من الحدث الأكبر والأصغر.

والحدث الأكبر عندهم لا يكون إلَّا بالجماع وحده، وهــو اللقــاء الجنسي، أَمَّا مَا عداه من الاحتلام أو الحيض أو النفاس فهي كلها أمور لا توجب غسلاً ولا تمنع من الصلاة كما يقولون .

والذي يوجب الوضوء بمعنى نواقض الوضوء عندهم هــي هــذه الأمور :

أ ـ المرض عندهم ناقض للوضوء وحجتهم العقليَّــة أن المــريض يحتاج إلى تنشيط جسد، واستعادة همة ويقظــة وكانــت الحكمــة وراء مشروعيَّة أن المرض من نواقض الوضوء، وأنا هنا لــن أعتــذر إلــى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفقهاء، وإنَّما سأوجه الاعتذار كله إلى الأطباء الذين ألمح الواحد منهم فاغرًا فاه مشدوها، إذ من المرض ما يحرم معه استعمال الماء.

ب ـ والثاني من نواقض الوضوء هو السفر، فإذا سافر الإنسان لسبب أو لآخر، انتقض وضوءه (سبحان ربي إنك أنت غفار الذنوب).

ج ـ ومن نواقض الوضوء عندهم : البول والغائط خاصة، وقد قال الكاتب هنا، وأنا أظنه يمزح: إنَّ الغازات الخارجيَّة من البطن لا تنقض الوضوء، سواء خرجت من فهمه أو من غيره، كنت أظنه يمزح لكن تخيلته فوجدت علائم الجدة على وجهه، فعلمت أن الشريعة قد استهدفت بكل ما يقول .

د ـ والناقض الأخير للوضوء هو : أن يتفحص ويتحسس الرجل والمرأة بيده (هكذا قال) ولست أدري هل سينتقض وضوء الرجل وحده أم أن وضوء المرأة ينتقض أيضا، المهم أن شرط صحة الصلاة هو: أن يكون المرء طاهرا من الحدثين الأكبر والأصغر اللذين سببهما ما علمت.

وليس من شروط صحة الصلاة نقاء المرأة من حيضها ونفاسها فهذا أمر لا يمنع المرأة من صيام ولا من صلاة.

ويسخر الكاتب من المسلمين، حيث منعوا النساء من أداء الشعائر كالصلاة والصوم والطواف بالبيت والمكث في المسجد بغير دليل شرعي وهي حائض أو نفساء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإذا حاولنا أن نتأمل في عدد الركعات في كل صلاة فلن نجد إلَّا ذلك التساوي المطلق في عدد الركعات في فرائض اليوم والليلة جميعها، إذْ إنَّ كل فريضة منها تقوم على ركعتين اثنتين، فصلاة الفجر ركعتان، وصلاة الصبح ركعتان، وصلاة الظهر ركعتان وعلى هذا أبدأ باطراد إلَّا في حالة الخوف فقط فهي التي يتأتى فيها الاختلاف، إذْ الذين يؤدون صلاة الخوف تكون الصلاة بالنسبة للمأمومين ركعة واحدة في كل فريضة، ولكنها بالنسبة للإمام ركعتان، والفرق بينهما في درجة الخوف الذي هو العلة الحقيقية في قصر الصلاة، والإمام لأنَّه مستور بالجماعة التي تؤدي الصلاة خلفه، ولأنَّه آمن بسبب حراسة الطائفة التي لم تصل معه، لا يجوز له أن يقصر في صلاته.

وطريقة أداء صلاة الخوف على نحو ما يؤديها المسلمون، يقسم الإمام جنوده نصفين، يصلي النصف الأول خلفه نصف الصلاة ويسلمون، وتكون لهم صلاة كاملة، ولتأت الطائفة الأخرى التي لم تصل لتصلي خلف الإمام، ويتم الإمام بالطائفة الثانية صلاته.

وهذه هي الحالة الوحيدة التي يتأتى فيها قصر الصلاة.

والصلاة في جملتها عِنْد هؤلاء: اثنتا عشرة ركعة في ست أوقات ولا يعترفون بصلاة رباعيَّة ولا ثلاثيَّة، لأنَّها واردة في السنَّة وهم لا يعترفون بها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَمَّا كيفية الصلاة عندهم فهي الأخرى عجب من العجب، يدخل المرء إلى الصلاة بتكبيرة الإحرام واقفًا، ويقرأ بعدها ما تيسر من القرآن من أي منطقة شاء، وبأي مقدار أراد.

ولا مانع بالطبع أن يقرأ بالفاتحة، لا على أَنَّها ضرورة للصلاة، وإِنَّما لأنَّها جزءٌ من القرآن الكريم، ولأنَّ الله قد أعطاها له هي والقرآن كله مضافة إلى السبع المثاني.

والسبع المثاني عنده هي: كل عضوين في الإنسان متشابهين في الشكل والوظيفة، وعليه فالسبع المثاني التي أعطاها الله لنبيه هي الأذنين، والعينين، واليدين، والرئتين، والكليتين، والرجلين، والشفتين.

والله ﷺ قد أعطى النبي هذه السبع المثاني، وأعطاه معها القرآن الكريم فهو القائل: " ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم " .

وأن أراك الآن تتفلت مني أيها القارئ مغرقاً في ضحكاتك، وتتأبى على أن أنقلك إلى الجد المطلق، لكني بيني وبين نفسي أعذرك ... فشر البلية ما يضحك.

وأنا أتساءل معك : هل هذه السبع المثاني التي ذكرت لك آنفا قد نزلت في آية من القرآن الكريم، أم أنَّ المسألة هي مجرد التفلت من السنَّة، ولو كان الجزاء هو الجحيم ؟!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونعود بعد هذه الترويحة التي جاءت عَرَضًا في كلامهم إلى استكمال هيئة الصلاة، قد قلنا إِنَّ الدخول إليها بتكبيرة الإحرام يقرأ المصلي بعد ذلك ما يتيسر له مِنَ القرآن من أي سورة شاء، والفاتحة جزء منه، وليس باللازم قراءتها وإن كانت قراءتها تجزئ بشرط عدم الإصرار عليها بذاتها .

والطريقة المثلى أن يقرأ الإنسان على التوالي في ركعاته مبتدئا بالفاتحة وما بعدها إلى سورة الناس في ركعات متواليات... فهذا يحمل المصلي على أن يحفظ القرآن ويعاود تلاوته في الصلاة حتى لا ينساه .

وبعد القراءة يركع ، والحذر كل الحذر، أن يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم، فهذه التسبيحات قد جاءت بها السنَّة وهي من عمل الشيطان، ولكنه يملأ فترة الركوع بآيات من القرآن، ثم يعتدل من الركوع، ثم يسجد خارًا إلى الأذقان استجابةً إلى قوله تعالى: ﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ ، وحذارِ أن يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى، فتلك واردة في السنَّة، والسنَّة هي ابن غير شرعي للإسلام، وإنَّما يملأ سجوده بآياتٍ من القرآن الكريم كما فعل في ركوعه.

ثُمَّ يرفع من السجود مكبرًا، ثُمَّ يعود مرةً أخرى إلى السجود ويفعل في الثانية مَا فعل في الأولى، لكنه بعد السجدة الثانية من الركعة الثانية يحذر المصلي الحذر كله أن يقترب من التشهد، فهو بدعةٌ شيطانيَّة كبرى وضعها الشيطان بين الأمة، لينشغلوا فيها بالتسبيح والحمد لإبراهيم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومحمد بدلاً مِنَ الله، ثُمَّ بعد أن يبتعد عن هذه البدعة يخرج من صلاته بأي تسبيحٍ وتحميدٍ يراه مناسبًا، ولا يتابع المسلمين في فرية السلام، وإنَّما حين تنتهي صلاته بالسجدة الثانية، يخرج مباشرة ولا شئ عليه .

تلك هي هيئة الصلاة عندهم ذكرتُها بعد ذكر تعريفها وشروطها لتكتمل صورة الصلاة في منظومة جديدة يريدون أن يخلفوا بها منظومة إسلاميَّة تعارف عليها المسلمون دهورًا وأحقابًا. والله من ورائهم محيط.

وهذه الجزئيَّة من المنظومة الجديدة التي أرادوها ليست هي المحاولة الأولى في التاريخ الحديث على الأقل، وإنَّما هناك عشرات من مثيلاتها وضعت عبر التاريخ قديمه وحديثه، وأقربها إلينا صلاة البابيَّة والبهائيَّة وهي صلاة لا تشبه صلاة المسلمين في شيئ وأنت بصورة هذه الصلاة أمامك لا تحتاج مني إلى كلام يُقال بعد أن تستحضر في ذهنك أنَّ الصلاة هي أهم الوسائل لتجميع المسلمين وخاصة في تلك الصلوات التي يشرع لها الاجتماع في مكانٍ واحد من نحو صلاة الجمعة التي لم تسلم من عبث هؤلاء القوم، فهم يريدون أن يفوتوا على المسلمين ثمرتها التي رتبها الإسلام على أدائها، وأهم ثمارها أَنَّ الله قد فرضها في جماعة وفي وقت يتمكن المسلمون جميعا من حضورها، كل في بلده أو في أقرب مكان إليه تؤدى فيه الجمعة.

فجاء الهدامون الأحرار ليقولوا لنا: إنكم قد أخطأتم كما أخطأ آباؤكم من قبل إلى عصر المبعث، حيث جعلتم أداء الجمعة خاصا بصلاة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الظهيرة في حين أَنَّ الله قد طلبها (وأستغفر ربي) لتؤدَّى في أي وقت من أوقات يوم الجمعة وليلها، وبذلك التحريف المقصود والأبعاد المتعمد يمكن لي ولك أن ندرك الهدف الحقيقيَّ من هذا الاعتداء على وقت آداء الجمعة، و الهدف الحقيقي هو محاولة تفريق الجمع، وتوزيعها على ستة أوقات هي التي يجوز آداء الجمعة فيها من الفجر إلى صلاة الليل الثانية.

هذه هي الصلاة في ثوبها الجديد كما رسمها لنا أولئك النفر.

٢ـ كلامهم في الصيام :

والحديث عن الصيام كالحديث عن الصلاة ليس للقوم هم فيهما إلا أن يستبعدوا ما جاءت به السنَّة، ولو كان يمس جوهر العبادة، ولو كان يخالف ما توارثته الأمة من أيام النبي ﷺ وإلى الآن .

ولذلك فإن الصيام عندهم سوف يخالف الصيام عند المؤمنين من وجوه عدة كما سترى، وسوف نجد أن كلامهم فيه أشياء من الحق كثيرة كخطتهم العامة دائما أن يخلطوا حقا بباطل ليلبسوا على المؤمنين دينهم.

فحقيقة الصيام عندهم كحقيقة الصيام عند سائر المؤمنين: إمساكٌ عن الأكل والشرب والجماع طوال الفترة التي كلف الله عباده أن يمسكوا عن هذه الأمور فيها.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

غير أَنَّ الفترة المحددة للصوم يخالف هؤلاء الناس جميع الأمة في تحديدها، فالشهر عندهم لا يثبت بالهلال، وهم يسخرون ممن يعتمدون على الهلال في إثبات الرؤية، والمطلوب عندهم أن يعتمد الناس على الحسابات الفلكيَّة حتى ولو غم عليهم في رؤية الهلال إذ الشهر القمري محدد بالزمن تسعة وعشرون يوما ونصف يوم (اثنتا عشرة ساعة وأربع وأربعون دقيقة وثانيتان وثمانية من عشرة من الثانية).

وتلك مسألة قد أصبحت عندهم من بديهيات العلم، ولا يجوز معها أن نعتمد رؤية الهلال.

وهذا أمر يبعث على السخرية، إذْ أننا نستطيع أن نقول لهؤلاء إن الشهر قد ينتهي في منتصف يوم ويبدأ الآخر بعد انتهاء الأول، فما الذي ينبغي على المؤمن أن يفعله، وقد قال له الحساب: وإنَّ رمضان قد بدأ في وقت الضحى أو الظهيرة، هل يعتمد نصف اليوم ويصومه مخالفا الأعراف الشرعيَّة، أم يضمه على أيام شعبان ليجبر كسره ؟!

والأمر نفسه يقال عند خروج رمضان وبداية شوال ، حين يخرج رمضان في وقت الظهر أو العصر والإنسان صائم، فيعتبر صيام هذا اليوم من الواجبات باعتبار نصفه الأول أو اعتباره من المندوبات على رأيهم باعتبار نصفه الثاني.

وستعلم عَمَّا قريب أنهم لا يحرمون صيام أيام العيدين (هم يخالفوننا إذاً في إثبات بدايات الشهور ونهاياتها لا لشئ إلَّا أنهم يريدون

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن يؤكدوا موقفهم من السنَّة، ولو أَدَّى ذلك إلى مخالفة المنظومة العامة للإسلام).

وإني لأرجوك أن تعتبر الخلاف في إثبات الشهور بدءا ونهاية من الأمور العارضة أو من الأمور الشكليَّة، وتعال معي لنتحدث مع هؤلاء القوم حول المدة الزمنيَّة التي يجب على المؤمن أن يظل فيها ممسكًا عن الطعام والشراب والرفث إلى النساء .

إنَّهم يقولون بوضوحٍ لا لبس فيه أَنَّ هذه المدة بدايتها حين يتبين للمرء الخيط الأبيض من الخيط الأسود (وهذا حق لا مشاحاة فيه).

ثُمَّ يقولون إنَّ يوم الصائم لا ينقضي بغروب الشمس، فإن غروب الشمس لا يؤذن بدخول الليل دخولا كاملا، إذْ إِنَّ الشمس تكون في أحد منازلها مقبلة على النصف الآخر من الأرض، وهي لا تختفي عن نصفها الشرقي مثلا إلَّا بغياب الشفق الأحمر، وهو بداية وقت العشاء كما نقول، والفترة من غروب الشمس إلى غياب الشفق الأحمر هي الفترة التي يتم فيها انسلاخ الليل من النهار، وهي فترة تقابل الفترة من طلوع الفجر بظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلى أن تطل الشمس برأسها في وقت الصبح.

والشئ العجيب أَنَّ هؤلاء القوم قد اعتبروا الفترة من غروب الشمس إلى غياب الشفق الأحمر من النهار لا يجوز للصائم أن يأكل فيها أو يشرب أو يرفث إلى نسائه، ولم يعتبروا في الوقت نفسه الفترة من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

طلوع الفجر بظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلى شروق الشمس من الليل بحيث يُباح للإنسان فيها إن أصبح صائما أن يأكل ويشرب ويرفث إلى نسائه حتى مطلع الشمس.

وأنا أظن أنهم كانوا يودون لو فعلوا ذلك، لولا أنهم يخشون تفلت البسطاء من أيديهم وهم أولئك النفر من الأمة الذين قد غرر بهم، الفترة الزمنية إذاً التي يمتنع فيها الأكل والشرب والرفث إلى النساء، هي تلك الفترة الممتدة من طلوع الفجر إلى غياب الشفق الأحمر، وهي مخالفة لا للسنَّة فقط، وإنَّما هي مخالفة لفعل الأمة منذ أيام النبي ﷺ، وبغير انتهاء إن شاء الله، إلَّا أن تكون الأرض قد خلت ممن يقول : الله، الله ، الله .

ولم يجد القوم سوى صوم الجمع والأعياد وأيام التشريق فأباحوا للأمة أن تصوم في أيام أعيادها، وقالوا: إنَّ مَنْ منع الأمة من أن تصوم أعيادها إنما هو مقلد لعجوز من اليهود شمطاء فارقها زوجها بالموت فحملها على الزهد المزيد من الوفاء .

كما أَنَّهم لم يجدوا في مكارم الصيام إلَّا ليلة القدر فتفحصوا السنَّة فوجدوها تقول للمؤمنين: إنَّ احتمال ليلة القدر في عجز شهر رمضان فهبوا واقفين ليقولوا: لا ، إِنَّها محتملة في الشهر كله .

أمور يتحسسونها لا يقصدون منها إلَّا إعادة صياغة عقول المسلمين على غير دينهم لينسجموا مع الكلمات التي نقلتها لك بدءًا من كلمات سارتر الذي قال لإخوانه اليهود : لن تعيشوا في أمان ما دام هناك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دين له شخصيته التي تميزه، وانتهاء بكلمات شتليه وإخوانه الذين أكدوا أن هدم الإسلام يمكن أن يكون من خلال حمل آيات القرآن على غير محملها بحيث نقول للناس: إن صحيح القرآن ليس بجديد، وجديد القرآن ليس صحيحا .

هل تحب أن تسمع أو تقرأ آداب الصيام لتعرف كيف يخلط الناس الحق بالباطل ؟!

سأستأذنك أَنْ أنقل لك آداب الصيام بأسلوب كاتبيه من علماء هذه الفرقة المعتمدين عندهم.

قال قائلهم: "الصوم مشهد من المشاهد له حرمته وله هيبته ووقاره، لذلك تقرر أَنَّ الأصل في نهاره الصوم وتقررت الإباحة في ليله بالنسبة للمأكل والمشرب والرفث إلى النساء، وينبغي أن يتصرف المسلم بحسب ما يقتضيه هذا المشهد بأن يُسلم وجهه لربه ويصوم مخلصا له دينه فلا يسف ولا يغلو ولا يسرف في لهو أو لعب وأن يعتصم بذكر الله وبتلاوة القرآن الكريم وبالصلاة، وأن يعتزل الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلا إلا من يعمر مجلسه، بذكر الله وتدبر آياته، وأن يكون كريما مع أهله ينفق عليهم بسخاء في هذا الشهر الكريم وأن يطعم جاره ولو كان غنيًّا، وأن يسعى إلى الفقراء يجود عليهم بما لا يحوجوهم في شهر اعتادت فيه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأسواق أن تعمر بمختلف أصناف المأكل والملبس، مشهد يتكرر كل عام ليتقي به المؤمنون من مشهد يوم عظيم"(١).

ولستُ ندري ما الذي يقصده هذا الكاتب ؟!

لقد صَرَّح فيما مضى أَنَّ الصوم لون من ألوان العقوبة بدليل ما ورد في الكفارات، وَأَنَّه لون من ألوان الجهاد بدليل ما ورد فيه من فطام النفس عما تحب.

والعقوبة والجهاد يقتضيان جميعا أن يرتفع الإنسان عَمَّا لَذَّ وَطَابَ من أنواع الطعام والشراب.

وهو هنا يقول: على نحو ما رأيت أَنَّ أيام الصيام ولياليه عامرة بالأسواق الملأى بما يشتهي الإنسان ويشتاق إليه، وَأَنَّ الصائم يجب عليه أن يوسع على عياله، وأن يطعم الجيران فقراء وأغنياء، وأن يشارك في هذا المهرجان الذي يتكرر كل عام.

أي تناقض هذا الذي نراه، وأي تخبط هذا الذي نستشعره ؟!!

عجبٌ لَا يقطعه إِلَّا مَا نعرفه من خلق هؤلاء الناس، هذا الخلق الذي حملهم على إنكار السنَّة ليتركوا المسلمين بغير شريعة، ثُمَّ يقولون للماسونيَّة العالميَّة كما قال بشير الدين محمود مِنْ قبلُ، وكما قال غلام

---

(١) لماذا القرآن ج١ ص ١٨٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أحمد القادياني لليهوديَّة العالميَّة، لقد كتبنا في مدحكم ما يمــلأ خمســين خزانة، ثُمَّ كتبنا ما يقرب من ذلك في تشويش عقيدة المسلمين وشريعتهم.

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

٣ـ كلامهم في الحج :

أَمَّا الحديث عن الحج فهو حديث يجلي مقاصد هؤلاء الناس بعض التجلية، إذ هم كما علمنا مرارًا يقصدون إلى التخلص من السـنَّة جملـة وتفصيلا، وقد رأوا أنهم يستطيعون من خلال الحـديث عـن الحـج أن يؤكدوا هذه النظريَّة، ويشرحوا هذه الفكرة.

فالحج عندهم هو زيارة البيت الحرام والقيام بالمناسك التي أمـر الله بها، بقطع النظر تمامًا عَمَّا نُسِبَ إلى النبي ﷺ قولا وفعلا فيه، حتَّى ولو كان ذلك قد رآه جمهرة من الحجيج في حجة الوداع، ونقلوه إلى من وراءهم وهم أكثر عددا، ثم شاع بعد ذلك في الأجيال، جيل عن جيل بما يخرج عن الحصر ويفوق العد.

وهذا كلام بين البطلان حين يحتكم العقل إلى أي منهج من مناهج العلوم الإنسانية التي تصلح لقياس مثل هذه الأحداث واختبارها .

وفي تفاصيل الحج عندهم ما هو أشد نكرا من ذلك.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهم يتحدثون عن الحج من حيث ميقاته الزمني حـديثًا مستفيضـا يحاولون من خلاله تعويم هذه الشريعة، وجعلها ترتبط بأغراضهم حيـث يخضعونها إلى الهوى، ويربطونها بما يحقق الأغراض المسـتقرة فـي النفس ضد الإسلام والمسلمين.

فالميقات الزماني للحج عند المسلمين يبدأ من رؤية هلال شـوال وينتهي بأيام التشريق شريطة أن يحسم الموقف كله الوقوف بعرفة فـي اليوم التاسع من ذي الحجة وليلته التي هي ليلة العيد.

أَمَّا هؤلاء القوم فهم يرون أَنَّ الميقات الذي تعارفت الأمة عليـه على هذا النحو مخالف لما جاء في القرآن ويناقضه، نعم، هكذا يقولـون، ولسنا ندري في أي جزء من أجزاء القرآن وقع هذا التقابل والتنـاقض مع ما يفعله المسلمون.

ودعك من هذا : لنرسم الصورة عن الميقات كما يقولونها .

والميقات على نحو ما يقولون يبدأ من هلال شوال في يومه الأول لينتهي برؤية هلال صفر.

معنى ذلك أَنَّ الميقات الزماني للحج يستغرق أربعة أشهر كاملـة، هي شوال وذو الحجة وذو الحجة والمحرم.

وأنت تعلم أَنَّ شوال ليس من الأشهر الحرم، وإنَّمـا الحقيقـة أن رابع الأشهر الحرم هو رجب الفرد الذي بين جمادي وشعبان، وقد حدده

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النبيُّ ﷺ بالتأكيد عليه وذكر علامته فهو رجب: مضر وذكر موقعه بين الشهور، فهو الواقع بين جمادي وشعبان .

ولأنَّ النبي ﷺ هو الذي حدده، وقفوا منه موقف المعارضة، وحذفوه ووضعوا مكانه، شهر شوال بغير دليل.

ولا أُخفي عليك عجبي من هذا الموقف لأنني لا أدري من أين جاءوا بالنص الأكثر احترامًا من السنَّة عندهم، ثم ركزوا عليه في اعتماد الأشهر الحرم وأنَّها هذه الأشهر المتوالية .

إنَّهم يقولون كما قال صاحبنا في كتابه الذي نحن بصدده : إنَّ هذه الأشهر متوالية لتوالي أهلتها، وهذا قول يصدق على أية أربعة أشهر متوالية يمكن لنا أن نختارها بطريقة عشوائية .

وهذا كله يدلك على قصد التشويش على العبادات، وهي مسألة لم تعد خافية بعد.

ونعود إلى محدثنا بعد هذا الاستطراد فنقول: إنَّ صاحبنا يرى أَنَّ هذه الأشهر الأربعة هي الأشهر الحرم، وهي ميقات الحج، والحاج يستطيع أن يؤدي مناسكه في أي وقت ما دام الوقت منحصر داخل هذه الأشهر الحرم.

وهم يسخرون من المؤمنين غاية السخرية حين يزدحمون في يوم بعينه من السَنة، هو اليوم التاسع من ذي الحجة وليلته التي تأتي بعده،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويرون أن هذا علامة جهل واتباع للنبي ﷺ بغير مبرر، إذ الجميع يستطيعون أن يقفوا بعرفات متفرقين كل بحسب ظروفه، وبحسب اليوم الذي يتيسر له، من غير أن يلتزم بيوم معين يجتمع فيه مع إخوانه ويحدثون زحامًا رهيبًا لا يُطاق .

وهنا يتبين لك القصد : إنهم يريدون أولا أن تفوت فريضة الحج الشرعيَّة على جميع المسلمين، أو على أغلبهم على الأقل، وهم يريدون ثانيًا: ألَّا يجتمع المسلمون في صعيد واحد وفي وقت واحد، إذ إن هذا الاجتماع قد يؤدي ولو بالاحتمال إلى اتحاد إرادة المسلمين، وهو أمر لا يريده سادتهم أن يقع على أي نحو من الأنحاء.

الميقات الزماني إذاً عندهم ميقات مفتوح يشغل الأشهر الثلاثة في آخر العام الهجري، وأول شهر من العام الذي يليه، على أن الميقات الزماني، وإن كان يمكن الحاج من الدخول في النسك إلا أنه لا يلزمه بنوع معين من الملابس لها شكل محدد، ولا يلزمه بالطبع أن يتجنب أشياء كلفه النبي ﷺ أن يجتنبها من نحو لبس المخيط، وقص الأظافر، وإزالة الشعر أو قصه في أي منطقة من مناطق الجسم، واستعمال العطور، ومباشرة عقود الزواج لنفسه أو للغير إلى آخره.

وهذا أمر يدلك على أَنَّ هؤلاء القوم يريدون في القصد البعيد لهم، أن يفرغوا كل عبادة من حقيقتها، ويفصلوها عن وظيفتها، إنهم يريدونها عبادة بغير التزام، وبغير تكليفٍ بشئ، إذْ التكليفات وظيفتها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأولى: تربية الإرادة والتدريب على صنع القـرار، واتخـاذ المواقـف المناسبة في الأوقات المناسبة، وهو أمر جد خطير فيمـا يـرى الـذين يحركون العرائس على المسرح .

ودعنا من الميقات والإحرام وتعال بنا لنتقدم قليلا في أعمال الحج لنقف عند الطواف مثلاً.

والطواف عندهم دوران حول البيت بما يطلق عليه اسم الـدوران ولو مرة واحدة، أو ما يقرب منها.

أَمَّا أن يتقيد الإنسان بعدد سبعة أشواط مـثلا، وَأَنْ يرمـل فـي بعضها ويسعى في البعض الآخر، أو أَن يستلم الركنين اليمـانيين، أو أن يهلل ويكبر عند أحدهما، أوأن يقبل الحجر الأسود، هذا كله هو من فعـل النبي ﷺ ولا دلالة عليه من القرآن، ولذا يجب حذفه والاسـتغناء عنـه واستبعاده، ويبقى الطواف هكذا يصدق على ما يسمي دورانا حول البيت، ولو بجزءٍ مرة يقرب الحاج من تمامها بدورانه .

ومقام إبراهيم قد ورد الحديث عنه في القرآن، والنَّـاس يعرفـون هذا المقام وقد رأوا النبي عليه الصلاة والسلام يتحدث عنه ويصلي خلفه، وهي أمـور لا يعتمدها هؤلاء القوم، بل هم يقولون إن مقام إبراهيم هـو مـدخل بـاب الكعبة، حيث كان يجلس فيه ويصلي، إن أراد أن يصلي لربه .

ونحن نعجب من أين جاء هؤلاء القوم بهذا المعنى الذي ألصقوه بمقام إبراهيم بغير دليل أو إثبات، أهو موجود في القرآن الكريم ؟!

على أية حال فهم لا يريدون أن يفهموا مقام إبراهيم على نحو ما فهمته الأمة، وإنما يريدون أن يفهموا أو يفهموا الناس أن مقام إبراهيم الذي يصلي فيه الناس هو تلك البقعة من الأرض الضيقة جدا، والمنحصرة جدا أمام باب الكعبة ، التي لا تسع إلا رجلا واحدا في جسم سيدنا إبراهيم يصلي فيها ويجلس.

بالله كم عسروا وضيقوا حتى لا يتمكن الناس من آداء شعائرهم فتفوت عليهم.

وأنا أريدك أن تحتفظ بهذا الموقف الذي جنح الناس فيه إلى التضييق على الحجيج حتى لا يتمكنوا من الفعل إلى أن أصل بك إلى عرفات لترى أنهم قد وسعوا على الحجيج جدا كي يتفلت منهم هذا الفعل، إذ المهم عند القوم أن يفوت الناس أداء مناسكهم، فإن فاتت بالتضييق فلا بأس، وإن فاتت بالتوسعة فلا بأس، والغاية تبرر كل وسيلة.

والركن الذي اعتمده بعض المسلمين وهو السعي بين الصفا والمروة، اعتبره هؤلاء الناس من قبيل المباحات، أو على الأقل من باب الأمر الذي يثاب عليه فاعله ولا يعاقب تاركه .

ولست أدري ماذا يطلق هؤلاء القوم على مثل هذه الحال من الأسماء، لكن الذي أدريه من أقوالهم التي صرحوا بها هو أن السعي بين الصفا والمروة ليس كما يعرفه المسلمون سعيًا بين هذين الجبلين يصعد الحاج على أحدهما، ثم ينصب إلى بطن الوادي قاصدًا الآخر، فإن وصل إليه احتسبت له مرة من مرات السعي، ثم يظل يتابع مشيه بينهما: هكذا سبع مرات، يبدأ بما بدأ الله به (الصفا) وينتهي بما انتهى الله به (المروة) على أن يهرول بين نقطتين معينتين في مسعاه، ويسعى فيما قبلهما وما بعدهما.

القوم لا يوافقون الأمة على ذلك، وإنما يقولون: السعي بين الصفا والمروة غير وارد إِلَّا في السنَّة وفعل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا ينبغي أن نتخفف منه عزيمة وعزما .

أما الكيفية التي ينبغي أن نتبعها فهي: أن نطوف خارج الصفا والمروة حولهما، وعليه فإن البناء القائم على الجبلين الآن خطأ شرعي ينبغي إصلاحه لأنَّه يعوق الطواف حول الصفا والمروة، ويجعل الحاج يسعى بينهما .

وكأني بهم يقولون: حتَّى لو بقى الحال على ما هو عليه، فإنَّ ذلك غير مزعج لأنَّ الطواف حول الصفا والمروة من المكملات في الحج، بل من التطوع، إن فعل فلا بأس، وإن اجتنب فلا حرج .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الآن وقد وصل الحديث بي وبك إلى الوقوف بعرفة، وهو جبل معروف يفصله عن مكة حوالي ثلاثون كيلو مترا، وهو ليس من الحرام، وإنَّما هو من الحل، عرفه المسلمون على أنَّه منسك، وهم يقفون به بعد زوال شمس يوم عرفة، ويمتد الوقت المصرح به شرعا إلى طلوع فجر يوم العيد، وما بين هذين الوقتين يجزئ الحاج أن يقف بعرفة فيه، فإن فاته الوقوف في هذا الوقت فقد فاته الحج، حيث قال النبي ﷺ : "الحج عرفة" .

وقت محصور وضيق ، قد وجد القوم بغيتهم فيه فأرادوها فرصة ليخرجوا الحجيج عن آداء ما تطوعوا به بالتوسيع في هذا الزمان وفتحه حتى يشمل قريبًا من مائة وعشرين يومًا أو أقل منها قليلا ، هي تلك الأيام التي يضمها الأشهر الحرم الأربعة .

ويوم عرفة كما يقولون بتعبيرهم: يوم مفتوح، لم يكلف الله فيه عباده بشئ معين، وإنَّما تركهم هكذا في يوم يفيضون فيه، فهم يفيضون فيه من القرآن الكريم تلاوة إن أرادوا، وهم يفيضون فيه بالصلاة ركوعا وسجودا إن شاءوا، وهم يفيضون فيه بالذكر شريطة أن يكون الذكر من القرآن، إن رغبوا في ذلك، يوم مفتوح إذاً يتسابق الناس فيه في التقرب إلى الله، وهو يوم غير معين، والمهم أن يرى الله ﷻ من عباده أنهم يتسابقون.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولعلك مازلت تذكر أني نبهتك عند الصلاة في مقـام إبـراهيم أن القوم يهتمون بتضييق الواسع، وتوسيع المحدد من الزمـان والمكـان إذا رأوا في ذلك فرصة لتفويت العبادة، وأنت من الذكاء بحيث لم يعد يفوتك هذا القصد من هؤلاء فيما سأعرض عليك من أحوال.

وبعد الوقوف بعرفة يـأتي المـرور بالمزدلفـة والمبيـت بهـا، والمزدلفة كما نعرفها لها أسماء عدة فهي : المشعر الحرام وهي: جمـع، وهي : المزدلفة، أسماء متعددة لمسمى واحد، متسع الأرجاء، وقد وقـف النبي ﷺ بجزء منه وقال : "وقفت هنا والمزدلفة كلها مشعر" .

والمكان هنا متسع كما ترى، فهل يتركون المتسع على اتساعه ؟؟

عادتهم أنَّهم لا يفعلون كما علمت، ولذا فقد قـالوا: إن المشـعر مسجد غير مسقوف، وهو هذا المسجد الذي بُنِـى بعـد رسـول الله ﷺ بسنوات طويلة، وقد أوجبوا على المسلمين جميعا هـو أن يقفـوا بهـذا المسجد الذي لا يتسع إلا لعدة مئات، رغبة منهم في تفويت العبادة علـى عباد الله كما علمت .

وقد أوجبوا على الناس أن يقيموا هنا في المزدلفة ثلاثة أيـام، أو زهاءها لا يبرحون هذا المكان ولا يعادرونه، ولا أدري كمـا أظنـك لا تدري من أين للقوم بهذه الأيام .

وما لنا وهذه التساؤلات ومثلها نقف عندها ؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إننا سنعود بك لنحدثك عن منى يوم النحر، ويومين أو ثلاثة أيام بعده فيهن رمى الجمرات، وفيهن الذبح والتقرب بالهدى، وفيهن المبيت الواجب في منى، وإن القوم لينظرون إلى هذا الجزء من الحج على أنه بدعة شيطانية ألقى بها الشيطان في روع النبي أو في تاريخ الأمة، ولا يجوز لأحد أن يتبع بدعة شيطانية حتى ولو توارثتها الأمة على منهج وأسلوب التواتر.

بقى للمرء أن يحل من إحرامه.

وأنا لست أدري ما الإحرام الذي يتحلل الإنسان منه عند هؤلاء ؟!

إنَّ التحلل لا يكون إلَّا من تقييد وحظر، وليس هناك شئ فيما يرى هؤلاء كان محظورا على الحاج أن يفعله، ولذا فقد جاء التحلل أمرا مضحكاً.

إنَّ التحلل عندهم يعني أن يذهب المرء إلى الحلاق، ليجعله في أكمل زينة وفي أحسن الأوضاع التي يقابل بها أهله وذويه بعد الحج، ولم لا ؟!

أو ليس له أطفال ينتظرونه ويقتدون به في زينته وملبسه ؟!!

أو ليست له زوجة قد طال بها الأمد وبرحت بها الأشواق وهي الآن قد استعدت لاستقباله وازينت ؟!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن المناسب أن يقبل هذا الحاج عليهم بملبس نظيف وشعر مرتب ووجه حليق، بدل من أن يأتيهم وعليه وعثاء السفر وغبرة الطريق، هذا هو منسك الحج كما رآه القوم، اختصرته لك مــن كلامهــم اختصــارا، وحاولت ألَّا أشق عليك بقسوة التعبير حتى لا أضرم صدرك نارًا، وأنت من خلال ما عرضت عليك قد أدركت بما لا شك عندي فيه: أنَّ القوم ما قصدوا إلا إلى تضييع شرع الله، ووضع شرع آخر مكانه، لا يربي فردا ولا يبني أمة .

٤ــ العمــــرة :

ويقترن بالحديث عن الحج الحديث عن العمرة .

وهي عند جميع المسلمين: عبادة مستقلة لها مناسكها ولها أسلوب آدائها وقد تدخل في الحج إن أراد الحاج أَنْ يُقرنها به .

ولا يرتضي القوم أَنْ يكون للمسلمين نسك يسمي: العمرة، ما دام بالإمكان أن ينفضوا اليد منها، وهم يظنون أَنَّهم قادرون على ذلك.

رأى هؤلاء الذين أنكروا السنَّة أنه لا يجوز تقليد النبي ﷺ في كــل ما أداه طوال حياته من مناسك للعمرة، والناس أعداء وصــحابة وأتبــاع ينظرون ويشاهدون بأعداد تخرج عن الحصر.

إنهم ينكرون ما قام به النبي ﷺ ويعتبرون أن هــذا مــن قبيــل الظن، وأن الظن لا يغني من الحق شيئا .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد تشبثوا جميعًا بالكلمة (عمرة) ليقولوا للمسلمين: إِنَّ العمرة هي من العمارة ومنها الإعمار، وهذه المادة في أحسن حالاتها لا تدل على أَنَّه يجب علينا أَنْ نعمر المساجد كلها على أي أرض وجدت وفي أي زمان صادفناها، ونعمرها بأدوات النظافة كالفرش وغير ذلك، ونعمرها بالذكر والصلاة، ونعمرها بالسرج ووسائل الإضاءة، المهم أن نعمرها بأي وسيلة من وسائل التعمير.

والمسجد الحرام هو أقدم المساجد وأولها بالإطلاق، فهو أولاها بالتعمير على المعنى الذي ذكرناه، بحيث يكون التعمير شاملًا للتشييد والنظافة والإضاءة والعبادة ، ويمكن أن يدخل في تعبير المسجد الحرام، الطواف والسعي والصلاة أمام مقام إبراهيم .

أَمَّا أَنْ تكون هناك عمرة لها أركان مخصوصة، ولها واجبات وسنن معينة، فهذا أمرٌ لم يرد به نَص قرآني، وقصارى القول أَنَّه قد وردت به السنَّة النبويَّة، وتلك مسألة لا نقر المسلمين عليها !!

الحج والعمرة إذاً قد استهدفه، القوم فمسخوهما مسخًا، وفرغوا كل عبادة منها من محتواها، وتركوها هكذا نوعًا من الشقشقة الفارغة التي لا تحمل بين ثناياها معنى ولا في طياتها عمقًا.

فهل لديهم شئ مقبول يقولونه فيما عَدا ذلك مِنَ الأركان ؟![1].

---

(١) راجع البيان بالقرآن ص ٨٣ وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٥ـ حديثهم في الزكاة :

الزكاة في الإسلام جزءٌ مِنَ النظام المالي العام.

والنظام المالي العام في الإسلام، له مذهبه الشامل، وله قوانينه الجزئية التي تتصل بالحوادث الواقعيَّة.

ولسنا هنا في مجال الحديث عن النظام الاقتصادي في الإسلام، وإِنَّما نحن بصدد والحديث عن الزكاة باعتبارها جزءًا من هذا النظام.

وما نحب أن نقوله في الزكاة هو: أَنَّ الله ﷻ حين وضعها لم يضعها لصالح الفقير وحده، وَإِنَّمَا وضعها نظامًا يوازن بين الفقير والغني والمال الدائر في حركة الاقتصاد العامة .

وإن نظامًا كهذا يحتفظ بالموازنات بين أطراف عدة لابُدَّ له من حساب دقيق، وأسلوب منضبط حتى لا يطغى فيه طرف على طرف، وحتى تكون الحقوق مرعيَّة، والتوازن ظاهرًا لا سترة به .

فمن حيث المُنفق أو المُزكي نجد المنظومة الإسلاميَّة فيما يتعلق بالزكاة منسجمة غاية الانسجام مع مثيلتها مِن أجزاء التشريع، لا تناقض فيها ولا خلل، ولا ارتباك فيها ولا ميل.

فهي هنا كما هو الشأن في كل موضع تحافظ على حق الفقير، كما تحافظ على إرادة الغني وغرائزه، ولذا فَإِنَّكَ تجدُ التشريع المتصل بالزكاة على مرحلتين:

<u>إحداهما جبريَّة</u> وهي رُبع العشر في أموال التجارة والنقدين، وفي كل ما يحمل على النقدين ويقوم بهما وهو العشر في الزروع والثمار، إذا خرجت الزروع والثمار بغير مؤنة، وهو نصف العشر فيهما إذا خرجنا بكلفة ومؤتة، وقل مثل ذلك فيما حدده الله في الإبل والبقر والغنم، وغير ذلك مما جاءت الشريعة بتحديده .

وهذا القسم مِنْ أقسام الزكاة يخرجه المؤمن فريضة واجبة عليه، وهو الحد الأدنى الواجب على الأغنياء، أوجبه الشرع في أموالهم حماية للفقير من شح محتمل في نفس الغني.

وَأَمَّا ثاني القسمين فهو هذا القسم الذي يخرجه الإنسان باختياره، وهو قسم لم يحدده الشرع، ولم يوجب فيه قدرا معينًا، وإنَّمَا تركه احترامًا لإرادة الغني، وتقديراته الشخصيَّة استجلابا لرضا الله ﷻ، واستنهاضًا للجماعة من كبوتها العارضة، ومساعدةً للأفراد على اجتياز ظروف يمرون بها عارضة أو دائمة.

وبهذين القسمين تجد هذا التوازن الدقيق بين طرفين، الغني من جهة، والفقير من جهة، فلم يترك الله ﷻ الفقير وظروفه لعبث الأهواء وتقديرات الأغنياء، وقد يكون منهم الشحيح والكريم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشح في بعض الأحيان أملك للنفس، يطوعها حيث يشاء كما يريد، فلم يشأ الله أن يربط ظروف الفقراء بعبث إرادات الأغنياء ، وفي الوقت نفسه لم يشأ الله ﷻ أن يهدر حرية الإرادة عند الغني فجعل له جزءا يتصرف فيه بإرادته غير مقيد بوقت، وغير مقيد بنصاب، وغير مقيد بقدر يبذله الغني إلى إخوانه من الفقراء.

أَمَّا الطرف الثالث، الذي تجب رعايته هنا فهو هذا المال الدائر في الحركة الاقتصاديَّة. وهذا المال الدائر يحتاج هو الآخر إلى رعاية.

والمال الدائر في الإسلام لابُدَّ وأَنْ يبقى دائرًا يُؤْتى إنتاجه ويؤْتي حصاده، وَمنَ الخطأ والخطل معًا أَنْ نخرج من هذا المال بغير حساب دقيق، بل إِنَّ أقل الدول تحضرًا تقوم الآن على عمل ميزانيات تحسب من خلالها الدخل والمنصرف، ورأس المال الدائر في الحركة الاقتصاديَّة، بل يجب توعية أرباب البيوت ورباتها ورؤساء العائلات والمسئولين عَنْ الإنفاق فيها أَنْ يوازنوا بدقةٍ بينَ الدخل والمنصرف حتَّى يعيشوا في أمنٍ اقتصاديٍّ.

والاقتصاد الذي يعمل لا يكفيه أقل من عام، حتَّى يتمكن رَبُّ المالِ مِنْ حسابات المكسب والخسارة فيه، إِذْ هو لا يتمكن من عمل موازنات يوميَّة، ولو أَنَّه تَمَكن مِنْ ذَلِكَ لكان الأمر بالنسبة إليه جد عسير.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَمن جهةٍ أخرى فَإِنَّ المال له نسبة ربح تدور في وسط معقول في العام كله أقلها في السلامة ستة بالمائة، وأعلاها في حالة الاستقرار عشرة أو اثنتا عشرة بالمائة، فَإِنْ زادت النسبة عن ذلك احتاج الاقتصاد كله إلى مراجعة، وَإِنْ قلت النسبة عن الحد الأدنى احتاج الاقتصاد إلى إعادة النظر.

وصاحب المال عليه التزامات ومنها الزكاة، فلو لم تكن الزكاة مسماة بقدر معين لارتبكت حسابات المالك وطغى بعض الجوانب عنده على جوانب أخرى.

لكي يكون المالك والفقير ورأس المال في حالة من التوازن لا خلل فيها فإنَّه لابُدَّ وأن يكون هناك حد أدنى لا تخرج الزكاة في مال الأغنياء وجوبًا إِلَّا إذا وصل المال إلى هذا الحد الأدنى وتجاوزه، ولابُدَّ كذلك أَنْ تكون هناك دورة زمنيَّة يقف المرء بعدها ليراجع حساباته في المكسب والخسارة، ولتكن هذه المدة الزمنيَّة حولًا كاملًا، ولابُدَّ كذلك أن يكون هناك قدر مسمى، هذا القدر لا يستغرق نسبة الربح كاملة، وإنَّما يأخذ منها ويبقى ما يحتاج إليه الغني في نفقاته الخاصة، وما يحتاج إليه في صيانة رأس المال الدائر، ولابُدَّ أن يكون هناك احترام لحاجات الفقير، والصيانة لها حيث لا تبقى عبئًا في يد الأغنياء وأرباب الأموال، ولابُدَّ وأن يكون هناك احترام لإرادة الغني الحرة التي يستمتع بها عندما يكون هو صانع قراره.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن أجل هذه اللابديات جميعًا، وجدنا الشرع الحكيم لا يفرض الزكاة إلَّا إذا بلغ المال النصاب المحدد شرعًا، ووجدناه كذلك لا يوجب الزكاة إلَّا إذا حال الحول، ونجد الشرع أيضًا قد أوجب في مال الغني حقًا معلومًا للسائل والمحروم، صيانةً لحاجتهما من عبث العابثين، ونجد الشرع الحكيم قد ترك جزءًا اختياريًّا سَمَّاهُ الصدقة يخرجه الغني من ماله الذي يملكه في الوقت الذي يريده وبالقدر الذي يرتضيه احترامًا لإرادته ، وإطلاقًا لسبحاته في رضا ربه، وتقويةً لرغابته في الحفاظ على ذوي الحاجات من أمته .

وهذا النظام نفسه ظاهر في غير النقدين وأموال التجارة من نحو زكاة الزروع والثمار، ومن نحو زكاة الإبل والأغنام والأبقار.

نظام بديع منضبط بالأرقام يوازن بين الحاجات والمشاعر والإرادات والمال الدائر من غير طغيان لعنصر منها على عنصر، ومنظومة الإسلام تلك، قد وقف خلفها حشد عظيم من النصوص يحمي بنيتها، ويربط بين عناصرها، نصوصٌ قد جاء بها الوحى بنوعيه، الوحى المقروء في القرآن الكريم، والوحى الذي عَبَّرَ عنه النبيُّ ﷺ بقوله وفعله وتقريراته فيما يعرف بالسنَّة.

وحاول القوم الذين أنكروا السنَّة أَنْ يخترقوا هذا النظام البديع، وقرروا أن يسحبوا حجر الزاوية منه، ليظهروه أمام العالم بناءًا مهتزًا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

متهالكًا، لا يصمد حتى أمام نقر الطيور أو هبوب الرياح، فكان ما كان مما صنعوه، وأراقوا الكثير من المداد لتحبير الصفحات من أجل إثباته .

وما ذكروه كثير، منه :

١ــ أنَّهم أرادوا أن يحدثوا خللاً في النظام الحسابي للزكاة ليؤثروا على النظام العام والخاص، بعد أن يتمكنوا من تحويله إلى أمر ارتجالي لا يعرف فيه ربح من خسار، ولا يعرف فيه مقدار سيره إلى الإمام أو تراجعة إلى الخلف، فقالوا: إِنَّ الزكاة ليس فيها شئ مفروض مسمى من حيث القيمة، إذْ إِنَّ ما يعرفه المسلمون اليوم ومن أيام النبي عليه السلام وعبر العصور، ما هو إلَّا بدعة ابتدعوها ما كتبها الله عليهم ، فجاء ربع العشر في النقدين والتجارة، وجاء العشر بالزروع والثمار بغي مؤنة، وجاء نصف العشر فيهما بمؤنة إلى غير ذلك، أسماء سماها المسلمون والنبي ﷺ معهم بغير سلطان آتاهم من الوحى أو التكليف، والعجب العاجب أن النبي ﷺ قد رأى ذلك يصنع وأقرَّ النَّاسَ عليه ولم يعلق، ورب العزة تركه، هكذا يقر أصحابه، ولم يصحح له مسيرته.

سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ!

كما قالوا إِنَّ الزكاة ليس فيها شئ اسمه الحد الأدنى أو النصاب، وإنَّ ما سمعه المسلمون مما كان يفعله الأجداد وتوارثوه منهم من أن الزكاة لا تجب إلَّا إذا بلغ رأس المال النصاب، أمر مختلف ومفترى، افتراه من افتراه وألحقه بالإسلام من ألحقه، والإسلام لا علاقة له به .

وأنت خبير أَنَّ أقل النَّاسِ اليوم ثقافة يعلم أن المال لا يتأتى له أن يدور في حلبة المعترك الاقتصادي، وهو مثقل بتبعات تلاحقه تستقطع منه في شكل ضريبة أو زكاة، وإنَّمَا يتمكن المال من الدوران، إذا كان من القوة بحيث يستطيع أن يغطي نفقاته، وأن يكون هناك فائض يغطي متطلباته، وتلك مسألة قد أصبحت مِنَ البداهة، بحيث لا تحتاج إلى كثير تفكير، وأنا أظن أن أصحابنا يعلمون ذلكن ولكنها إرادة الهدم لنظام يملك القدرة على الانتشار، وشهوة التخلص من شريعة لا ترضي من القيادة إلَّا موضع الصدر، وهم يقولون إِنَّه لا يشترط أن يحول الحول حتى تجب الزكاة، ويلونون بالحائط وهم يتكلمون كالوسواس الخناس ويقولون: حاجات الفقير ملحة فهل ينتظر الفقير حتى يحول الحول.

ولستُ أدري أنضحك أم نبكي أم نترك الضحكات تمتزج بالدموع على أناس يقولون وهم يظنون أَنَّ أصواتهم ستذهب بغير رجع للصدى كأنَّهم يقولون في موتى ويتحدثون في عدم.

إِنَّ الصغير والكبير يعلم أَنَّ كل واحد من أرباب المال له نقطة بداية بدأ العمل عندها، فهناك مَنْ بَدَأَ عمله من أول العام، وهناك من بدأ عمله بعده بيومين، وهناك من بدأ عمله بعد شهر وهكذا، وكل إنسان من الأغنياء له وحدة حساب زمنيَّة تخصه، وإذا ما التزمنا بنظام الإسلام سنجد الأغنياء يخرجون زكاتهم بالنقدين والتجارة، وفي الأبقار والأغنام والجمال في أوقات متواليَّة على مدار العام.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالإضافة إلى هذه المواسم للزروع والثمار وغيرهما تعطي منها النفقات عند حصادها، وكذلك تخرج الزكاة في ذلك الوقت .

ولعلك أدركت معي من هذه النقطة أَنَّهم قد أرادوا أن يوجهوا ضربة للمال في دورانه لعلها تنجح في إصابة الاقتصاد الإسلامي بالخلل أو على الأقل بالترنح ريثما يفكرون.

٢ـ ثُمَّ هم مرةً أخرى يتأملون المنظومة الإسلاميَّة في الزكاة، يبحثون عن حجر آخر في زاوية أخرى، فكان وقوفهم هذه المرة عند المزكي يغازلون عواطفه ويداعبون خياله، ويعبثون بغرائزه.

إِنَّهم يقولون للأغنياء جميعًا، لقد وضع الله المعيار في أيديكم، فأنتم أصحاب الأموال، وأنتم الذين تُقدِّرون حاجات المجتمع والأمة، وفي أيديكم وحدكم هذا النبض نبض الحياة للأفراد و الجماعات، فإن وجدتم النبض بطيئًا دفعتم في شرايين الأفراد والجماعات عنصر الحياة، وإن وجدتموه سريعًا عاليًّا تحكمتم في الموارد بما يصلح الأمة، ويجعلها متزنة بغير طغيان وفي غير ضعف.

وما توارثته الأمة من معايير حسابية في مسألة الزكاة عملية معقدة جدا، هذا فضلا عن أَنَّها لا تحترم حرية الإرادة فيكم.

ويستمر القوم في قصيدة الغزل إلى منتهاها إن كان للخيال منتهى، ويستمرون في العزف على قيثارة ممقوته إلى غايتها إن كان لأحلام

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اليقظة غاية، يفعلون هذا كله، وهم يعلمون أَنَّ إرادة الإنسان قد تضعف، وأَنَّ حماسه قد يقل، وَأَنَّ ضمير المرء هو ابن بيئته، و حاجات الفقير لا ترحم وآلام المسكين مبرحة، ودمعات اليتيم لا تجد مَنْ يجففها.

أي مقياس هذا الذي يضع مصير الأمة في يد إرادات غير مأمونة العواقب، وفي يد رغبات قد تضعف عن القيام بواجباتها ؟! ما أجمل أن يكون هناك نظام يفرض على الأغنياء ما يسد الحاجات الضروريَّة عند الفقراء، ويترك الباب مفتوحا لحرية الإرادة أن تفعل ما تشاء .

٣ـ ثُمَّ بحث القوم عن زاوية ثالثة لتقويض هذه المنظومة الإسلاميَّة في الزكاة فلانوا بمذهبهم الأصيل وخاصة بعد أن درس وعمق في أخص خواصه، وهذا المذهب الأصيل يدور كله حول التعميم والتقويم، بحيث لا يبقى للدين شخصية وهوية، وهذا المبدأ بعد أن كان ساذجا بسيطا قد عمق الآن ودرس دراسة نفسية وإعلامية.

في الماضي كانت المبادئ الكبرى تضرب بالحرب والمواجهة، أو بالكيد والخديعة .

وفي هذا الزمان قد ابتكرت أساليب أخرى، وأهمها الموافقة والمصاحبة بحيث يوافق العدو عدوه، إلى أن يأنس له ثم يستل منه شيئًا فشيئًا، فيظهر أمام الناس مسخاً شائهًا، لا شخصية له، ولا هوية يملكها، ولا يملك مميزًا يميزه عن غيره.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذه الخطة الأخيرة تطبق الآن على الإسلام بعنايـــة، فالإســـلام عندهم دين خير وبركة، ودين فضل وتقدم، ودين إنسانيات يراعي الفرد والجماعات، ودين يربط الإنسان بربه، وهو دين يعلي من شأن الـــروح، ويرفع من كرامة النفس، وهو دين، وهو دين، وهو دين . .

هذه الكلمات وأمثالها : لو وصف بها الدين المسيحي لصلحت ولو وصف بها الدين اليهودي، لصلحت، بل لو وصفت بها الديانات المصريَّة القديمة، لصلحت ولما وجدت حرجًا.

وهذه الكلمات حين يوصف بها الإسلام مثلًا، لا يكون لـــه مميـــز يميزه عن غيره، وهذا قصد مقصود للمسخ والتشويه، وهي خطة جديـــدة ابتكرها من ابتكرها لتكون إلى جوار الخطة الأخـــرى الســـاخنة، حتَّـــى يحارب الإسلام بالأمرين معا، بالتسخين إلى حد الاحتراق فـــي حـــرب المواجهة، وبالتبريد إلى حد الفتور ونسيان الذات في حرب الخداع .

وليت المسلمين يعلمون إِنَّ الذي يعاقب بالنار المحرقة وبالزمهرير البارد هو الله ﷻ عقابًا لا حربًا، حتَّى يُعلي من قدر الأخلاق، ويرفع من شأن القيم.

وحينَ نتأمل كتابات القوم فلا نجد إلَّا عبارات عامة فضفاضة، ولا نجد إلَّا مغازلة للعواطف، ولا نجد إلَّا جرأة على النص، ولا نجد إلَّا جرأة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على السلف، ولا نجد إلَّا اهدارًا متعمدًا لمناهج التاريخ وخدشاً مقصـــودا لمشاعر المؤرخين [١].

ويا ليت قومي يعلمون!

وكنا نظن أَنَّ القوم سيدخلون على نظـــام المعـــاملات، ومجـــال الاقتصاد وهو مجال ثري، وهو في نفس الوقت فـــي غايـــة الوعـــورة، تعامله بالدرجة الأولى مع الأرقام ، ثم مع النظريات المحددة المعالم.

كنا نظن أن القوم سيدخلون هذا المجال، وكنا على شـــوق شـــديد لمتابعتهم فيه لترى ماذا يفعلون، ولكنهم دخلوا جحر ضب خرب وعلموا كيف يخرجون منه، وهم لا يشعرون بأنهم قصروا أو زاغوا .

لقد تركوا منظومتهم إذاً من غير حديث ولو حـــديثًا كاذبًـــا عـــن النظام الاقتصادي في الإسلام، ولسنا ندري بماذا سيجيبون إذا سئلوا عن سبب تركهم لهذا المجال، فهم بين أمرين: إِمَّا أن يتهموا الإسلام بأنَّه لـــم يستطع أن يدخل مجالا كهذا، إذْ لا صلة له به ولا قدرة له على معالجته، وإمَّا أن يعتمدوا نصوص السنَّة إلى جوار القرآن، ليصوروا من خلالهـــا نظامًا بديعًا في الاقتصاد الإسلامي.

ما لنا وهذا المجال الذي تركوه وزاغوا عنه زوغانا غير مفهـــوم السبب أو العلة، نتحدث نحن فيه ؟

---

(١) راجع : لماذا القرآن ص ٢٥١ وما بعدها ، ثم انظر البيان بالقرآن .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكان الأمر الذي تحدثوا فيه بعدُ هو الحديث عن الزواج .

٦ــ الزواج :

والزواج علاقة بين رجل وامرأة بينهما أولاد ، وستستمر هذه العلاقة بغير حدود إلَّا أن يشاء الله .

والرجل في الأسرة له مسئوليَّات ماديَّة وأدبيَّة.

والمرأة كذلك في الأسرة لها مسئولياتها الماديَّة والأدبيَّة.

والأولاد بين هؤلاء نبت صغير ينمو ويترعرع من خلال ضوابط وقوانين.

والرجل إنسانٌ له عواطفه وأشواقه وعقله وسلوكه، والمرأة إنسانٌ آخر له عواطفه وأشواقه وعقله وسلوكه.

وكل واحد من الاثنين قد رُبِّى في بيئةٍ مختلفة تمام الاختلاف عن البيئة الأخرى التي رُبِّى فيها صاحبه.

والزوجة والزوج مع هذا الاختلاف في الأشواق والتفكير والسلوك قد جمع الله بينهما بعقدٍ متميز عن سائر العقود، له قواعده، وله أسسه وله ما يترتب عليه من آثار.

يدخل الإسلام على هذا الجانب من جوانب الإنسان دخولاً جادًا بغير هزل، ويتصدى له تصديًّا قويًّا بغير تفريطٍ، يضع القواعد المنظمة لهذا الجانب بما يشمل العموميَّات والتفاصيل.

وهذا التصدي من الإسلام لهذا الجانب من حياة الإنسان بما يتميز به من جدة وصرامة، لعله قد أورث هؤلاء القوم شنآنا على الإسلام يجدون مرارته في حلوقهم، أو لعله قد ألقى في عيونهم أذى جعلها لا تبصر ولا ترى، فلجأوا إلى أسلوب لا يجيدون في مثل هذا الموقف غيره، وهو أسلوب التعميم والتسطيح والانفلات من القيد، والتخلص من التزامات المبادئ .

فهم يقولون إِنَّ الإسلام يبدأ الحياة الزوجيَّة بالخطبة، وهذا صحيح لكنهم يفهمون الخطبة لونًا آخر من الإباحيَّةِ بين الذكر والأنثى مهما وضعوا له من العبارات مِمَّا يظنون أَنَّها تخفى آثاره، والشئ العجيب أَنَّهم ينسبون هذه الإباحية إلى الله ﷻ ويقولون إِنَّه هو الذي شرعها وأمر بها.

تعالي الله عمَّا يقولون علوًا كبيرًا!

وكأني بالقوم وهم يسخرون من قول النبي ﷺ: "ما اجتمع رجل وامرأة في مكان إلَّا وكان الشيطان ثالثهما "، كأنَّهم يقولون : إيَّاكم ومثل هذا القول والتفتوا إلى ما هو أفضل منه، والأفضل منه أَنَّ الرجل والمرأة، أو الذكر والأنثى في حالة الخطبة مباح لهم الخلوة والمخالطة الشديدة والقرب التام إلى أن تختلط الأنفاس حتى يتعرف كل إنسان على

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صاحبه، ويقولون: إِنَّه مهما ترتب على ذلك من آثار فهو أفضل بكثير من زوجين جمع بينهما عقد ولم يتعرف كل واحد منهما على صاحبه فوقعا في الشقاق والخلاف، بحيث ينتهي الأمر إلى الطلاق والفراق.

وأي إباحيَّة كتلك الإباحيَّة التي تكون بين اثنين يعدان إلى حياة زوجيَّة ستكون مأوى لأطفال يُراد لهم أن يحملوا في المستقبل مسئوليَّة أمة .

الغرض هنا واضح ومكشوف .

ثُمَّ تعال معي إلى كيفية العبث بالنصوص، فالله ﷻ قد أباح كما يقولون تعدد الزوجات، لكن لا يجوز للرجل المتزوج أن يتزوج بأخرى إلَّا إذا كانت هذه الأخرى أما لأيتام قد تولى هو تربيتهم، وخاف ألَّا يعدل بين الأيتام فيجوز له حينئذ أن يتزوج بأمهم ليتحقق العدل فيهم.

أي عدل سخيف هذا الذي يقوم على الرفث إلى النساء، وما العلاقة بين العدل في اليتامى والزواج بأم اليتامى، إِنَّه عبث في فهم النص، وعبث بعقول الأمة، وعبث بأموالها حين سخرت لطبع ونشر مثل هذا الكلام.

ثُمَّ هناك حالة أخرى لم تكن في أذهانهم حين تناولوا القلم ليكتبوا في تعدد الزوجات، ولكنها فكرة طرأت عليهم وهم يكتبون في ما ينكح الرجال بملك اليمين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والتاريخ القريب شاهد بأَنَّه كان هناك في الماضي حرائر وأرقاء، والقرآن كما جاء ليشرع لحالات التحضر، وكما جاء يرعى المثل، لا يمكن بحال أن يترك الواقع في همجيته إلى أن يتحول الواقع إلى المثال إنَّمَا هو يشرع له ويعبر به مِنْ هذا الواقع الأليم إلى أن يتحقق المثال العظيم .

تلك مسائل يقرُّها العقل في أقل صوره، وفي أبسط حالاته، غير أَنَّ صاحبنا يعبث بالنص، كما يعبث بالنص إخوانه ورفقاؤه فيقول: إِنَّه ليس هناك شئ اسمه: إماء أو رقيق، ليس هناك رقيق الآن، كما أَنَّه لم يكن هناك رقيق في التاريخ، ولا يعقل أن يشرع الله لشئ ليس موجودًا (سبحانك ربي) ومن أجل ذلك يجب أن نفهم (وهذا كلامه) القرآن على وجهه الصحيح حين يتحدث القرآن عن النكاح بملك اليمين .

والوجه الصحيح الذي ينبغي أَنْ نفهم عليه هذا النوع من النكاح لا يخلص لنا إلَّا إذا وقفنا على المعنى الحقيقي لملك اليمين، والمعنى الحقيقي لملك اليمين هو: أَنَّ هناك أناسًا لا مأوى لهم ولا بيت ولا مسكن، شردتهم الكوارث، أو عبثت بهم الزلازل، أو خر عليهم السقف من فوقهم، أو نزلت بهم النوازل من أي نوع كانت هذه النوازل، فتقدم رجال أماجد وآووهم إلى بيوتهم وتولوا الإنفاق عليهم، فهؤلاء القوم يكونون في ملك يمينهم هم أصحاب القرار في شئونهم وهم أولياؤهم ومالكو ناصيتهم، وهذا هو معنى ملك اليمين كما يقولون .

ونحن نسأل، أمن كرم الأخلاق هذا الذي يفعله الرجال بأصحاب الكوارث، أم هو رق واستعباد أشد قبحًا وأعظم نكرًا مِمَّا كان قد شهده التاريخ، ومارسه الناس في أزمنة ماضيَّة ؟!

دع هذا كله ودعنا معه نقبض على زمام القلم، ونسير مع القوم حيث يسيرون في هذا الطريق المملوء بالأشواك، قالوا: إِنَّه يجوز لكل شهم آوى إلى بيته من أصحاب الكوارث ما آوى، أَنْ ينكح بنات هؤلاء هو أو من يريد من أهله وذويه، شريطة أَنْ يكون ذلك بعقد، ولن يعترض عليه أحد، فهو مالك ناصية هؤلاء، وله عليهم اليد، ومن ينكر عليه أن يفعل ما يريد ؟!

آلام تعتصر القلوب حين يغلق الشرع باب الرق بعد أن يضيق منافذه إلى حد كبير، ويطلق مصارفه إلى حد التجفيف، فيأتي هؤلاء ليفتحوا على الإنسانيَّة بابًا مِن الشر قد أغلق، ومأساة تنوء بها كواهل العباد بعد أن صرفها الله عنهم، والشئ العجيب أنهم ينسبون ذلك إلى الله تمامًا كما فعل الناس في العصور الوسطى بسكان أوربا، حين نسبوا إلى الله إلغاء الحريَّات الأربع فقالوا: إِنَّ الإنسان ليس بحرٍّ في حاله، وهو ليس بحرٍّ في السياسة، وهو ليس بحرٍّ في الفكر، وهو ليس بحرٍّ في السلوك، ثُمَّ قالوا : إِنَّ الله هو الذي صادر الحريات جميعا، فكانت النتيجة أَنَّه لما أطبق الظلام على القوم، انفلتوا من القيود وهم يعلنون غضبهم على ربهم .

وإني لأظن ظنًا غالبًا أَنَّ منكري السنَّة حين قرأوا تاريخ القـــرون الوسطى، ورأوا النتيجة التي ترتبت على مصـــادرة الحريـــات قـــالوا: سنحاول أَن نصادر الحريات في بعض ما نحاوله، لعل مـــن أهـــدرت حريتهم يفيقون وهم يسخطون على الإسلام الذي باسمه صودرت حريتهم تماما كما فعل الأوربيون في عصر النهضة بعد عصور الظلام .

وإذا كان هؤلاء القوم قد ساروا في الحج على مبدأ تضييق الواسع وتوسيع الضيق ليخرجوا النَّاسَ من دينهم وعبادتهم، فهم هنا في علاقـــة الزوجيَّة، قد أطلقوا الحرية إلى حد الإباحة حينا كما فعلوا في الخطبـــة ، وقد صادروا الحرية إلى حد الرق حين تحدثوا عن ملك اليمين فمن لـــم يمت بالسيف؛ مات بغيره ، والمهم ألَّا يحكم الدين الإسلامي أهله.

وهم لم يتحدثوا في الزواج بعد ذلك عن شئٍ سوى حـــديثهم عـــن العلاقة الزوجيَّة الخاصة في أوقات الاحتقان الشهري للزوجة.

إِنَّ الله ﷻ قد حَرَّمَ هذه العلاقة ما دامت الزوجة محتقنـــة لأمـــور كثيرة نفسيَّة وطبيَّة وغيرها، فجاء القوم ليقفوا من المنطق موقفًا عجيبًـــا، وَمِنَ الدين موقفا عدائيًّا، وَمِنَ الطب موقـــف الاســـتنكار والاعتـــراض، فيقولون: (فاعتزلوا النساء في المحيض) لم يرد بـــذلك تحـــريم العلاقـــة الخاصة بين الزوجين في مثل هذه الحال، وإِنَّما فقط هو يريد من الزوج أن يتجنب نقاشها، وأن يتحمل منها حِدتها، لأَنَّها في حالة نفسيَّة قريبة من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الاكتئاب، وفي حالة عصبيَّة متوترة، هذا ما يريده الله ولا شئ غير ذلك، ونحن قد فهمنا عنه كلامه ومراده فلماذا لم يفهم المسلمون ؟!

هذا كل ما في الزواج عند هؤلاء، مع إضافة يسيرة يقولون فيها للتاريخ وسلاحهم في أيديهم: أيّها التاريخ لا تنطق إلَّا بما نريد، ويقولون للمؤرخين وأصابعهم ممتدة إلى عيونهم: أيها المؤرخون لا تستعملوا مناهج التاريخ وأنصتوا إلى ما نقول: إنَّ النبي ﷺ لم يتزوج إلَّا بأربع من النساء، تزوج الأولى في ظروف عاديَّة، وتزوج الثانية والثالثة والرابعة، إما لأنَّه يربي أيتامهنَّ وخاف على نفسه ألَّا يعدل (ونعتذر إلى رسول الله ﷺ) بين الأيتام فتزوج بأمهم ليتحقق العدل بينهم، أو لأنَّه قد آوى بعض المشردات (ونستغفر الله ﷻ) ثُمَّ تبين له أن يتزوج بهنَّ.

قلتُ فيما مضى إِنَّ هؤلاء قد بلغت بهم الجرأة إلى حد أنَّهم اعتقدوا أنهم يخاطبون جماعة من الموتى أو يتحدثون في فضاء ليس فيه رجع للصدى .

المؤثرات في العلاقة الزوجيَّة :

رأينا العلاقة الزوجيَّة كما رسموها، فهل هذه العلاقة الزوجية يمكن أن يطرأ عليها ما يؤثر فيها ؟!

لا شك أَنَّ هذا عقد، ولكل عقد مؤثرات تؤثر فيه وعوارض تعرض له تنال منه نيلا جزئيًّا أو كليًّا .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن بين هذه المؤثرات في العقد.

أ ــ الطلاق :

والطلاق تعبيرٌ شرعيٌّ مدلوله: أَنَّ عقد الزوجية قد انتهى، وقد وضع الشارع الحكيم صلاحيَّة إنهاء العقد في يد الرجل وحده، فهو الأضبط لمشاعره، ومن هنا فإنَّه هو الأقدر على صيانة القرار من عبث الانفعالات وتيارات الهوى والعواطف.

وهناك لفظ شرعي محدد يعتمده الشارع لفصم هذه العلاقة، وهو كلمة: (الطلاق) يستعملها الرجل في هذا الغرض .

ولا يسمح علماء الأمة بعلاقة بين رجل وامرأة تكون علاقة محرمة مستورة بستار شرعيٍّ، وهناك من النفوس نفوس لا تضبط ولا تملك، فقد يوقع الرجل الطلاق على زوجته قاصدًا فراقها، ثم يعود فيقول: لقد كنتُ غاضبا فأوقعت الطلاق في غير وعيٍ ومن غير قصد.

وفي مثل هذا الموقف يمكن العبث بسائر العقود، فقد يبيع من لا عهد له أو يشتري أو يباشر عقدا ما من العقود في المال ونحوه، ثم إذا رأى مصلحة تعود عليه قال: ما بعت وما اشتريت وما باشرت عقدا من العقود، بل كنت مغيب الوعي مسلوب الإرادة، مضطرا فيما فعلت .

والطريقُ الذي يضمن السلوك المستقيم هو أَنْ يكون لكل عقد ألفاظه التي يستعملها الموكلان بطرفي العقد إيجابًا وقبولًا، سواء كان ذلك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في حالة إنشائه وإبرامه أو كان ذلك في حالة هدمه ونقضه في إطار ما حدد الشرع لذلك.

وقد يشترط العلماء لنقض عقد الزواج بالذات أَن يشهد من بيده حل عقدة النكاح عليه، إن أراد نقضه وحله .

وهذا كله لا بأس به ولا غبار عليه.

ولكن ما يقوله هؤلاء الذين أنكروا السنَّة في حل عقدة النكاح غريب على الساحة الإسلاميَّة .

ذلك لأنَّهم يشترطون لحل عقدة النكاح شرطين:

الشرط الأول: أَنْ يوقع الرجل على زوجته الطلاق بلفظه الصريح أو ما يقوم مقامه من الكنايات مع توافر النية .

الثاني: أَنْ تنقضي عدة الزوجة ثلاثة أشهر لمن كانت عدتها بالشهور أو ثلاثة قروء لمن كانت عدتها بالقرء، أو بوضع الحمل لمن كانت عدتها بالحمل.

وهؤلاء يذهبون بشكل جازم وقاطع إلى أَنَّ الرجل حين يوقع الطلاق على زوجته يبقى هذا القول منه في محل اللغو والعبث مدة بقاء العدة ولو قاله ألف مرة، وذلك أَنَّه ركن لابُدَّ أن ينضم إليه غيره، فإذا عاد الرجل في أثناء العدة، ارتفع قوله ولا أثر لِمَا قال، فإن بقي على

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

موقفه إلى أن تنتهي العدة وقع الطلاق، فإن أراد العودة عاد بعقد ومهر جديدين وحسبت عليه طلقة.

فإن عاد وطلقها تقول في طلاقه الثاني ما قالوه في طلاقه الأول، فإن كملت العدة وانتهى أجلها ، يفرق بينهما تفريقا نهائيًّا لا رجعة فيه، ولا يجوز أن يرتبطا بعد الطلقة الثانية إلَّا إذا تزوجت المطلقة بزوج آخر وطلقها وتفارقا بانتهاء العدة، يجوز لها في هذه الحال أن تعود إلى زوجها الأول، إذْ ليس للرجل إلَّا طلقتان بإمكانه أن يعود بعد الأولى من غير شرط، و ليس له أن يعود بعد الثانية إلَّا بشرط أن تنكح المرأة زوجا غيره .

وأنت كما ترى أَنَّهم يخالفون بذلك إجماع الأمة في إيقاع الطلاق، وفي عدد الطلقات على السواء، والأمر هنا خطير جدا لأنَّها أعراض وعلاقات تحلها كلمة وتحرمها أخرى .

وأدلتهم على تلك أمور عاطفيَّة وحماسة شباب، فهم حين يريدون أن يطلقوا للعلاقة بين الرجل والمرأة العنان تجدهم يقولون: إِنَّ المسلمين يتشددون في أحكامهم باعتماد لفظ الطلاق من الرجل، وهم بذلك يهدمون أسرًا و يشردون أطفالاً وغير ذلك من الأسباب الخطابيَّة الحماسيَّة، فإن أرادوا أَنْ يضيقوا على النَّاسِ ويحرموا على الزوجة أن تعود إلى زوجها بعد الطلقة الثانية مخالفين بذلك المفهوم من النص يقولون: هذا تشريع الله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذه هي تفصيلات القرآن، وأنتم لا تريدون أن تنصتوا إلى شريعة الله، ولا تحبون أن تستجيبوا إلى توجيهات القرآن.

عجبًا أَيُّها النَّاس من هؤلاء القوم، يتساهلون إلى حد التفريط في الأعراض مرة، ويستندون في ذلك إلى حماسة خطابيَّة، ويتشددون إلى حد هدم البيوت على رؤوس أصحابها مرة أخرى، ويستندون في ذلك إلى تهييج العاطفة الدينيَّة، وما كنا ندري قبل هذا اليوم أَنَّ الكلام يمكن أن يكون من الزئبق يتأثر بالحرارة والبرودة في تمدده وانكماشه .

ب ـ الظهار :

والظهار أَنْ يقول الرجل لزوجته: أنت على كظهر أمي، أي أنه قد حكم على العلاقة بينه وبين زوجته بالتحريم، وهي آثر من آثار العقد الذي لم ينقضه بعد.

والشرع يعتبر هذا القول منه كذبًا محضًا، فالعقد حين يبرم بين الزوجين بالطريق الشرعيَّة يكون من نتيجته أَنَّ الإفضاء بين الرجل والمرأة من الأمور التي أحلها الله، والذي يملك أن يحلل ويحرم في مثل هذا العقد هو الله وحده، والرجل حين حكم على آثار العقد الحلال بأنَّها محرمة يكون قد دخل في الكذب من أعلى درجاته، ويكون قد ادعى حقا في التشريع ليس له .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذه كلها أمور لها صلة بجوانب أخلاقيَّة ولا علاقة لها بالعقد إلَّا حين يكون هناك منع عن المرأة عقوبة للرجل.

وهذه المخالفة الأخلاقيَّة وضع الله لها جـزاء: عتـق رقبـة إن استطاع وإلَّا فصيام شهرين متتابعين، إنْ كان قـادرًا علـى ذلـك، وإلا فإطعام ستين مسكينًا، على أن توقع العقول عليه من قبل أن يتماسا .

هذا هو كلام الله وهو في غاية الوضوح .

ولكن القوم لا يرضيهم إلَّا أن يجعلوا مثل هذه المخالفات الأخلاقيَّة مِنَ الألفاظ الناقضة للعقود.

عجبًا وألف عجب، يتحمسون للأطفال ساعة فيريدون أن ينشـئوا لهم بيتًا هادئًا، ويهدمون البيت على رؤوس الجميع ساعات بغير مبرر.

لكنها شهوة المخالفة وكفى .

ج ـ الإيـــلاء :

في شريعة الإسلام حقوق تترتب على عقد الزوجيَّة ومنها: حـق استمتاع المرأة بالرجل، واستمتاع الرجل بالمرأة.

والرجل بإمكانه أن يتمتع عن زوجته بإرادته مدة يختارها، لكـن المرأة في مقابل ذلك لها حقوق شرعيَّة، فإن بلغ الرجل بتعسفه أن أمتنع عن زوجته أربعة أشهر، وكان مريدًا لذلك قاصدًا إليه فالله قد خَيَّرَ المرأة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في أن ترفع أمرها للقاضي ليخيره بدوره إِمَّا أن يرجع عن تعسفه، وإِمَّا أن يطلق عليه زوجته .

ولست أدري ماذا يريد القوم من هذا التشريع أيضًا، ضجة عاليـــة آثاروها وأنا في زحمة الضجيج لم أفهم ماذا يريدون .

د ــ حضانة الطفل :

مِنْ شأن الطفل أَنْ ينشأ بين أبوين، يوفر له أبوه أسباب المعــايش ومكانًا للإيواء، وتبثه أمه أهم مكونات شخصيته وعناصر الاتزان النفسي فيه .

فإذا ما وقع الانفصال بين الزوجين كلف الأب من جهة الشرع أن يوفر له المأوى هو وأمه، وأن يوفر لهما أسباب المعايش إن أرادت أمــه أن تحبس نفسها على تربيته، فذلك أفضل للولد في سنوات عمره الأولى.

ولكن القوم لا يريدون ذلك، وإنَّما يريدون أن يضموا الوليد إلـــى أبيه، وأن تكون الأم بالنسبة له أجيرة، تبيعهما العواطف كما تبيعهما اللبن الذي يرضعه الطفل ويتغذى به، ويسخرون من المسلمين فقهاء وعامـــة وصحابة وتابعين لأنهم درجوا على غير ذلك وقالوا: إِنَّ الطفــل يــذهب إلى أمه فهي به أَوْلى على نحو ما قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما ، ثُمَّ يقولــون : هذا اتجاه شاع في الأمة وهو خاطئ، والأب أَوْلى بابنه يأخذه فهو مكلف

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن يوفر له المأوى، ثُمَّ يقولون: وَإِنَّ إعطاء الابن لأبيه نوع من الضغط عليه حتى لا يجد مفرًّا أمامه، وملاذًا يلجأ إليه إلَّا أن يراجع زوجته .

ويفتخر مؤلفنا بأنَّه صنع تجربة من هذا النوع، وأشار على الأم أن ترمي بوليدها إلى أبيه، فلم يجد الأب ملجأ إليه بولده، فعاد إلى زوجته معتذراً فانتشى صاحبنا بتجربته(١).

أي رجوع هذا الذي يرجع فيه الزوج إلى زوجته وهو كاره، وأي سكن هذا الذي سيسود العلاقة الزوجيَّة إلَّا أن يكون سكنا يشبه سكن الجمر تحت التراب، وأي مودة بل أي رحمة تلك التي ترفرف على الحياة الزوجيَّة التي هذه صفتها، إلَّا أن تكون رحمة مصطنعة ومودة مزيفة كرحمة عبد الله بن أُبي بالمسلمين وكمودته هو وأقرانه للمؤمنين .

هكذا نرى هذه المنظومة في جانب آخر من جوانب الحياة وهو الجانب الذي يعالج الأحوال الشخصية، لا يخرج عن هذه السطور التي ذكرت لك، وقد أطلت في تصويرها، ولم يبق أمامنا إلَّا ثلاثة أشياء لتكتمل المنظومة بالكامل، وترسم أمامنا دينا خالصا يصلح لكل زمان ومكان.

أحدها: قصص الأنبياء أو قصص القرآن، وهذا أمرٌ لا تحتاجه منظومتنا على ما أظن.

---

(١) راجع البيان بالقرآن ص ٣٧١ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وثانيها: قاعدة الحلال والحرام في المطعومات وهذه قد نحتاج إلى الحديث حولها .

وثالثها: نسق الأخلاق وهم سيتحدثون فيه بعموميَّاتٍ مقصود إليها قصدًا لا تفرق دينًا من دين، بل ولا عُرفا من عرفٍ، وإنَّما تفتح جميع الأبواب بين الأعراف، كما نرفع جميع السدود بين الأديان لتجعل من ذلك كله مسخًا شائهًا لا لون له ولا طعم ولا رائحة.

٧ـ الحلال والحرام :

نحن لا نقصد بهذه الكلمة أو ضدها (الحلال والحرام) ما يفهم منهما على وجه الإطلاق، لأنَّ الكاتب يريد منهما المطعومات والمشروبات وما ورد من المحرمات من النساء .

ولم يجد الكاتب شيئًا ذا بالٍ في مجال المطعومات والمشروبات يذكره، لأنَّ القاعدة العامة في الإسلام هي أَنَّ جميع ما خلق الله على الأرض يصلح أكله أو شربه هو على أصل الإباحة إلَّا ما ورد الشرع بتحريمه .

وما ورد الشرع بتحريمه قسمان:

- أحدهما: مَا يكون حرامًا بذاته.

- وثانيهما: ما يكون حراما بوصف يلحقه .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما حرمه الشرع قد ورد به نَص صريح في القرآن الكريم، كما وردت به نصوص في السنَّة النبويَّة .

وأنت لا يخفي عليك أَنَّ مَا ورد الشرع بتحريمه في القرآن لا يحتاج منا ولا من منكري السنَّة إلى طول وقوف، اللهمَّ إلَّا إذا كان هناك شئ من التعسف في فهم نص من النصوص. وهذا كثيرا ما يحدث .

أَمَّا الخلاف الوارد كله فهو حول ما جاءت به السنَّة النبويَّة، وعنده يحدث غموض وارتباك، ويتعثر القوم تعثرا شديدا، وسأضرب لك مثلا واحدا لترى من خلاله هذا التعثر وتدرك هذا الارتباك، الكائنات الحية في البحر عذبًا كان أو مالحًا أباح القرآن الكريم أكلها، فنحن بنص القرآن قد أحل لنا صيد البحر وطعامه.

وكائنات البحر لا تتنفس بالرئتين كما تفعل كائنات البر، وإنَّما هي لها نظام في التنفس يخصها، خلقها الله عليه لتلائم بيئة معيشتها، كما خلقنا على نظام آخر في البر يناسب بيئة معيشتنا .

وكل منا إذا غير بيئته ودخل بيئة الآخر فقد حياته، فالسمك يموت في البر إذا خرج من الماء، ونحن نموت في الماء إذا دخلنا فيه، بديهة من البدهيَّات لا تحتاج إلى شرح أو تفصيل .

ولذا قد أخبرنا النبي ﷺ أَنَّ السمك حين ينفصل عن الماء بإرادة الإنسان أو بغير إرادة منه مات، وهو في هذه الحال حل للإنسان .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتعال بنا ننظر كيف يصنع الراغبون في شهوة الخلاف، إنَّهم يقولون: نحن نرد على النبي ﷺ قوله حين قال: (أحلت لنا ميتتان) فالسمك الميت ليس حِلاً لنا إذا خرج من الماء بإرادته أو رغما عنه، كأن يجف الماء أو يحدث الإنسان بداخله تفجيرا يترتب عليه موت الأسماك . أَمَّا إذا اصطاد الإنسان الأسماك بشباكه، أو أخرجها بيده فإنَّها تكون حِلا له.

ولسنا ندري الفرق في السمك بين الحالتين، هل نعتبر الحالة الثانية شرعيَّة لأنَّ السمك قد فارق الحياة بالذبح وقطع الحلقوم والمرئ والعرقين على صفحتي العنق، أم أننا سنعتبر أَنَّ السمك قد مات في الحالتين لأنَّه فارق بيئته التي تلائم حياته، هذا مثال يدلُّك على أَنَّ القوم يرتبكون حين يريدون أن يخالفوا سنَّة النبيِّ عليه الصلاة والسلام وهي إرادتهم الدائمة التي لا تنقطع .

وتستطيع أن تضيف إلى ما ذكرت لك هذه الكلاب الضالة أو المستأنسة ما حكمها ؟! أعني ما حكم أكل لحومها ، إنَّهم يقولون إنَّ القرآن الكريم لم يرد فيه نص واحد يحرم أكل الكلاب، ولذا فإن لحم الكلاب طعام شهي لمن يريدون أكله ولا إثم عليهم فيما يفعلون .

هذا معتقدهم، أمَّا نحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ونشهد أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النبيُّ ﷺ حق سواء كان قرآنًا يتلى أو سنَّة جاء به وحيًّا من ربه، فقالها قولا حفظه عنه أصحابه، أو مارسها فعلا

قلده فيه تابعوه، أو أقرها إقرارًا عَبَّرَ معه عن رضاه به والناس ينظرون، نشهد أنَّه قد جاء بذلك كله من ربِّهِ شهادةً نلقى الله عليها مؤمنين غير مفرطين ولا مضيعين .

وأراني الآن أعود بك على بدء وأذكرك بسؤالٍ طالَ الجوابُ عنه وهو: ماذا سيفعل منكرو السنَّة بذلك الفراغ الذي تركه استبعاد السنَّة على مساحة التشريع ؟!!

والقوم قد أرادوا أنْ يملأوا هذه المساحة بِمَا تعارف عليه النَّاس، أو بإعادة صياغة المنظومة الإسلاميَّة على ما يريدون، فانتهوا بعد هذا العناء كله إلى نتيجة محددة وهي أنهم قد ملأوا الفراغ بالفراغ، وقبضوا في أيديهم على الماء أو الهواء، وشددوا القبضة ظانين أَنَّ الهواء لا يتفلت وأَنَّ الماء لا يتسرب، وسوف يفتحون أيديهم يومًا فيجدونها صفرًا، وسوف يقدمون على الله يوما فلا يجدون إلَّا تحقيق هذا النص الكريم: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**﴾ [النور/ ٣٩-٤٠].

* * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الرابع

إنكار السنّة

إعتداءٌ علي

المناهج العلميّة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إِنَّ لكل عصرٍ مِنْ عصور العلم ميزة تميزه عن سائر العصور، وتحتفظ له بشخصيته من بين الشخصيات التي تظهر في كل عصر إن صح التعبير.

وإذا كان لهذا العصر الحديث من ميزة تفوق جميع المميزات، فإنني أرى أن ميزته تلك منحصرة في هذا المنهج الذي تَقَدَّمَ تقدمًا عظيمًا.

فإذا كان العلماء في الماضي يفخرون بمنطق أرسطو اليوناني، ويعتبرونه هو معيار العلوم، وهو المحرك لها والحاكم عليها في نفس الوقت، فإنَّهم في هذا الزمان يعتبرون أنفسهم قد تقدموا تقدمًا عظيمًا بغيرِ أَن ينتهجوا منطق أرسطو، ومن غير أن يكون لمنطق أرسطو حكم عليهم بنصر أو هزيمة أو مكسب أو خسران.

لقد أصبح منطق أرسطو إذن منهجا تاريخيًّا سلكه العلماء في وقت معين، واعتمدوا عليه في حقبة من الزمن طالبت أو قصرت، وإني لأحسب أَنَّه في هذه الحقب من التاريخ، أو في بعضها على الأقل قد ناله قدر من التقديس، وأضفي عليه نوع من المهابة الدينيَّة تمنع العلماء من الاقتراب منه، أو المساس به بقصد النقد أو التقييم، وهذه القداسة التي أضيفت على المنطق الأرسطي كانت قد وقعت ووراءها قصد مقصود،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قصد إليه هؤلاء العلماء قصدًا لحماية أغراض معينة، وتبرير أهواء قد جمحت بأصحابها .

وقد جاء الإسلام يدفع علماءه في معترك الحياة والكون جميعا ليكتشفوا من خلالهما قوانينهما التي تضبط ظواهرهما .

وما كان لهؤلاء العلماء أن يعتمدوا على هذا المنطق الأرسطي في حركتهم العلمية وهم يتعمقون فيما وراء الكون والحياة، فكانت لهم قوانينهم ونظمهم في مجالات العلم المختلفة.

وفيما يتعلق بجوانب العلم الماديّ والقوانين المستعملة فيه قد أحرز المسلمون نصرًا عظيمًا في هذا المجال قبل أن يأتي روجر بيكون بأزمنة طويلة .

ولقد انتقل هؤلاء المسلمون بمناهجهم إلى الأندلس وصقلية وغيرهما، فاقتربوا من أوربا أو اقتحموها وهي مَا تزال في عصور الظلام إلى الحَدِّ الذي جعل المفكر الفرنسي غوستاف ليبون يقول: " إنني كنت أتمنى أن يدخل المسلمون إلى فرنسا في عصر الظلام وأن يجتاحوا أرضها إلى أقصاها في العمق حتى ينالها من التقدم ما نال الأندلس التي انكشف عنها آثار عصور الظلام ".

تَقَدَّمَ المسلمون إذن في مناهجهم التي تتصل بالكون والحياة قبل روجر بيكون. ولقد قال بريفلت: " إِنَّ روجر بيكون قد عَلَّمَ أوربا المنهج

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العلمي السليم الذي قد تعلمه بدوره من أولئك النفر الذين تعلموا على يد أساتذته العرب في الأندلس ".

ولم يتقدم المسلمون في مناهج الكون والحياة فقط، ولكنهم أحرزوا كذلك تقدمًّا عظيمًا في المناهج التي تتصل بالعلوم الإنسانيَّة من نحو علمي التاريخ والاجتماع .

وما كان لبشر أن يوجه اللوم إلى العرب باعتبار أَنَّهم قد قصروا في منهج من المناهج التي تتصل بعلوم الكون، أو التي تتصل بعلوم الحياة، أو التي تتصل بالعلوم الإنسانيَّة، بل إِنَّ المنصفين من العلماء في كل عصرٍ يضعون شارة تقدير على صدر هذه الحقبة الإسلاميَّة من التاريخ تقديرًا لأصحابها، واعترافًا بفضلهم .

وَإِنَّ هذا لإجمالٌ يحتاج إلى بعض التفصيل، وليس الغرض هُنا أَنْ نتحدث عن هذه المناهج المتصلة بالكون والحياة وغير ذلك بمقدارِ مَا كان من الغرض أَنْ نتحدث فقط عن هذا المنهج التاريخي الذي اصطنعه علماء المسلمين، وليس في وقته نظير، ولم يوجه إليه حتَّى هذه اللحظة شئ من تعنيف، أو حتَّى شئ مِنْ ملام.

ونحن نحب هنا أَنْ ننبه إلى أَنَّ الحقائق العلميَّة منحصرة في اتجاهاتٍ ثلاثة :

أحدها: حقيقة علميَّة كونيَّة:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذه يستطيع العلماءُ التأكد منها باصطناع المنهج التجريبيّ بِمَا له من خطواتٍ محسوبةٍ ومدروسة يعْرفها أصحابها .

وثانيها: حقيقة علميَّة عقليَّة:

وهذا النوع من الحقائق يمكن للباحث أَنْ يصل إليه باصطناع المنهج التأمليِّ وما يحتاج إليه من أدوات علميَّة.

وثالثها: الحقائق العلميَّة التاريخيَّة:

والباحث يستطيع أَنْ يتأكد منه باصطناع المنهج التاريخيّ، وهو ذلك المنهج الذي يعتمد ضرورة على الراوي والباحث، إذْ أَنَّ مهمة الراوي هي نقل المعلومة عبر الأجيال، ومهمة الباحث فحص حال الراوي، وفحص ما جاء به مِنْ رواياتٍ.

تلك كلمات قلائل كان لابُدَّ مِنْ أن نسطرها هنا قبل أن ندخل إلى ما نريد الحديث عنه، لتكون أساسًا نعتمد عليه، وخطا أبيض نحازي عنده الأقدام والمناكب، قبل أَنْ ننطلق إلى مَا وراءه في بيداء ربما يريدها أصحابها بغير معالم .

والسنَّة النبويَّة المطهرة المحفوظة والمصونة لا تصنف بالطبع ضمن الحقائق الكونيَّة، كما أَنَّهَا لا تدخل ضمن الحقائق العقليَّة النظريَّة، وَإِنَّمَا هي تصنف ضمن حقائق التاريخ، وَمَا فيها مِنَ العلوم يُعَدُّ من بين العلوم التاريخيَّة، وعليه فَإِنَّه لا يجوز منطقيًّا أن نحكم على السنَّة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقضاياها بأحكامٍ بعيدة عن مجالها وإطارها اللذين ينبغي أن تصنف فيهما .

وهناك نقطة أخرى نحب أن نضيفها ونحن مازلنا عند الخط الأبيض نحازي عنده الأقدام والمناكب وهي: أَنَّ السنَّة النبويَّة واقع تاريخيٌّ معاش، وليست أمرًا من قبيل الافتراض الذي يثبته عقل وينفيه آخر حتَّى نحتكم إلى التجربة فيه .

وأنا قصدتُ أَنْ أُنبه إلى هذه الجزئيَّة بالذات لأنَّهَا قد وقع حولها المغالطات، فهناكَ مِنَ النَّاسِ مَن يقولُ: إِنَّ السنَّة النبويَّة كما يفعلها المسلمون أمر منكر وهو أمر لا يصدقه عقل.

وَمَنْ يقول ذلك: إِمَّا أَنْ يكون فاهمًا وواعيًا يفهم الأمور ويتعقل الأشياء وَإِمَّا أَلَّا يكون، فَإِنْ كانت الأخرى فلا حديث لنا معه، وإن كانت الأولى قُلنا: إِنَّه مِنَ الصعب جدًّا على العقل والحواس جميعا إنكار شئ له واقع تاريخي، إذْ الواقع التاريخيّ يدركه مَنْ يراه بأوائل الحواس، ولا يطلب على الإيمان به برهانًا، ثُمَّ يطبق جميع من رأوه على نقله بالتواتر إلى غيرهم .

فسنَّة النبيِّ ﷺ إذن على الجملة أمرٌ تاريخيٌّ واقع قد أدركته الحواس، ونقله التواتر عبر الأجيال .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَمَّا آحاد السنَّة: فَإِنَّه مِنَ الممكن أَن يتأتى فيها حـديث، وأن يقـع فيها مقال يحتاج للفصل فيه إلى منهجٍ دقيقٍ، وهو ما نعتزم بفضل الله أن نلقي عليه بعض الضوء ضمن هذا الفصل .

غير أننا لا نمل مِنَ التأكيد على أَنَّهُ يجب أَنْ نفرق بين السنَّة على الجملة وبين آحاد الرواياتِ على التفصيل، أَمَّا أن يكون النبي ﷺ له سنَّة بالمعنى الاصطلاحيّ فهذا أمر لا ينكره إلَّا صاحب هوى، أو عديم منهج، وَأَمَّا أن يكون هذا الحديث أو ذاك صحيح النسبة إلى النبي ﷺ فهذا مـا يحتاج إلى بصيرةٍ، وهذا ما يحتاج إلى منهجٍ علميٍّ دقيق يخضـع إليـه، شأنه شأن كل حدث تاريخي له واقع قد عاشه أناس ورآه بشر، وتأثر به بعض مخلوقات الله، ثُمَّ نُقِلَ إلينا عبر التاريخ .

وأنا أحب أَنْ أقولَ ههنا إِنَّ الذين تجرءوا على إِنْكار السـنَّة، أولا لم يعتمدوا على إقامة دليل واحد معتمد يثبت لهم هذا الإنكار، ويدعم لهم هذا الرفض، ثانيًا أَنَّهم حين عجزوا عَنْ أَنْ يأتوا بدليلٍ يثبت ما ذكـروه من إنكار السنَّة جملة، جنحوا إلى جزئيَّات وتفاصيل، ولجئوا إلى قضـايا في الأصول أو في الأخلاق جرى حولها الخلاف فآثاروها ولم يبذلوا فيها مجهودا يُذكر، بل كل ما فعلوه هو أَنَّهم قد اختاروا رأيًا شـاذاً مـن آراء عدة حول قضية معينة، ونقلوه بنصه، وبشبهه ومشاغباته، وزادوا علـى أصحاب هذا الرأى استنتاجا مؤداه: إذن السنة مرفوضـة جملـة، وهـم يوهمون القارئ أَنَّهم يصطنعون المنهج الاستقرائيّ، ويطبقونه على آحاد السنَّة، وهم ما فعلوا إلَّا ما قلت لك .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هل تحب أَنْ أضرب لك أمثلة مما ذكروه، وهل أنت متطلعٌ إلى ذلك متشوق إليه لتتصور حجم الاعتداء على المناهج؟ وهب أنت تستطيع أن تصبر على ما سأذكر لك مع ما فيه من اعتداء على العقل والفكر ؟!

أظن القضية تحتاج إلى أَنْ تحمل نفسك على الصبر وأنت تقرأ أو تسمع ما سأقص عليك، وأنا أظن أَنَّ الخطب الجلل يحتاج منك ومني معك أن نتأمل ما ذكروه، ونحن نصبر على مص الليمون حتى لا تفرغ المعدة محتواها اشمئزازاً مِمَّا قالوه .

١ـ الشفاعة :

إِنَّ من الأمور الجزئيَّة بل مِنْ أوائلها التي استمسك بها مَنْ يقولون أَنَّهم قرآنيون مسألة الشفاعة .

ولعلك ما زلت تذكر معي أَنَّ هؤلاء القوم يوهمون النَّاس أَنَّهم يصطنعون المنهج الاستقرائيّ، ويتتبعون الجزئيَّات في السنَّة، ويبينون فسادها وخطأها، ثُمَّ يستنتجون من الجزئيَّات التي استقرءوها نتيجةً عامة مؤدَّاها: أَنَّ السنَّة عملٌ شيطانيٌّ.

أظنك ما زلت تذكر ذلك، وتذكر معه من قراءتك الخاصة أَنَّ منهج الاستقراء لا يستقيم في مثل أو مثلين، ولا تكون نتائجه صادقة حين تعتمد على حالةٍ أو حالتين من تتبع الحالات الجزئيَّة، مهما كانت درجة الصدق في هاتين الحالتين، فما بالك حين يكون نتائج الاستقراء قد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بنيت على تتبع حالات قليلة، مَا من حالة منها إلَّا وهي احتماليَّة الدلالة على ما قصدوه منها، إنْ لم تكن قد حملت على هذه الدلالة حملا تعسفيا أراده أصحاب الهوى، وأرباب المصالح.

قضيَّة الشفاعة في القرآن والسنَّة من هذا القبيل .

ولقد وردت مادة الشفاعة في القرآن تتحدث عن يوم القيامة، وعن أحوال العصاة والكافرين في مواطن كثيرة، كلها تدل بالإيحاء والتصريح على أَنَّ هناك نوعًا مِنَ الشفاعة في الآخرة مختلف بالطبع عن أنواع الشفاعة الموجودة في الدنيا.

فهناك شفعاء يشفعون، لكنهم لا يتكلمون إلَّا مَنْ أذن له الرحمن ورضى له قولاً، فالشفيع هنا ليس من نوع الشفعاء في الدنيا، إذْ الشفيع في الدنيا يكون له نوع سلطان على من يشفع عنه، وهذا السلطان يمد بسبب إلى شئٍ ماديٍّ أو أدبيٍّ، يحمل المشفوع عنده إلى قبول شفاعة الشافعين .

أَمَّا الشفاعة عِند الله: فهي ليست مِنْ هذا القبيل، إذْ القوة في يوم القيامة لله جميعا، وكذا العظمة والكبرياء، وحين يأذن الله، والحالة هذه لبعض خلقه في الشفاعة لا يكون لذلك من معنى إلَّا أَنَّه يريد أن يبرز مكانته عند رَبِّهِ يوم تبيض فيه وجوه وتسود أخرى .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

على أَنَّ هؤلاء الشفعاء لا يشفعون لمن يريدون، وَإِنَّمَا يشفعون لأناسٍ ارتضى الله ﷻ أن يشفع لهم، وهم أولئك النفر الذين اختلط عندهم العمل الصالح بالعمل السيئ وقد وعد الله ﷻ أن لا يظلم الناس مثقال ذرة، كما وعدهم أَنَّ مَنْ كان له حسنة فإنَّ الله يضاعفها، والله لا يظلم مثقال ذرة. وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا .

على أَنَّ الله ﷻ لا يمكن من الشفاعة صنمًا أو حجرًا، أو أى شئ اتخذه النَّاس إلهاً يعبدونه من دون الله .

وعليه فإنَّ الكافر لا تنفعه شفاعة الشافعين ممن أذن له بالشفاعة، ولا تنفعه شفاعة آلهته التي اتخذها مِنْ دون الله ولجأ إليها حين رغب في إزالة الضر، أو طمع في تحقيق خير، لأنَّ هذه الآلهة غير مأمون لها في الشفاعة كما بانَ لكَ .

والقرآن الكريم يتحدث عن مبدأ الشفاعة، وَأَنَّه واقعٌ بإذن الله لمن أراد الله في آيات كثيرة منه .

ومن هذه الآيات ما ذكره الله ﷻ حيث قال: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾[البقرة/٢٥٥]، ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾[الأنبياء/٢٨]، ﴿**مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾[يونس/٣]. ﴿**لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾[مريم/٨٧]، ﴿**يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ**﴾[طه/١٠٩]، ﴿**يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾[سبأ/٢٣]، ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ**

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يدعون من دونه الشَّفاعة إِلَّا من شَهد بِالْحقِّ﴾ [الزخرف:٨٦]، **﴿وكم من ملك في السماوات لا تُغني شفاعتهم شيئاً إِلَّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرض﴾** [النجم/ ٢٦].

وأنت ترى أن هذه الآيات قد صرَّحت بوقوع الشفاعة في الآخرة في إطار هذه المبادئ الثلاثة وهي: أَنْ يأذن الله للشفيع في أنْ يشفع، وأن يعين له المشفوع له، وأن يكون ذلك من غير الكافرين الذين حبسهم القرآن في نار جهنَّم.

وحين تكون الشفاعة على هذا المستوى تكون منحة للشفيع من الله، وتكون منحة للمشفوع له من الله ، ويكون الله وحده هو الذي يملك الشفاعة دون سواه **﴿قُل لله الشَّفاعة جميعا له ملك السماوات والأَرض ثم إِليه ترجعون﴾** [الزمر/٤٤].

أَمَّا الكافرون مِنَ النَّاسِ وهم الذين حبسهم القرآن في نَار جهنَّم، فليس لهم عِنْد الله شفاعة، حيث لا يؤذن للشفعاء فيشفعوا لهم، وهم بالطبع لا تشفع لهم آلهتهم، فهم الذين قال الله فيهم وفي آلهتهم، وفي حرمانهم من الشفاعة: **﴿كُلُّ نفس بما كسبت رهينةٌ * إِلَّا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلِّين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشَّافعين﴾** [المدثر/ ٣٨-٤٨]. **﴿فما لنا من شافعين﴾** [الشعراء/١٠٠] ، **﴿ما للظالمين من حميم**

ولا شفيع يطاع﴾ [غافر/١٨]، ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ [الأعراف/٥٣]. ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين﴾ [الروم/١٣] ، ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ [الأنعام/٩٤].

هذه هي الشفاعة كما تَحَدَّثَ عنها القرآن الكريم، وأنت ترى أن ألفاظ القرآن واضحة الدلالة على مقصودها، وإن كانت لم تعين الشفيع والشفعاء، ولم يحدد أولئك النفر الذين سيأذن الله لهم فيشفعون، حيث ترك القرآن ذلك كله للسنَّة توضحه، وللنبيِّ ﷺ يتحدث فيه بعد أن يطلعه ربه عليه، لأنَّه من الغيب، والغيب سر مستور عند الله لا يعلمه إلَّا هو، ثُمَّ من أراد الله أن يطلعه عليه؛﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول﴾ [الجن/٢٦-٢٧].

وإذا أخبر النبي ﷺ عَنْ أولئك الذين يشفعون، وعن كيفية شفاعتهم، فإنَّه ليس لأحدٍ أن يماري في ذلك إلَّا إذا كان مجانفًا لإثم، أو متعمدًا لخطيئة .

ومن أوائل الشفعاء يوم القيامة: النبي ﷺ حسبما ورد في السنَّة تأكيد لذلك.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما ورد في السنَّة لم يروه البخاري وحده، وإنما رواه البخاري وغيره، ومنه حديث أنس رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ لمسلم، حيث روى بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّـهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجمع اللهُ النَّاس يوم القيامة فيهتمون لذلك (وقال ابن عبيد: فيلهمون لذلك) فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، قال فيأتون آدم عليه السلام فيقولون: أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك. اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول: لست هناكم[١] . فيذكر خطيئته التي أصاب. فيستحي ربه منها. ولكن ائتوا نوحًا. أول رسول بعثه الله. قال فيأتون نوحًا عليه السلام فيقول: لست هناكم. فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها. ولكن ائتوا إبراهيم صلى الله عليه وسلم الذي اتخذه الله خليلا، فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها. ولكن ائتوا موسى عليه السلام الذي كلمه الله وأعطاه التوراة. قال فيأتون موسى عليه السلام . فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها. ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناكم ولكن ائتوا محمدا عليه السلام. عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال : قال رسول الله عليه السلام : فيأتوني. فاستأذن على ربي فيؤذن لي: فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله : فيقال: يا محمد : ارفع رأسك. قل تسمع. سل تعطه. اشفع تشفع. فأرفع رأسي .

---

(١) معناه : لست أهلا لذلك .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي. ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة. ثم أعود فأقع ساجدا. فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد. قل تسمع سل تعطه. اشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه. ثم أشفع . فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة . (قال فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال) فأقول : يا رب : ما بقى في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود) (قال ابن عبيد في روايته : قال قتادة : أي وجب عليه الخلود)[1] .

وأنا إذْ أطالع هذا الحديث، وهو من أهم أحاديث الشفاعة أجد هذا الانسجام التام بين مدلوله وبين ما رسمه القرآن الكريم في موضوع الشفاعة وليس بينهما من فرق إلَّا أن يكون هذا الحديث قد فصل شيئا من التفصيل فيما ذكره القرآن مجملاً، وقد عَيَّنَ بعض الأسماء والمواقف حيث طواهما القرآن ولم ينص عليهما.

أَمَّا مَا عدا ذلك فإنَّك ترى الحديث يتحدث عن أمور نص عليها القرآن وبينها بيانًا لا سترة به .

فأنت تراه يبرز مكانة النبي محمد ﷺ بين إخوانه من النبيين، وهي مكانة قد منحها له ربه، فهو الذي يملك أن يفضل بعض الرسل

---

(١) مسلم كتاب الإيمان باب رقم ٨٤ حديث رقم ٣٢٢. والبخاري كتاب التوحيد باب رقم ٢٤ قول الله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) حديث رقم ٧٤٣٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على بعض؛ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة/٢٥٣].

والأنبياء يدركون هذا كله ويعونه، فكل منهم يقول: إنَّ ذلك ليس لي، ويحيلهم على من بعده إلى أن استقر الأمر عند خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام فكان ذلك له منحة من ربه.

وأنت ترى الحديث ينص على أَنَّ النبي ﷺ لم يكن مالكا للشفاعة، وإنما تتاح له بعد أن يأذن ربه، ومن أجل ذلك فإنَّه يقول: "استأذنت على ربي فأذن لي"، ثم هو يقع ساجدا لربه، ويثني عليه بما لا يعلمه في الدنيا، وإنَّما يعلمه ربه كلمات الثناء عليه، ثم إن ربه ليأذن له: "يا محمد ارفع رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع"، فيرفع رأسه ثم يحمد ربه بمحامد لا يعلمها في الدنيا، وإنَّما ربه يعلمها له، ويشفع النبي ﷺ فيشفع في الموقف والفصل بين العباد، ثم يحد له ربه حدا ، نعم : يحد له ربه حدا من الناس لأنه ليس لأحد أن يشفع في أحد إلا أن يأذن الله بذلك، ويحدد المشفوع فيه، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ثُمَّ يقع النبي ﷺ ساجدًا كما مر في الأولى مرتين بعدها أو ثلاثا، في كل مرة يحدد له ربه حدا من الناس يشفع فيهم، ثم يقول بعد آخر مرة: لتكن الثالثة أو الرابعة: أي ربي إنَّه لم يبق في النَّار إلَّا مَنْ حبسهم القرآن، وهم أولئك الذين حكم الله عليهم في قرآنه بالخلود في النار عياذا بالله من ذلك .

ما هذا الانسجام بين القرآن والسنَّة النبويَّة ؟!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما هذا التناغم الشديد بين مدلول هذا الحديث وبين مدلول آيات القرآن الكريم ؟!

وليس لنا أن نعجب، فإنَّ القرآن وحى الله المقروء المتعبد بتلاوته، والسنَّة وحى الله إلى نبيه الذي عبر عنه هذا النبي ﷺ بما منحه الله من سلامة النطق، وحسن التعبير والإصابة في القول.

وليس النبي ﷺ وحده هو المأذون له في الشفاعة، وإنَّما يأذن الله ﷻ للقرآن أو لبعض سوره فيشفع القرآن لقارئيه من العصاة فينقذهم من النار، حيث أخرج الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ، عَنْ النبيِّ ﷺ أَنَّه قالَ: " إنَّ سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك"[١].

وإذا كان الله ﷻ سيأذن للنبي ﷺ ويأذن للقرآن في الشفاعة يوم القيامة، فإنَّه كذلك يأذن للنبيين، ويأذن للمؤمنين، ويأذن للملائكة، وفوق ذلك كله يشفع الله ﷻ ويخرج من النار أُناسًا يعرفون بأنَّهم عتقاء الرحمن.

أخْرَجَ الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أبي سعيد الخدري ﷺ في حديث طويل، قال النبيُّ ﷺ فيه: "... ثُمَّ يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون : اللهمَّ: سلّم سلّم"، قيل: يا رسول الله: وَمَا

---
[١] مسند أحمد ٢/ ٢٩٩ / ٣٢١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجسر؟ قالَ : "دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يُقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنَّم حتَّى إذا خلص المؤمنون من النَّارِ، فوالذي نفسي بيده، أَما منكم من أحد بأشد منا شدة لله، في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النَّار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون. فيُقال لهم: أخرجوا مَنْ عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النَّار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثُمَّ يقولون: ربنا! ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول: ارجعوا فَمَنْ وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا. ثُمَّ يقولونَ: ربنا! لم نذر فيها أحدًا مِمَّنْ أمرتنا، ثُمَّ يقول: ارجعوا، فَمَنْ وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه.. فيخرجون خلقًا كثيرًا. ثُمَّ يقولون: ربنا! لم نذر فيها مِمَّنْ أمرتنا أحدًا. ثُمَّ يقول: ارْجعوا فَمَنْ وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا. ثُمَّ يقولون: ربنا! لم نذر فيها خيرًا".

قالَ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: إِنْ شئتم فاقرأوا قول الله تعالى: ﴿**إِن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما**﴾[1] .

---

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان باب رقم ٨١ حديث رقم ٣٠٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهكذا تتوارد الروايات في السنَّة النبويَّة تحكي عن الشفاعة إلى آخر رجل يخرج من النار، وآخر رجل يدخل الجَنَّة، وربنا يجلي عظمة قدرته، ويفتح للناس أبواب رحمته، ويكشف عن طباع بني آدم في طمعهم في الله الذي لا يردهم عن شئ يطمعون فيه.

ويا ليت الناس يقدرون الله حق قدره!

وتلك رواية من الرواياتِ أبانت عن نفسها بغاية الجلاءِ.

أخرج مسلم عَنْ عبد الله بن مسعود ﵁ ولرواياته نظائر في البخاري واللفظ هنا لمسلم، أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: "آخرُ مَنْ يدخل الجنَّة رجل. فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين. فترفع له شجرة. فيقول: أي رب إدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله ﷻ: يا ابن آدم، لعلي إنْ أعطيتكها سألتني غيرها فيقول: لا يا ربِّ! ويعاهده أَنْ لا يسأله غيرها، وربه يعذره، لأَنَّهُ يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثُمَّ ترفع لها شجرة هي أحسن من الأولى. فيقول: أي ربِّ! ادنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟! فيقول: لعلي إنْ أدنيتك منها تسألني غيرها؟! فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره، لأَنَّهُ يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها، فيستظل بظلها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويشرب من مائها، ثُمَّ ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين، فيقول: أي ربِّ! أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم! ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟! قال: بلى يا ربِّ! هذه لا أسألك غيرها، ورَبُّه يعذره لأنَّه يرى مَا لَا صبر له عليها، فيدنيه منها فإذا أدناه منها، فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي ربِّ! أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم! ما يصريني منك ؟! أيرضيك أَنْ أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟! قال: يا رَبِّ! أتستهزئ مني وأنت رَبُّ العالمين".

فضحك ابن مسعود رضي الله عنه فقال: ألا تسألونني مِمَّ أضحك؟ فقالوا: مِمَّ تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ. فقالوا : مما تضحك يا رسول الله؟ قَالَ: مِنْ ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رَبُّ العالمين؟ فيقولُ: "إنّي لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر"[(١)].

هكذا وردت الأحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ تتحدث عن الشفاعة، وهي منسجمة غاية الانسجام مع مَا جَاءَ بِهِ القرآن، اخترتُ نماذج منها هي أقربها إلى نَقْدِ هؤلاء واعتراضاتهم وأكثرها إثارةً لمشاعر منكري السنَّة وانتهاضًا لهمَمِهم.

وكان بودي لو أستزيد في هذا المجال من نصوص وردت وهي صحيحة النسبة إلى النبي ﷺ، ولم يمنعني مِنْ ذلك إلَّا احترام المنهج

---

(١) مسلم كتاب الإيمان باب رقم ٨٣ حديث رقم ٣١٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العلميّ الذي لم يحترمه منكرو السنَّة، إِذْ لو سرتُ خلف النصوص على ما أحب ويحب المؤمنون بنبيهم ﷺ لأدَّى ذلك بِنَا إلى معالجة موضوع مستقل عن الشفاعة في نفس المساحة التي خصصناها للشفاعة باعتبارها مثالاً من أمثلة نادرة ساقها منكرو السنة كمقدمة للهجوم على سنَّةِ النبيِّ ﷺ جملة.

وَمَا أريد أَنْ أخالف هؤلاء إلى ما أنهاهم عنه، ولذا سأحجم عن الاسترسال في القول لأعود إلى الحديث مع منكري الشفاعة وغايتهم من هذا الإنكار.

والذين أنكروا الشفاعة يمكن تقسيمهم إلى فريقين، ونحن نتناول الفريقين جميعًا لتسهل مناقشة كل فريق على حدة، إذْ الفريقان يختلفان في الوسائل والغايات، ويختلفان في الأسس والمبادئ، هما على أَيَّةِ حال لا يتفقان إلَّا في شئ واحد وهو أَنَّ كُلا منهما ينكر الشفاعة .

أَمَّا الفريق الأول فهم جمهور المعتزلة:

وجمهور المعتزلة حين ينكرون الشفاعة لم يصدروا جميعًا عَنْ منزعٍ واحدٍ، وإنَّما كان للبصريين منزعهم، وكان للكعبيّ منزعه.

أَمَّا البصريون فكانوا يرون أَنَّ العاصي يجوز عقلاً أَنْ يعفو الله عنه بوسيلةٍ أو بأخرى أو بغير وسيلة أصلاً، وإنَّ هذا العفو عن العاصي ليس جائزًا في العقول فقط، بل هو حسن فيها، ذلك أَنَّ معاقبة العصاة في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حق الله ﷻ بخلاف إثابة الطائعين، إذْ إِنَّ الثواب لمن أطاع حق للعبد في مقابلة طاعته .

ولَمَّا كان عقاب العاصي حقا لله كان لله أن يتنازل عن حقه، وتحكم العقول على هذا التنازل بأنَّهُ مِنْ قبيل الحسن مِنَ الأفعال.

وعليه، فَإِنَّ البصريين يذهبون إلى أَنَّ الثواب للعاصين يحسن في العقول، غير أَنَّ الشرع قد منع ذلك من خلال نصوصه .

ومن هنا فإنَّ مَنْ يدّعي أَنَّ إثابة العاص عملٌ قبيحٌ في العقل مستندًا إلى رأى البصريين يكون قد أخطأ في الحكم، ويكون قد أخطأ في استيعاب مذهب البصريين.

أَمَّا الكعبيّ مِنَ المعتزلة فهو الذي يرى أَنَّ إثابة العاصين عمل قبيح في العقل، وهو مستحيل على الله إذْ يلزم مِنْ ذلكَ التسوية بين من أطاع في الدنيا، وَمَنْ عصى.

وكلامُ الكعبي غير مقبولٍ، ولا معقول لأمرين:

أَمَّا أحدهما: فَإِنَّ إثابة العاصي وعقابه راجعان لله، إِذْ أَنَّ عقوبة العاصي حق لله وحده، وله أن يتنازل عنه كما مر، والعقول تستحسن ذلك وترضاه .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَأَمَّا ثانيهما: فلأن مَنْ يمنع المساواة بين من أطاع ومن عصى في الدنيا لا نفهم كلامه، إِذْ مِنْ حقنا أن نسأله عن هذه المساواة التي يستقبحها بين من عصى ومن أطاع، أهي على إطلاقها، أم هي في شئ دون شئ ، فإن كانت على إطلاقها: فما هذا الذي نراه يتساوى فيه من أساء ومن أحسن من نحو الرزق والسعي في الأرض وإطلاق الإرادات إلى آخره.

وإِنْ كان في شيءٍ دون شئ فيكفي أَنَّ العاصين قد عانوا معاناة شديدة من الفزع الأكبر، ودخول النَّار فتة معينة، ولم يقع مثل ذلك للطائعين، ثُمَّ يتساوى الفريقان بعد ذلك في الثواب وما يمنحه الله للناس من أبواب رحمته .

هذا هو كلام المعتزلة، وقد رَدَّ بعضهم كلام بعض كما ترى، ولم يبق أمامنا إِلَّا مَا قاله البصريون مِنْ أَنَّ الشرع يمنع من إثابة العاصي أو حتَّى يمنعه مِنَ الخروج مِنَ النَّار.

وتلك مسألةٌ قد ثبت أَنَّ الشرع دَلَّ عليها وإلَّا فقل لي بربك: ما فائدة هذا الاستثناء الذي ورد كثيرًا في آيات الشفاعة التي سقتُها لك ومن أوائلها ما جاء في آية الكرسي ﴿**من ذا الذي يشفع عِنده إِلَّا بِإذنه**﴾، وما الضرورة التي ألجأت مثل القفال مع دقة أسلوبه إلى القول بِأَنَّ هذا الاستثناء لم يقع ؟!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولقد أجاب الفخر الرازي على هذا السؤال الأخير فبيَّنَ أَنَّ القفال شديد الاعتزاز بأسلوب المعتزلة على غيرٍ وعىً منه بأصولهم، فهو يقول عند شرح قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلَّا بإذنه﴾ (المسألة الثانية قال القفال: إِنَّه تعالى لا يأذن في الشفاعة لغير المطيعين، وإذ كان لا يجوز في حكمته التسوية بين أهل الطاعة وأهل المعصية، وطوّلَ في تقريره، وأقول: إِنَّ هذا القفال عظيم الرغبة في الاعتزال حسن الاعتقاد في كلماتهم، ومع ذلك فقد كان قليل الإحاطة بأصولهم ...... وأعلم أَنَّ القفال رحمه الله كان حسن الكلام في التفسير، دقيق النظر في تأويلات الألفاظ، إِلَّا أنَّه كان عظيم المبالغة في تقرير مذهب المعتزلة، مع أَنَّه كان قليل الحظ من علم الكلام، قليل النصيب من معرفة كلام المعتزلة)[١].

وكلام الكعبي مِنَ المعتزلة برغم أَنَّه مردودٌ مِنْ إخوانه البصريين وهم مِنَ المعتزلة كذلك، ودعوى معتزلة البصرة من أَنَّ الشرع الحكيم قد منع الشفاعة للعصاة برغم أَنَّه قولٌ بلا دليل، بل الدليل القائم على ضده، برغم هذا كله فإنَّ مذهب الاعتزال بما انتهى إليه من نتائج تمنع الشفاعة للعصاة يوم القيامة قد تأثر به بعض المحدثين من المفسرين، ونقله مزهوًّا بِهِ مِنْ غير تقريرٍ أو بسط .

---

(١) مفاتيح الغيب ـ للفخر الرازي ، ج ٣ ص ٥٤٤ ، ٥٤٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يقولُ صاحب تفسير المنار عند قوله تعالى:﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ : (وليس هذا الاستثناء نصًا في أَنَّ الإذن سيقع، وإنَّما هو كَقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فهو تمثيلٌ لانفراده بالسلطان والملك في ذلك اليوم، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

ويبدو أَنَّ صاحب المنار قد أُعجِبَ بعبارات المعتزلة أولاً، ثُمَّ مَالَ بعد ذلك إلى تأكيد أَنَّ الشفاعة بالمعنى المعروف عند البشر مستحيلٌ على الله ﷻ.

وهذا أمرٌ لا ننكره، ولا ينكره أحدٌ مِنَ المسلمين، ذَلِكَ أَنَّ الشفاعة بالمعنى المعروف لا تخلو من نقصٍ في المشفوع عنده، فهو إن كان عادلاً فالشفاعة عنده لا تعني إلَّا أن الشفيع يمده بمزيد علم في الموضوع محل الشفاعة، ويترتب عليه أَنَّ المشفوع عنده يغير رأيه بسبب ما اتضح له من الأمر في المسألة التي هو بصددها.

وإن كان المشفوع عنده غير عادل، فإنَّ الشفيع يعد من حوارييه الذين يجلبون له المنفعة الدنيويَّة، ويحققون له هواه، وهو لذلك يخضع لهم ليرضيهم.

وفي كلتا الحالتين لا تخلو الشفاعة الدنيويَّة المعهودة عندنا من نقص يلحق المشفوع عنده .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذا أمرٌ يستحيل مثله على الله ﷻ، ونحن نوافق صاحب المنار فيما قرَّرَهُ، بل ويوافقه سائر المسلمين، وقد انتهى إلى هذه النتيجة التي ننقلها عنه بكلماته قال : (أجمع كل من أهل السنة والمعتزلة وسائر فرق المسلمين على كمال علم الله تعالى وإحاطته، وذلك يستلزم استحالة الشفاعة عنده بالمعنى المعهود ـ كما سبق القول ـ وقلنا هناك: إِنَّ مثل هذا الاستثناء ورد في القرآن لتأكيد النفي، وبذلك نجمع بين الآيات التي تنفي الشفاعة بدون الاستثناء وبين هذه، وقلنا: إِنَّ مَا وَرَدَ في الحديث يأتي فيه الخلاف بين السلف والخلف في المتشابهات، فنفوض معنى ذلك إليه تعالى أو نحمله على الدعاء الذي يفعل الله تعالى عقبه ما سبق في علمه الأزلي أَنْ سيفعله مع القطع بأنَّ الشافع لم يغير شيئًا مِنْ علمه ولم يحدث تأثيرًا مَا في إرادته تعالى، وبذلك تظهر كرامة الله لعبده بما أوقع الفعل عقب دعائه) .

هذا هو كلام الرجل فيما انتهى إليه، وهو كلام طيب، لكنه يوهم أن الرجل يخالف الأمة فيما ذهبت إليه وهو ليس كذلك فيما أرى، ومن ناحية أخرى فإنَّ أول كلام الرجل يخالف آخره، فهو بدأ متحمسًا بنفي الاستثناء، وقد توسط كلامه ما يفيد التفويض في المسألة، وانتهى في النهاية إلى تأويل الشفاعة في القرآن وحملها على معنى الدعاء الذي لا يغير شيئًا في علم الله، وَإِنْ كانت إجابة الدعاء من الشفيع أو الداعي على مقتضى علم الله مؤكدة ومبرزة لمكانة الشفيع عند الله .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كنتُ أود أَنْ يسير الشيخ رشيد رضا رحمه الله مع أستاذه حيث سار مَا دامت النتيجة واحدة، ويسلك مع شيخه نفس المسلك، ويرتضي من إمامه عباراته، فهي أكثر وضوحًا في الدلالة على المقصود .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله تعليقًا على الآية نفسها من سورة البقرة: (قالوا إِنَّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ واقع. وهو أَنَّ نبينا عليه الصلاة والسلام يشفع في فصل القضاء فيفتح باب الشفاعة فيدخل فيه غيره من الشفعاء كالأنبياء والأصفياء كما ثبت في الأحاديث، وهي مسألة أنكرها المعتزلة وأثبتها أهل السنة، والله تعالى يأذن لمن يشاء ويطلع على علمه باستحقاق الشفاعة من يشاء، كما علم من الاستثناء)[(١)] .

ومهما كان من أمر فهذا هو القسم الأول مِنْ قسمين قد ذهب كل منهما إلى إنكار شفاعة الشافعين يوم القيامة .

وَأَمَّا الفريق الثاني من هذين الفريقين فهم الحداثيونَ والعلمانيونَ وأذنابهم الذين يُحاولون بكل سبيلٍ إنكار السنَّة وادّعاء أَنَّ مثل هذه الأحاديث مجرد خرافاتٍ وأهواء وموضوعات، وهو فريقٌ يصعب علينا تصنيفه، كما يصعب علينا أَنْ نكتشف انتماءه، ونحن فيما نرى لا يجب علينا أن نبحث لغير المنتمي على طائفة ينتمي إليها، كما أَنَّه لا يجب علينا أن نخلق أساسًا فكريًّا لجماعةٍ من البشر ارْتضوا لأنفسهم أن

(١) تفسير المنار ج ٣ ص ٢٦ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يسيروا في الحياة بغير منهج، وأن يلبسوا علــى النَّــاس أمــور دنيــاهم وأخراهم.

لا يجبُ علينا أنْ نبحث لغير منتمٍ عن طائفة ينتمي إليهــا، ولا أَنْ نبحث لفاقد الهويّة عن هويّة تمكنه من الوصف العنوانيّ الــذي يســتظل بظله .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا سنعرض لرأى هذه الفرقة من غير أَنْ نصنفها أو نحدد انتماءها .

لكن الأمر الذي ينبغي أن ننبه إليْه هو أَنَّ هؤلاء لا يتخذون مــن نفي الشفاعة موضوعًا برأسه يبحثون عن مكمن الحق فيه، وإنَّمــا هــم يتخذون من إنكار الشفاعة وسيلة لإنكار السنَّة على وجه الجملــة، وهــو هدفٌ لا نستنتجه من كلامهم استنتاجًا، وإِنَّمَا هم قد صَرَّحوا به تصــريحًا لا يحتاج معه إلى التنبيه، كما مرَّ بكِ سلفًا ..

وهذه القضية مهما طال الصياح فيها مِنْ قِبَلِ أولئك المعارضــين فإنَّ صياحهم يدور حول أصلٍ واحد لم يفقهوه وهو أَنَّ القرآن قد صَــنَّفَ النَّاس يوم القيامة صنفين: مؤمن وكافر، وأحدهما في الجنة والآخر فــي السعير، وهم يظنون أَنَّ القرآن مِلْكٌ لهم وحدهم يفهمون فيه كما يشاءون.

وهذا أمرٌ مِنَ الهذيان لم يعد يشغل لنا بالًا .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما أَنْ يكون القرآن الكريم قد قسم النَّاس إلى مؤمن وكافر فحسب، وأَنَّ عصاة المؤمنين كفرة مخلدون في النَّار، فهذا أمر يأباهُ القرآن، ويأباهُ العقل، وترفضه العدالة.

أَمَّا أَنَّ القرآن يأباهُ فإِنَّ الله ﷻ قد صَرَّحَ بِأَنَّه لا يقبل الظلم ولا يجوز له أن يتصف به، وَمَنْ عمل عملا صالحا وآخر سيئا على أساس من إيمان سليم، فإِنَّ الله ﷻ لو ضمه إلى معسكر الكافرين لكان في ذلك ظلم ، تعالي الله عَن ذلكَ علوًّا كبيرًا.

وهذا لا يجوز على الله، والعقل نفسه يرفضه ويأباهُ، إذْ هو عمل في العقل قبيح، والقبيح لا يجوز أَنْ يكونَ وصفًا لله ﷻ لأَنَّه منافٍ للعقل والذوق جميعًا.

وآيات القرآن قد نَصَّتْ على أَنَّ الله لا يظلم أحدًا، ولا قلامة ظفر، بل ولا أقل مِنْ ذَلِكَ، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾[النساء/٤٠]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[يونس/٤٤].

والمتأمل في الآية الثانية يجدُ أَنَّ الله قد نفى عَنْ نفسه الظلم بجميع صوره ومقاديرِهِ. أَمَّا مَنْ يتأمل الآية الأولى فإِنَّه يجدها مرتبطة بما قبلها ارتباطًا عظيمًا، وما قبلها هو: ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا**﴾[النساء/٣٩].

وقد رَتَّبَ اللهُ ﷻ على صحة العقيدة التي ينبثق عنها العمل أمورًا ثلاثة:

أحدها: أَنَّ الله لا يظلم الناس شيئًا، ولو كان مثقال ذرة، ولو أَنَّهم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فإنَّ الله بحسب وعده لا يضيع عمل عاملٍ منهم بسبب عصيانه، ولو كان العصيان كالكفر يبطل العمل لنص عليه هنا كما نَصَّ في مواطن أخرى على أَنَّ الكفر يفسد العمل، ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[النور/٣٩].

ثانيها: أَنَّ الله ﷻ قد بَيَّنَ أَنَّه إذا كان المؤمن الذي صحت عقيدته قد خَلَّفَ وراءه حسنة من الحسنات، فَإِنَّ الله يعطيه أجرها ويضاعف له هذا الأجر من جنسه أضعافًا كثيرة بغير حدود، لأنَّ الكريم إذا أخفى وَفَّى.

وقد فرح المسلمون بهذا الوعد فرحًا شديدًا أكثر مِنْ فرحهم بِأَنَّ الحسنة تضاعف إلى عشرة أضعاف أو سبعين ضعفا أو سبعمائة ضعف.

ثالثها: أَنَّ الله ﷻ قد وعد مَنْ صحت عقيدتهم وعملوا عملا صالحا بِأَنَّه سوف يعطيهم فوق أجورهم عطاء غير منقطع ولا محدود، وصفه الله ﷻ بالعظيم، وَأَنَّه صادر عنه ومن عنده ﷻ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

آية من القرآن واحدة تشتمل على هذه الأضرب من الوعد، فمَنْ ذَا الذي يستطيع أن يغير في معناها بدعوى تصدر عنه بغير دليل، أو بادِّعَاءٍ كاذب لا سند له مِنْ عقل، ولا تأييدَ لَهُ من منطقٍ.

القرآن الكريم إذن ينسجم مع العقل، وهو يتحدث عن أصناف النَّاسِ يوم القيامة، فريقٌ في الجَنَّةِ وفريقٌ في السعير، وفريق عصوا وهم ليسوا بمعصومين بالطبع فيهيئُ الله لهم الدخول إلى الجنَّة بعد أن يخرجهم من النَّار بشفاعة مَنْ أراد أَنْ يُظهر الله كرامته.

أَمَّا دعوى أَنَّ الناس ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما، فمثلها يوقعنا في حرجٍ عقديٍّ لا مخرج لنا منه من نحو نسبة الظلم إلى الله وحاشاه .

ولقد كنتُ حريصًا الحرص كله على أن تكون النماذج التي اخترتها لك من بين مَا وردَ عَنْ النبي ﷺ هي نفسها التي تعرضت لسهام التجريح من منكري السنَّة . وإليْكَ بعض عباراتهم:

كَتَبَ أحدهم عن أحاديث الشفاعة قائلاً: (ينسب البخاريُّ للرسولِ ﷺ قوله: "يدخل أهل الجنَّة الجنَّة وأهل النَّار النَّارَ ثُمَّ يقول الله تعالى: أخْرجوا مَنْ كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنت الحبة في جانب السيل" ، ومعنى هذا القول أن من يقل إيمانه إلى درجة حبة الخردل يخرج من النار).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نعم، إِنَّ الذي يقل إيمانه إلى مقدار حبة الخردل يخرج من النَّـــارِ ويدخل الجنَّة، بل إِنَّ مَنْ يقل إيمانه إلى مثقال الذرة يدخل الجنَّة شــريطةَ أَنْ يكون الإيمان صحيحًا معتبرًا على نحو ما نصت عليه آيتـــا النســـاء، واللتان قد ذكر راوي الحديث ﷺ إحداهما في حديثه.

أَمَّا إيمان المنافقين وإيمان اليهود وغيرهما فهو إيمانٌ غير معتبر.

ثُمَّ يقولُ: (ويروي البخاري حديثًا آخر يدّعي أَنَّ النبي ﷺ قـــالَ: "يخرجُ مِنَ النَّار مَنْ قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة مِنْ خيـــرٍ، ويخرج مِنَ النَّار مَنْ قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بـــرة مِـــنْ خيـــرٍ، ويخرج مِنَ النَّار مَنْ قال لا إله إلا الله وفي قلبه ذرة مِنْ خيرٍ" . ومعنـــاهُ أَنَّ الخروج مِنَ النَّار يستلزم مجرد النطق بلا إله إلَّا الله مع أقل كمية من الخير في القلب).

وَمَنْ قَالَ بأَنَّ مجرد النطق بلا إله إلا الله كافٍ ، إِنَّ لا إله إلا الله هي شهادة التوحيد، والشهادة لا تكون إلَّا عن يقين فـــي القلـــب يصـــدقه عمل، ولو كان العمل قليلاً فهل تكون قلته مبررًا لنسبة الظلم إلى الله ﷻ، حَاشَاهُ جل جلاله ؟!

وَأَيْنَ نذهبُ بـــ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾.

ثُمَّ يقول : (ويروي البخاريُّ أحاديثًا أخرى مطولة في الخـــروج مِنَ النَّار يُصور فيها رب العزة ﷻ كآلهة الإغريق يتنـــدر مـــع الخلـــق

ويضحك عليهم، منها حديث: "إني لأعلم آخر أهل النَّار خروجًا منها وآخر أهل الجنَّة دخولاً: رجل يخرج مِنَ النَّار كبوًا فيقول الله: اذهب فادخل الجنَّة فيخيل إليه أَنَّها ملآى فيرجع فيقول: يَا رَبِّ! وجدتها ملأى فيقول اذْهب فادخل الجنَّة فَإِنَّ لَكَ مثل الدنيا وعشرة أمثالها فيقول: تسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك ؟!"، ويروي البخاريُّ صيغةً أخرى لذلك الحديث: "إِنَّ آخر أهل الجنَّة دخولا وآخر أهل النَّار خروجًا من النَّار رجلٌ يخرج حبوًا فيقول له رَبُّه: أدْخل الجنَّة، فيقولُ: رَبِّ! الجنَّة ملأى، فيقول له ذلك ثلاث مرات، فكل ذلك يعيد عليه: الجنَّة ملآى، فيقول: إِنَّ لك مثل الدنيا عشر مرات"، وتستمر الرواية تزعم أَنَّ هناك محادثات مطولة جرت بين الله وبين ذلك الرجل الذي يدخل الجنة أخيراً. يقول البخاري في آخر روايته: "فيقول يا رَبِّ! لا تجعلني أشقى خلقك فلا يزال يدعو حتى يضحك الله ﷻ منه ثُمَّ يأذن له في دخول الجنَّة..") .

وأنا أعجب العجب كله وأنا أقرأ هذا الكلام، وأسأل نفسي: مَنْ يقول هذا الكلام أو يكتبه هل سبق له مرة أن فتح كتاباً علميًّا يقرأ فيه، وهل ساقته المقادير مرة إلى مجلس علمٍ يسمع من رجاله ؟!

إِنَّ كل الدلائل تقول: إِنَّه – وأمثاله – قد حُرم من ذلك حرماناً كاملاً، فالرجل لا قدرة عنده على اصطناع المناهج، ولا صبر عنده على مطالعة الكتب ولا طاقة لديه على سبر أغوار الأشياء.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حديثٌ موجودٌ في جميع الكتب تقريباً التي تشتغل بالسنَّة، والتي لا يعرف منها إلَّا البخاري وكتابه، البخاريّ الذي ملئ قلبه عليه حقداً، وامتلأت نفسه عليه غماً وحسداً، وأكاد أشك في أَنَّه يعلم مكان هذا الحديث من صحيح البخاري، ولو علم مكانه لنقله بألفاظه، ولو كان يجيد مطالعة كتب السنَّة، لعلمَ أَنَّ الله ﷻ قد أجاب هذا الذي سأله بقوله: لا أسخر منك، وإنما أريك قُدرتي، فإني على مَا أشاء قادر ﷻ.

وهذا كل ما قاله في أحاديث الشفاعة، ثم يقول مُعقباً: (والرد على ذلك كله سهلٌ ميسور)..

ثُمَّ ركز على أَنَّ النبيَّ ﷺ لا يعلم الغيب فمن الذي أنبأه ؟!

نعم، هو ﷺ لا يعلم الغيب، ولكن عالم الغيب قد وعد أَنَّهُ سينبئه وينبئ إخوانه من الأنبياء ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ**﴾[الجن/٢٦].

وهذه قضايا كلها جزئيَّة لا تشغله ولا تُشغل أمثاله، ولذا فإن كل مَنْ كتبَ في ردِّ الشفاعة، سرعان ما ينتقل إلى النتيجة التي يريدها ولا يخفيها، وهي نتيجة أسيرة إلى قلبوهم يُحبوها ويبتغوها، وتلك هي: رَدُّ سُنَّة النبيِّ ﷺ جملة والتخلص منها كليتها وتفاصيلها .

قال: (... فقد ظهر مِمَّا سبق أَنَّ حقيقة الإسلام التي يقررها القرآن تختلف تماماً عَمَّا كتبه الأسلاف ويعتقده جمهور المسلمين.. ولو أجمع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البشر على شئ يخالف كلام الله، فالله هو وحده الصادق، ومن أصدق من الله قيلا ؟؟، ومن أصدق من الله حديثاً ؟! .. والمفجع أَنَّ ما يهتم به المسلمون اليوم ليس تنقية عقائدهم من الأحاديث الضالة التي تحارب الله ورسوله، وإِنَّما يهتمون بالدعوة إلى تطبيق شريعة مستمدة من تلك الأحاديث الضالة نفسها، والعقل السليم يقرر أَنَّ البداية المثلى تكون بشرح عقائد الإسلام الحقيقيَّة في القرآن بالحكمة والموعظة الحسنة وبعدها يكون التطبيق الفعليّ للشريعة المستمدة من كتاب الله وحده..) .

مرَّ بِكَ سلفًا أنّي قلتٌ لك: إِنَّ القوم حين أنكروا السنَّة النبويَّة لا لشيءٍ إلَّا لأنَّها كانت ولا تزال مع القرآن حجر عثرة في طريق الفصل بين الأمة ودينها، وبين المسلمين وشريعتهم.

وقلنا: بأَنَّ العلمانيين قد بذلوا جهودًا مُضنية في سبيل إقصاء الشريعة الإسلاميَّة عن الحياة، وأنفقوا الكثير من الأمول وأراقوا الكثيير من المداد لتجبير الملايين من الصفحات، وبذلوا جهداً فوق الطاقة لتحقيق هذا الهدف، وما بلغوه، ولا قطعوا في الطريق إليه ذراعاً أو شبراً .

ثُمَّ أشرتُ إلى أن هناك خطة تشبه أن تكون خطة احتياطيَّة تدور على أساس واحد، وهو أن يُضرب الدين بعضه ببعض، إلى أَنْ تصل المسألة في نهايتها إلى القرآن كلام الله فيضرب القرآن بالقرآن.

أَمَّا صاحبنا فقد تعجَّلَ النتيجة ولم يصبر على المقدمات الفاسدة، وهذا شأنهم وطبعهم، قليلو الصبر على النظر ومعالجة الأفكار.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فها هو يتعجل النتيجة ويقفز إليها قفزاً بعد أن كنا نظن أَنَّه سيقف فقط عند حَدِّ إنكار السنَّة، ولكننا وجدناه تجاوز ذلك إلى التصريح بإقصاء الشريعة واستعداء الدولة على رجالها في كل قطر إسلاميٍّ.

وإنّي سأدعك عزيزي القارئ في مواجهة مع عبارته المتعجلة والسريعة والتي أظن أَنَّ بعض إخوانه قد عرك أذنه على حصاة وهو يلومه على استعجاله وتعجله، قال: (أَمَّا المتاجرة بالدعوة إلى تطبيق شريعة مستمدة من الكتب الصفراء والزج بالشباب في صدام مع السلطة باسم الدين فهو تلاعبٌ في دين الله وإفساد في الأرض، وأفظع الفساد في الأرض ما يتستر بدين الله خداعا).

وهكذا يبدو لنا بعد وقفة مستقصية أَنَّ مسألة الشفاعة حين يثيرها منكرو السنَّة لم يثيروها على أساس أَنَّها مسألة تعالج برأسها، أو على أَنَّها فكرة من الدين يريد القوم الوقوف على حقيقة القول الفصل فيها، وإنَّما هم قصدوا إليها قصدًا لتكون عينة من عينات يريدونها ليقولوا للنَّاسِ: إِنَّ السنَّة مِنْ عمل الشيطان، وقد أعملنا في إثبات هذه القضية المنهج الاستقرائيّ حيث تتبعنا جزئيَّات من قضايا الإسلام قد ثبتت بالسنَّة وتبين أَنَّها مخالفة للقرآن .

وقد ظهر لك أَنَّ إثارتهم لهذه القضية على هذا النحو قد بدا أمرًا لا علاقة له بالمنهج، ولا صلة له بالواقع، ولا نصيب لنتائجه من الصدق فهل عندهم من علم آخر يخرجوه لنا ؟!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٢ ـ قضايا أخرى :

قرأتُ لهؤلاء المشاغبين نشرة صغيرة الحجم تحت عنوان: لماذا القرآن ؟!. وهي قائمةٌ على فصول ثلاثةٍ أسلوب الكتابة فيها ليس واحدًا مِمَّا يدل دلالةً قاطعةً على أَنَّ كثيرين قد اشتركوا في كتابتها .

وَمِمَّا يؤكد ذلك أَنَّ الحديث عَنْ شخصيَّة النبي ﷺ في آخرها بدا في الظاهر أكثر حماسة للنبي ﷺ، وأنه أي النبي ﷺ شخصية متميزة من بين العالمين لأَنَّه محل للرسالة وقد وصل الكاتب في وصفه للنبي ﷺ إلى أَنْ قال: إِنَّ النبي بوصفه نبيًّا شخصية متميزة لا يجوز لها أن تخالط المجتمع والناس، وإِنَّما هي شخصية لا تراها إِلَّا في جهادٍ أو صلاةٍ أو صوم .

وفي أوائل النشرة ذاتها تجد لونًا آخر من الكتابة عن شخصيَّة النبيِّ ﷺ، والنبي له شخصيتان عند الكاتب، شخصيَّة هو بها نبيٌّ، والنبي عند الكاتب هو مَنْ يمارس شئون الحياة بحريَّةٍ، بل هو من يمارس الأخطاء والخطايا، وقد يتوب من خطاياه ويعتذر عن خطئه وقد لا يفعل، والله قد يقبل منه توبته وقد لا يفعل، النَّاس قد يقبلون منه اعتذاره عن الخطأ وقد لا يفلعون. المهم أَنَّ مَنْ أرسله الله ﷻ قد يرتكب الخطأ والخطايا ويقع منه هذا وذاك بوصفه نبيا إي نعم هكذا يقولون.

على أَنَّ مَنْ اختارَهُ الله ﷻ له شخصيَّة أخرى هو بها ملتزمٌ غاية الالتزام لا يقع منه خطأ ولا يقع منه خطيئة، وهذا الموقف يكون منه

بوصفه رسولا. وهذه التفرقة بين معاني رسول ونبي لا نوافق عليها لغة، ولا يقبلها عقل، وليس لها رصيد في الماضي ضمن أقوال السلف أو بين ما تركه لنا العلماء .

والشئ الغريب أَنَّ الكاتب – أو الكاتبين – يحاول أَنْ يؤيد ما ذهب إليه بما يسوقه من القرآن.

وليس من مهمتنا هنا أَنْ نقبل هذا الموقف أو ذاك، كما أَنَّه لـــيس من مهمتنا هنا الآن أن نرد هذا الموقف أو ذاك، وإِنَّما قصدنا أن نبين أَنَّ الذين كتبوا هذه النشرة هم أناس متعددون.

والشئ العجيب أَنَّه لم يكتب اسم واحد على صدر الكتاب بحيــث يكون مسئولاً أمام الناس عَمَّا كتب فيه، وإِنَّما قد خرجت النشـــرة باســـم مستعارٍ كُتِبَ بعد الإهداء إلى رئيس إحدى الدول.

النشرة في جملتها غير متسقة الأسلوب ونتائجها الجزئيَّة مختلفـــة فيما بينها، ولكنها في النهاية تلهث بجميع سطورها وراء هدف واحد وهو أَنَّ سُنَّة النبيِّ عملٌ شيطانيٌّ .

ولم أستطع أن أضع لهذه الفقرة عنوانا لأَنَّها هي نفسها مجموعـــة من الأجزاء والتفاريق لم يستطع صاحبها نفسه أَنْ يضع لها عنوانًا سوى أن قال: (قراءة في أهم كتب المصدر الثاني) وهو يقصد بذلك كتـــاب البخاري، كما هو حال كل أصحابه من قبل ومن بعد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في العصور التي مضت قريبًا كان التركيز بكل القوة على الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه، ذلك لأنَّ جولد تسيهر قد رفع لهم الراية وأعطاهم جميعًا إشارة البدء في الهجوم عليه، فَلمَّا وجدوا أَنَّ حصن أبي هريرة رضي الله عنه منيع، رُفعت رايةٌ أخرى تعطي إشارة البدء للهجوم على الإمام البخاري رحمه الله.

والشئ العجيب أَنَّ جميع المهاجمين على اختلاف تخصصاتهم قليلو القراءة في مجال السنَّة يجهلون مناهجها جهلاً تامًّا، بل هم يجهلون المصطلحات المستعملة في هذا الفن، فهم ما استطاعوا أَنْ يخرجوا حديثًا تخريجًا صحيحًا، وما استطاعوا أَنْ يظهروه في مكانه بأسلوبٍ علميٍّ معهودٍ.

دعك من هذا كله وقف معي عند العينات التي اختاروها ثُمَّ صعدوا عليها وعمموا القول، وستجد معي أَنَّ المناهج العلميَّة لا احترام لها عند هؤلاء بل إِنَّها محكوم عليها بالموت ومفارقة الحياة .

صحيحُ الإمام البخاري فيه ما يربو على سبعة آلاف حديث مقسمة على كتب وأبواب، كل كتاب يعالج جانبًا من جوانب الشريعة، وكل باب في كل كتاب يلمس جزئيَّات الموضوع الذي يعالجه هذا الكتاب.

إنْ أردنا أن نحكم على كتاب كهذا، بمنهج علميٍّ سليم يجب أَنْ تكون العينة ممثلة للكتاب كله، كما يجب أن يكون الذي يأخذ العينة أمينًا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في أخذ عيناته لا يخون ولا يدلس، فإنْ خان أو دلس فقد ابتعد عن المنهج وجافاه .

والذي سيأخذ العينة سيحللها، وهو يجب عليه حين يحلل عيناته أَنْ يكون أمينًا مع الموضوع نفسه، لا يستنتج شيئًا من هواه ولا يصادر على العينة بمقولة لا تحتملها .

من هنا يتبين أَنَّ الإنسان إذا اختصَّ نفسه بوظيفتي أخذ العينة، وتحليلها فإنَّه في أخذه للعينة يكون ناقلاً، وشرطُ الناقل الصحة في النقل، وهو بتحليله للعينة سيفرض فروضًا والفروض في حقيقتها ادّعاءات وشرطُ الادّعاء كي يصير حقيقة أن يقف إلى جواره الدليل.

مَنْ يأخذ العينة إذن ويحللها لابُدَّ أَنْ يتوافر فيه شرطان هما ما ذكرت لك. ولقد رفع العلماء من القدماء هذين الشرطين في شكل شعار منهجيٍّ يستظلون به لا يفارقونه، وهذا الشعار هو "إِنْ كنتَ ناقلاً فالصحة ، وإنْ كنت مدعيًّا فالدليل ".

كلام نقرؤه فيشفي كل عليل، وكلام نقوله والشأن فيه أَنْ يبرئ كل غليل.

ونعود إلى حكاية العينات وجدواها. والعينات التي ذكرها صاحبنا قليلة نادرة من ناحية، وهي مِنْ ناحية أخرى لم تحظ بأمانة النقل كاملة، ولم يتهيأ لها المناخ الصحيّ للتحليل على أساسٍ منهجيٍّ من ناحية أخرى.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(أ ــ سيرة النبي عليه السلام بين حقائق القرآن وروايات البخاري)

هذا أول عنوان كتبه صاحبنا في الفصل الثالـــث، وهــو عنــوان يوحي لك ولي وللنَّاس أجمعين بأنَّ شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كما رسمها القرآن تختلف عن شخصية النبي كما رسمها البخاري .

والبخاري ليس له ولا لغيره أَنْ يرسم شخصــية النبــي صلى الله عليه وسلم، لأنَّ شخصية النبي بكل بساطة ترجع إلى عناصر ومقومات قد وضــعها الله فيه، فالأنبياء جميعا قد اصطنعهم الله لنفسه، وهو قد صنعهم على عينــه، فهو وحده الذي يستطيع أن يرسم لنا صورة نبي اصطنعه لنفسه وصنعه على عينه، ثُمَّ يحدد لنا بعد رسم شخصيته مستوى العلاقة التي ســتكون بيننا وبينه .

هذا كله لله ، وليس لأحدٍ أن يتدخل في شئ منه .

والله عز وجل قد حدد لنا شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكــريم وحيًّــا يوحى، وحددها لنا النبي صلى الله عليه وسلم عَنْ طريق أقواله وأفعاله وصفاته، وجُلُّهَــا أمور محكومة بالوحيّ، ودور البخاري وغيره هو تسجيل أمور لها واقع تاريخي، والتأكد منها سهل ميسور، فنحن بإمكانننــا أن نحلــل الواقعــة التاريخيَّة التي يتحدث عنها البخاري أو غيره، وندرسها دراســة وافيــة على أساس من المنهج المنضبط، ثُمَّ نحن نستطيع أن ندرس هؤلاء النقلة الذين نقلوا هذه الواقعة في جيل أو جيلين إلى أن وصلوا إلى البخاري أو إلى غيره من الرواة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ينبغي أن نتفق من البداية إذن أَنَّه ليس لأحدٍ أَنْ يرسم من خياله صورة لنبي مرسل، سواء كان هذا النبي هو النبي الخاتم ﷺ أو كان غيره من الأنبياء عليهم السلام.

وبعد هذه المسلَّمة كيف يمكن لنا إذن أن نفهم شخصية النبي محمد على ضوء الوحي قرآنًا وسنَّة ؟!

والكلام هنا في هذه المسألة أصبح سهلا ميسورا بعد انضباط العلوم وتقدم المناهج.

ومن أهم جوانب شخصية النبي ﷺ أَنَّ الله ﷻ قد أمكنه من سنام الأخلاق يتربع عليه ويبدو للناس من فوقه عظيما، كما شهد الله ﷻ له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/٤].

وعظمة الأخلاق فينا معاشر البشر تكون حين يتميز الإنسان منا بخليقة واحدة أو اثنين، يكبره النَّاس من خلالها أو من خلالهما، وإن كان في غيرها أو في غيرهما ناقصًا مغمورًا .

ورَبُّ العبادِ لم يرض لنبيه ﷺ أَنْ يكون كسائر خلقه تميزه في الأخلاق كتميز آحاد الناس من أمته أو من أمة غيره، ولكن الله قد أراد أن يكون نبيه الذي اصطفاه على درجة أخرى من الأخلاق معجزة بحيث لا يكون لغيره أن يرقى إليها، وإن حاول الغير، أَنْ يرقوا إليها فيبقى النبيّ ﷺ في كل أمة في محل القدوة يرمقه النَّاسُ بأبصارهم وهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يعبرون من السفح الهابط إلى القمة السامقة، وينقضي بهم الأجل وهم يرقون دون أن يصل أحدهم إلى القمة فيتربعها كما تربعها النبي ﷺ .

هكذا يحدثنا التاريخ، ومن قبل حديث التاريخ كانت إرادة الله في أنبيائه ورسله ومبلغي وحيه عليهم السلام.

ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام واحد من هؤلاء على أقل تقدير، بل هو خاتم النبيين والرسل إذا أردنا أن نضع الأشياء في مكانها الصحيح.

والميزة التي يتميز بها النبي محمد ﷺ هي أَنَّ الله عز وجل قد أمكنه من رتبة كل خُلق، فهو يأخذ من كل فضيلة سنامها دون أن تطغى واحدة منها على سواها.

ولذا فأنت ترى النبي ﷺ فصيحًا بمعنى الكلمة في مجال الفصاحة، وأنت تراه رحيمًا بكل جُماع الرحمة في مجال الرحمة، وأنت تراه شجاعًا يحتمي به الشجعان إذا اشتد النزال وحمى الوطيس، وأنت تراه أبًا رحيمًا يذرف الدمع الساخن الذي يفلق الأكباد حين ينظر إلى ولده ونفسه تصعد إلى خالقها في حجره، وأنت تراه زوجًا يعطي من نفسه كل حق لزوجاته حين يتطلب منه الموقف أن يعطي زوجاته منه حقا ، وأنت تراه عابدًا في محرابه حين يدخل عليه وقت الصلاة كأنه لا يعرف زوجاته ولا يعرفنه، وأنت تراه يخاطب النَّاس ويتحسس مشاكل كل واحد منهم بحيث يشعر كل صحابي أَنَّ النبي ﷺ له وحده لا لسواه، وأنت تراه مبلغًا نشيطًا في التبليغ حتَّى لا يتأتى منه التقصير استجابة إلى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قول ربه ﴿يا أيها الرسولُ بلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْك من ربك وإن لم تفعلْ فما بلَّغت رِسالته واللَّه يعصمك من النَّاس﴾[المائدة/٦٧].

بل إنَّك لتراه يداعب الأطفال والخدم ويرفع من نقيصة البسطاء والعبيد ويتودد إلى الغرباء عن جزيرة العرب، فيقول لنحو سلمان ﷺ : "سلمان منا أهل البيت".

مَنْ الذي يستطيع أَنْ يتصوَّرَ شخصية كهذه؟! ولو لم يكن لها واقع في التاريخ لقلنا: إِنَّها صورة مثاليَّة لإنسان لم يشأ الله أَنْ يوجد بعد .

وشخصية كشخصية النبي ﷺ إلى هذا الحد عزيزة المنال، ليس لها إلَّا أَنْ تتربع القمة كما هي، مهما كان في قلوب أعدائها من شنآن، وحتى ولو بدت البغضاء من أفواههم، وحتى ولو كان ما تخفيه صدورهم أعظم .

شاء الله للنبي ﷺ أَنْ يكون هكذا، وقد كان، ثم حمل الله النبي ﷺ فوق ذلك أمورًا هي للأمة تشريع، وله رفعة وكرامة وعلى كاهله ثقل عظيم.

هل لك أن تتأمل معي أَنَّ النبي ﷺ حين أراد الله أن يكون هو النبي الخاتم، أراد مع ذلك أن تكون قضاياه التشريعيَّة تتحول على يديه إلى أمر عملي، له واقع تاريخي ينفذها بنفسه أو يطبقها الجيل الأول وهو ينظر .

غير أَنَّ أكثر الأمور حساسيَّة وهي تلك التي يتبعها رجفة اجتماعيَّة ودعايَّات مغرضة تؤلم النفوس، يختص الله ﷻ بها نبيه ﷺ، فهو على تحملها أقدر وهو بنتائجها أبصر.

والله من ورائهم محيط عزيز.

كان لابُدَّ أن يتحمَّل النبي ﷺ ثقل تطبيقات هذا التشريع وهو والله ثقيل، ولم لا والنبيّ ﷺ يخشى أن تكون نتيجة الرجفة الاجتماعيَّة انصراف الناس عن دعوته التي من أجلها وجد، ومن أجلها خلق وبعث، ورب العباد يطمئنه حين يستشعر الرجفة ويخشى على مستقبل الدعوة فيقول له: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا**﴾[الأحزاب/٣٧].

ودونك مثالا آخر: لقد كان اليهود في الجاهلية الأولى ينظرون إلى المرأة إذا نفست على أَنَّها رجس يجب اجتنابه، وعلى أَنَّها إذا مست شيئًا أو اقتربت من شئ، نجس بنجاستها، وعلى أَنَّها لا يجوز لها أن تخاطب أحدًا ولا أن تخالط النَّاس.

يا الله،

إنَّه إزدراء إلى حد الامتهان،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإنَّه لإقصاء إلى حد الغربة والاغتراب،

وإنَّه لتشريع مفترى ما أنزل الله به من سلطان!

وكم من فعل شاذ في أمة قد أطبقت عليه الأمة حتى صار عادة!

وكم من منكر شائن في نفسه قد تواضعت عليه جماعة من الجماعات حتى أصبح فضيلة وخلافه من كبريات الرذائل!

عجبًا للإلف والعادة، كيف يصنع من المعروف منكرًا، ومن المنكر معروفًا مرضيًّا عنه .

أَثَّرَ اليهودُ في عقول العرب حتى أصبحت المرأة عند العرب في حالة الطمس كما هي عند اليهود، وهم راضون بذلك جميعا متعارفون عليه.

والنبيُّ ﷺ ينزل عليه الوحى حين يسأل الرجال والنساء جميعًا عَنْ المرأة في هذا الحال فيجيبُ القرآن: ﴿**قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**﴾[البقرة/٢٢٢]، أَمَّا بعده: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**﴾ [البقرة/٢٢٣].

الممنوع إذن فقط مِنَ المرأة في حالة الطمس هي المعاملة الزوجيَّة في وظيفتها الخاصة ولكن: هل يأمر النبي ﷺ بشئٍ ويأتي بضده أم نريد من النبي ﷺ أَن يخالف النَّاس إلى ما نهاهم عنه ؟!!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المسألة إذن تحتاج إلى تشريعٍ نظريٍّ وقد نـزل، وتحتاج إلى تطبيقٍ عمليٍّ يعرفه النَّاس حتى لا يتأتى منهم أن يخالفوه بعد أن فعله من هو محل للقدوة.

ونحن نعرف من طباع البشر أَنَّه قد يكون من المرء تراخ أمام قول يسمعه، ولكنه حين يرى من هو محل للقدوة قد فزع إلى مضمون هذا القول يطبقه، فإنَّ المأمور بمضمون هذا القول ينشط إلى تطبيقه نشاطًا عظيمًا لمجرد أنَّه قد رأى قدوته يطبقه.

هذا كلام نقوله والواقع خير شاهد عليه وكتب التاريخ ملأى بِمَا يؤيده، بل إِنَّ المشتغلينَ بالفلسفة يعلمون علم اليقين أَنَّ هناك مدارس فلسفيَّة اهتمامها بالأوامر والأقوال ضعيف إلى حَدِّ العدم تقريبًا، وهي تهتم غاية الاهتمام بتتبع النماذج الحسنة، وتحاول تقليدهم وتنظر إلى القدوة، وتحاول الصعود إليه في مكانته.

وما كان لله وهو الكريم الحكيم ﷻ أَنْ يحرم نبيَّه ﷺ مِنْ أن يكون محلاً للقدوة بفعله، وما كان لله وهو القادر العالم أن يخلق في النَّاسِ غريزة حب التقليد ولا ينصب لهم في الوجود مثلا يقلدونه ويحتذون به.

ولذا فإنَّ التاريخ يحمل لنا من بيت النبي ﷺ أخبارًا تبين وقفته الصامدة أمام كل حدث يخشى من يغيره أول مرة، أو يسبح ضده أول وهلة من رجفة المجتمع والناس.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بل إنَّ القرآن العظيم ليسجل أَنَّ النبي ﷺ قد تزوج من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وقد كانت قبله زوجة لزيد بن حارثة رضي الله عنه ، فهل يجرؤ واحد منا أو من غيرنا أَنْ يقولَ: إِنَّ القرآن حين يروي هذه إِنَّما يكشف جانبًا مِنْ خصوصيات النبي ﷺ في بيوت أزواجه ؟!

بل إنا لنسأل حين نستعرض فاتحة سورة التحريم، وهذا الحدث الذي جرى بين النبيِّ ﷺ وزوجاته رضي الله عنهن وهو معروفٌ، هل يقول قائل منا مَا بال القرآن يتحدث عن خصوصيات بيت النبوة، ما كان ينبغي لها أن تكشف أو يتناولها أحد بحديث، قل مثل ذلك وأنت تقرأ في سورة الأحزاب، إِنَّ زوجات النبي ﷺ قد خيرهنَّ الله بين البقاء مع النبي ﷺ على ظروفه في الحياة، وبين مفارقة النبي ﷺ، وقد يقول صاحب هوى: إِنَّ القرآن الكريم يدخل بيت النبوة فيصور دقائقه وما كان له أن يفعل ذلك. وإنَّه لا يجب على أن استعرض القرآن كله لأذكر أمثلة من هذا القبيل، ففي ما ذكرناه مثال يغني عن كثرة المقال لندخل بعده إلى ما يقول صاحبنا عن النبيِّ ﷺ.

فشخصية النبيِّ عنده ليس لها إلَّا جانبٌ واحد هو الحرب والنزال، والانهماك في العبادة ومعاشرة النَّاس، أَمَّا البيوت والأزواج فهي كلها من سقط المتاع، وَأَمَّا التشريعات المتصلة بالأحوال الشخصيَّة فهو معفي منها تطبيقًا وبلاغًا.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إِنَّه يقول وهو يرسم شخصية النبيِّ ﷺ مدعيًا: إِنَّ هذا هـو مـا تحدث القرآن عنه (كيف كان النبيُّ يقضي يومه، لك يا عزيزي القارئ أن تتخيل الإجابة على هذا السؤال وستجدها مطابقة لما جاء في القـرآن الكريم، فمنذ أن نزل الوحى على النبي وهو قد ودع حياة الراحـة وبـدأ عنده عصر التعب والإجهاد والجهاد، ويكفي أن أوائل ما نزل من القرآن يقول له "يا أيها المدثر قم فأنذر" و " يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً" أي أَنَّ وقت النبيِّ منذ أن نزل عليه الوحى كان بين تبليغ الرسالة والمعانـاة في سبيلها ثُمَّ قيام الليل.. وليس هناك بعد ذلك متسع للراحة التي هي حق لكل إنسان، وانتقل النبيُّ للمدينة وقد جاوز الخمسين من عمـره فـزادت أعباؤه، إذْ أصبح مسئولا عن إقامة دولة وتكوين أمة ورعاية مجتمع، ثم هو يواجه مكائد المنافقين في الداخل ومكائد اليهود حوله والصراع مـع المشركين باللسان والسنان، ثم هو بعد ذلك يأتيه الوحى ويقوم على تبليغه وتأسيس المجتمع المدني على أساسه.. ونجح النبي عليه السلام في ذلك كله، ومع هذا فإنَّه في حياته عليه السلام لم ينقطع عن قيام الليل، ومعه أصحابه الفرسـان بالنهار العابدون لله بالليل، رضى الله عنهم أجمعين.. كل عاقل مـن أي ملة ودين لا يملك إلَّا أن يسلم بأنَّ الذي أقام دولة من لا شئ، ونشر دعوة ونهضت به أمة لا يمكن إلَّا أن يكون قد وهب وقته كلـه لله، ولـدين الله وعمل كل دقيقة في حياته لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفـروا هي السفلى.. إذا كان النبي يقضي النهار في الجهـاد وتبليـغ الـدعوة ورعاية الدولة، ويقضي ليله في قيام الليل للعبادة، وكان معه أصـحابه، هذا ما يثبته الرحمن في القرآن وهذا ما ينبغي الإيمان به وتصـديقه إذا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كنا نحب الله ورسوله ونؤمن بكتابه وندفع عن النبي الأذى وما يشوه سيرته العظيمة)[١].

هذا ما سَطَّرَه صاحبنا يريد به أن يرسم شخصيَّة النبيِّ ﷺ، ونقول: إنَّه صادق فيما قال لكن ما ذكره هنا اجتزاء مخل من عناصر شخصيَّة نبيٍّ عظيم، له من عوامل مكونات الشخصيَّة ما يشتمل على ذلك وأكثر منه بكثير إنَّ الرجل على ما يظهر لي قد دخل على شخصية النبي ﷺ وفي ذهنه شخصيات أخرى من التاريخ لها نظريات معينة، ينتابها من القصور ما ينتاب أمثالها من سائر النظريات التي شقيت الإنسانيَّة بها، وظن أَنَّ النبي ﷺ واحد من هؤلاء، لديه نظرية ابتكرها ابتكارا، من نحو نظرية ماركس مثلاً ووراءه رجال من أمثال إنجلز ومن بعده في التاريخ لينين وستالين، وأَنَّ النبي ﷺ يريد أن يفرض على النَّاسِ هذه النظرية ليحتل في التاريخ مكانا وليتبوأ في المجد مكانة .

إن مَنْ يتأمل هذه السطور التي صورت بها شخصية النبيِّ ﷺ يجد أَنَّها سطور مجتزأة، تصور جانبا من جوانب الشخصية يمكن لنا أن نصف به شخصية ما من الشخصيات التي ظهرت في التاريخ من غير الأنبياء.

(١) لماذا القرآن ص ٨٤ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهناك شخصيات في التاريخ قد ظهرت، وجل اهتمامها أن تحصل لنفسها زعامة ومجدا، وأن تخضع لسلطانها الأصفر والأحمـر، وتتخـذ لذلك الأسباب العمليَّة بالنهار، والتدابير النظريَّة بالليل.

أمَّا أن تكون هذه السطور المجتزأة تمثـل شخصـية لا تليـق إلا بالنبي الخاتم ﷺ، فهذا أبعد ما يكون عـن أن يتصـوره عاقـل أو أن ينطوي عليه قلب مؤمن.

شخصية النبي ﷺ إذًا شئٌ آخر على نحو ما رسـمت لـك فـي السطور الماضيَّة، وهو قليل من كثير، يدور كله حول فكرة معجزة فـي تطبيقها، وهي أَنَّ النبي ﷺ قد أتيح له أن يتربع سنام كل خليقـة، وأن لا تطغى في ذاته خلة على أخرى، أو لا يظهر لديه سلوك علـى حسـاب سلوك آخر.

والشرق والغرب يعلمون ذلك ويعونه!

ومِنَ الممكن أنْ يُقال:إِنَّ هذه الصورة التي رسـمت علـى هـذا النحو، قد قصد إليها كاتبها قصدًا، هو إظهار النبي ﷺ كواحدٍ من أبطال العالم أو عبقريٍّ من عباقرة الدنيا .

والشئ الذي لا أفهمه: أنَّ الكاتب قد انتزع انتزاعا من بين سطور البخاريّ روايات وأحاديث ساقها في أسلوب يهيج الغرائز عند الشـباب، ويطيح بكل تقدير للأسلاف والأجداد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جمع الكاتب بعض كلمات من البخاري انتزعها انتزاعًا من أماكنها، ثُمَّ أدخلها في فيه وهضمها وأضاف إليها من ذاته، فخرجت تشبه عندي ما فعله الذي تغزَّلَ في الحور العين .

إنَّه يتحدث عن عائشة رضي الله عنها وغيرها من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن نقلًا عن البخاريِّ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تؤكد للأوساط المحيطة بها: أَنَّ مَا تعارف عليه اليهود من علاقتهم بالمرأة الحائض أو النفساء لا علاقة له بالإسلام ولا بشريعته، وَأَنَّ النبيَّ ﷺ نفسه قد التزم شريعة الله ولم يلتزم شريعة اليهود، فزوجته لا تفارق فراش الزوجيَّة إذا نفست، وهي تصب عليه الماء ليغسل رأسه وهو معتكف، وهي تمشطه وتضع عليه المسك والعطور وهي حائض، وأمهات المؤمنين إذا تحرَّجت الواحدة منهنَّ، وهي في فراش الزوجيَّة إذا طرأ عليها ما كتبه الله على بنات حواء متأثرة بالعرف السائد، لا يتركها النبي ﷺ على تحرِّجها وإلَّا كان تركه إياها إقرارًا منه بصحة معتقدها، وهو أمرٌ في التشريع خطير فيأمرها النبي ﷺ أَنْ تدخل في فراشها كما كانت، وأن تلتحف بلحافها لا تغير من ذلك شيئًا .

ثُمَّ إِنَّ النبيَّ ﷺ مطالبٌ أَنْ يحدد العلاقة الحقيقيَّة بينه وبين زوجاته إذا نفسنَّ، لتكون سنَّة للمسلمين وطريقة متبعة، فكان يأمر الواحدة منهن وهي حائض فتتزر ثُمَّ يكون له بعد ذلك منها ما يشاء بغير حرج، ولها منه ما تريد بغير تحفظ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كلماتٌ هي في مجال التشريع حاسمات، وليس لنا من طريق لمعرفة هذه الأحكام إلَّا عن طريق زوجات النبي ﷺ ، والحديث في التشريع لا يصح أن يكون حمالاً للوجوه وإلَّا فسدت العلاقات وفسد الالتزام بقانون الشرع .

يرحم الله البخاري وأمثاله مِنْ رجالٍ سَطَّروا لنا آثار رسول الله ﷺ ، وتبلغ الهيمنة بأحدهم –وهو البخاري– ألَّا يكتب الحديث إلَّا بعد أن يقدم إليه بركعتين تقربًا إلى الله ﷻ.

أولئك أسلافي فجئني بمثلهم ** إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ثُمَّ يقول : (ب ــ البخاري ينسب إلى النبي كلمات نابيات)

ومن النماذج التي اختارها صاحبنا وهي قليلة طبعًا بل نادرة، نماذج قد اختارها ليقول إنَّ البخاري قد نسب للنبيِّ ﷺ كلمة صريحة جرت على لسانه تُعِّبر عن المعاملة الزوجيَّة الخاصة، ثم وضع يديه على عينيه وهو يقول للقارئ إني مكسوف، الكلمة أمامك اقرأها كما تشاء.

نعم هذه هي المسرحية التي عرض بها هذا النموذج[١] .

وأنت أيها القارئ لا أحبك أن تضع يديك على وجهك ما دام لك عقل يستطيعُ أَنْ يعي ويفهم.

---

[١] انظر : لماذا القرآن ص ٩٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قبل أن ندخل على هذه النقطة ومناقشتها أحب أن أقول لك كلمة همسا في أذنك: التشريع في مسائل الجرائم والجنايات هل يصح أن تكون الألفاظ فيه حمالة وجوه ؟!

ثُمَّ في مسائل التحقق من الجريمة نفيًّا أو إثباتًا يكون أمام القاضي طريقان لا ثالث لهما، وأحد هذين الطريقين هو إثبات الجريمة بالبينة إذا وجدت، ونفي التهمة عن المتهم إذا غابت البينات.

والبينة لا يجوز أن يعتريها لونٌ من الاشتباه، فإذا كانت البينة غير قطعيَّة الدلالة: وَجَبَ أَنْ تُدرأ العقوبة عن المتهم، إِذْ كيف توقع العقوبة على إنسانٍ بمجرد الاشتباه .

والقاعدة العامة في القضاء الإسلامي: أَنَّ الحدود تُدرأ بالشبهاتِ، وأَمَّا الطريق الثاني الذي تثبت به التهمة على المتهم، ويصير مرتبكا للجريمة مستحقا للعقوبة فهو الإقرار أو الاعتراف .

والإقرار في القضاء المدني مجالٌ رحب قد وضع التشريع وهو يعطي للقاضي فرصة لفحص الإقرار والوقوف على حقيقته والتعرف على مدى جديته.

أَمَّا في القضاء الإسلامي فالإقرار ملك للمقر ومجال للقاضي لفحصه في وقت واحد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَمَّا باعتبار أَنَّ الإقرار مِلْكٌ للمقر فهو بمقتضى ذلك يستطيع أن يرجع عن إقراره في أي وقت شاء ما دامت العقوبة لم تنفذ بعد .

وفي نفس القصة التي أوردها صاحبنا ما يفيد ذلك حيث إن الصحابة ﵃ عادوا إلى النبيِّ ﷺ بعد أن نفذوا العقوبة على ماعز، وقد قال بعضهم للنبيِّ ﷺ إنَّ ماعزًا حين استحرَّ الرمي به فَرَّ هاربًا وتبعه الموكلون بتنفيذ العقوبة فأعادوه ورجموه، فغضبَ النبيُّ ﷺ وقال: " هَلَّا هَلَّا تركتموه "، إِنَّ الله لم يجعل لكم عليه سلطانًا إلا بإقراره، وفراره آية رجوعه عنه.

وهكذا تكون الرواية ناطقةٌ بِأَنَّ الإقرار مِلْكٌ للمقرّ.

وَأَمَّا الجانب الثاني وهو أَنْ يكون الإقرار فيه مجال رحب للقاضي كي يفحصه فحصًا دقيقًا، ليعلم قيمة هذا الإقرار، وكيفية صدوره عن صاحبه، فإنَّ الرواية تدل على هذا الجانب أيضا، حيثُ إِنَّ النبي ﷺ قد طرح على المقر وهو ماعز أسئلة لاستبيان واستطلاع النوايا واكتشاف حقيقة الفهم لحدود الجريمة، بما يجعل النبيَّ ﷺ يستوعب من المقر كل ما لديه .

وقل لي بالله عليك جريمة من الجرائم نهايتها القتل في عصر كان الإيمان فيه جارفًا، ولا دليل على الجريمة إِلَّا إقرار صاحبها، أليس من المحتمل أن يكون صاحب الإقرار قد فهم أَنَّ العقوبة المقررة شرعًا شاملة لزنا العين أو غيرها، وخصوصًا وَأَنَّ النبي ﷺ قد قال بِأَنَّ العين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تزني والأذن تزني واللسان يزني والفرج يصدق ذلك أو يكذبه، جريمة إذن عقوبتها الإعدام، ولا سبيل إلى التحقق منها وثبوتها إلا إقرار صاحبها، هل تظن أَنَّه من أجل رقى اللفظ نستعمل ألفاظًا حمالة وجوه، ثُمَّ نزهق نفسا قد يكون بغير حقٍّ وبدون جريمة من أجل عيون اللفظ الراقي؟!

إِنَّ الشرع الحكيم لم يقبل ذلك فيما هو أقل من إزهاق الروح، ولِي أَنْ أستفتي صاحبنا ولا أنتظر جوابًا، لو أَنَّ إنسانًا مَا جاء ليقول: أقيموا عليَّ حَدَّ قطع اليد لأنّي قد أنشأت لنفسي ولاية على مال فلان، بهذه الكلمة الحمالة للوجوه، هل مِنْ حق القاضي المسلم والحالة هذه أن يقيم الحدَّ عليه، لا والله ولا يجيز له ذلك أحدٌ، إِنَّ الإقرار المثبت للجريمة فيه مجال رحب لفحص القاضي، وليس لذلك من معنى إِلَّا أَنَّ القاضي سيتأمل ألفاظ المقرّ، ثُمَّ يستعمل ألفاظًا لا تحتمل إِلَّا معنىً واحدًا بِهِ تتحدد الجريمة وتتكيف.

وفي حالتنا ما هو اللفظ المقترح بديلا للفظ الذي معنا، والذي جعل صاحبنا يضع يديه على عينيه خجلاً من ذكره، لو أَنَّه ذكر بدلا منه لفظ النكاح، لكان اللفظ حمالاً للوجوه، إذْ النكاح يطلق على العقد، كما يطلق على العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة مثلاً، وهو لفظ حمال للوجوه لا يصلح في تكييف إقرار المقرِّ.

ما الذي يمكن للنبيِّ ﷺ أَنْ يستعمله كلفظٍ بديل، أيستخدم لفظ الزنا، إِنَّ الزنا وصف عام لما تقوم به العين من النظر، وما تقوم به الأذن من السماع، وما يقوم به اللسان من الحديث والفحش في القول، وما تقوم به اليد من اللمس والمباشرة إلى آخره، كما يطلق على الحالة الخاصة بين الرجل والمرأة، أترى مثل هذا يصلح ليستعمله القاضي في تحديد جريمة نهايتها الرجم والإعدام، وأكثر من هذا إيغالاً في الإيهام والاحتمال لفظ (تغشاها) ولفظ (الرفث)، الألفاظ كلها حمالة وجوه، والقضية قضية تكليف إقرار لا سلطان لنا على المقر بدونه، ونهايته القتل، وكنا نود من صاحبنا أن يرفع يديه عن عينيه ويعالج خجل وجنتيه، ثُمَّ يذكر لنا لفظًا آخر غير هذا اللفظ الذي نطالبه بالإتيان به ولم يعد أمامه إلَّا سبيل واحد هو أن يقول: إِنَّ نفس المقر إذا كان سبيل الحفاظ عليها استعمال اللفظ الدقيق مهما كان اللفظ مخجلا فإننا نضحي بالنفس ولا ننطق لفظا دقيقا في معناه مؤديا للغرض بغير احتمال حفاظا على مستوى معين للتفكير.

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله ومجتباه، وأَنَّه قد علَّمَهُ الفصاحة في القول والدقة في التعبير، ولكن أصحابنا لا يعلمون[١].

---

(١) لمَّا شعر الكاتب بضعف حجته شَنَّ هجومًا عنيفًا على حَدِّ الرجم، بحجة أنَّه قد ثبت بالسنَّة، والسنَّة مِنْ عمل الشيطان، وهي قضية الكتاب كله.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ج ـ حادثة أم حرام :

وينتهي بنا المطاف من أخذ العنيات إلى حادثة أم حرام، وخلاصة حادثة أم حرام أَنَّ النبي ﷺ كان يدخل عندها، وأحيانا ينام في بيتها ويأكل ويشرب وتحدثه ويحدثها.

هذا هو خلاصة القول ومجمل الرواية.

أَمَّا صاحبنا الذي تشبه كتاباته ما ذكرت لك مِمَّا قرأت في الكتب الماضية عن ذلك الذي يكتب في الغزل ويتخذ من الحور العين موضوعًا له، أَمَّا صاحبنا الذي يكتب على هذا المستوى، فقد قال هنا كلامًا خطيّرًا، قَالَ: إِنَّ هذه الرواية يلْزم منها أَنْ تكون هناك علاقات خاصة مع النبي ﷺ ، وحاشاه، وهو ذلك الذي أَدَّبَهُ رَبُّهُ فأحسن تأديبه!

وما ذنب القارئ والسامع أن يكون كاتبه صاحب هوى ومحدثه ما قدر الله حق قدره ؟!

بل قل ما ذنب القارئ والسامع إذا كان كاتبه ومحدثه لا صلة له بالعلم ولا بالعلماء ولا معرفة لديه بأصول الفن الذي يتحدث فيه ؟!

ما لنا ودواخل النفوس نتحدث فيها بعد أَنْ قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿**فسيكيفيكهم اللّه**﴾ وبعد قوله تعالى: ﴿**فأعرِض عنهم وقُل سلام فسوف يعلمون**﴾.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ما لنا وطوايا النفس نتحدث فيها بعد ما قال الله ﷻ ما قال ؟!

أَمَّا قصة أم حرام فقد وردت في صحيح البخاري نفسه ثلاث عشرة مرة تأتي مختصرة مرةً ومطولة أخرى[١].

والذي يذكره الكاتب ولا يعرف معناه أَنَّ هناك بيتًا آخر هو بيت أم سليم، كان النبيُّ ﷺ يدخل فيه ويأكل ويشرب وينام أحيانا وقت الظهيرة، ويسيل عرقه على قطعة من جلده فتجمعه أم سليم من فوق الجلد وتجعله في طيبها، والنبي ﷺ يعلم ذلك ولا ينكره.

إلى هنا والكاتب قد يعلم بعض ما ذكرناه ولا يتورع أن يتخذ منه تكأة للتشويش على شخصية النبي ﷺ، وهو يوهم البسطاء أنه من المحبين له المدافعين عنه، وهو لا يعلم أن التفصيل في نفي النقص عن الكاملين نقص، خصوصا إذا دخل في شئ من التفصيل الممل، أو لعل صاحبنا يعلم هذه الجزئيَّة ويستغلها في تشويه صورة النبي ﷺ، والتقليل من هيبته في نفوس أتباعه، وهذا مطمعٌ قد طمع فيه من هم أكثر من صاحبنا بصرًا بالمناهج، ومن هم أكثر منه حيطة بأساليب البحث والدرس، ومن هم أشد منه قوة وأعز نفرًا، فما اسطاعوا أن يظهروا به وما استطاعوا أن ينالوا من جدار العز للنبيِّ ﷺ نقبا.

---

(١) راجع أحاديث البخاري أرقام : ٢٧٨٨ ، ٢٧٨٩ ، ٢٧٩٩ ، ٢٨٠٠، ٢٨٧٧، ٢٨٧٨، ٢٨٩٤، ٢٨٩٥، ٢٩٢٤ ، ٦٢٨٢، ٦٢٨٣ ، ٧٠٠١ ، ٧٠٠٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشئ الذي لم يعرفه هؤلاء أَنَّ الروايات مجمعة تقريبا على أن النبيﷺ كان يكثر من التردد والأكل والشرب عند أم سليم وأم حرام، والباحث الحصيف يسأل هل هناك شئ من العلاقة بين هاتين المرأتين الجليلتين ؟!

والروايات تجيب أن أم سليم وأم حرام أختان يُقال لإحداهما الرميصاء وللأخرى الغميصاء، لا بعينها، فمنهم من يقول أن الرميصاء بالراء هي أم حرام، والغميصاء بالغين هي أم سليم، ومنهم مَنْ يعكس .

والرميصاء والغميصاء لفظان يدلان على حالتين في العين متشابهتين وهما حالتان خلقيتان ليس بالعين معهما من بأس .

وأم سليم هي أم أنس بن مالك رضي الله عنه، وأم حرام خالته وأنس بن مالك كان في صباه يخدم النبيﷺ عشر سنين، وكان النبيﷺ يعامله معاملة تناسب أخلاق النبوة، يقول أنس رضي الله عنه: خدمت النبيﷺ عشر سنين فما قال لي لشئ فعلته لم فعلته، ولا لشئ تركته لما تركته .

هؤلاء ثلاثة ليسوا من المجاهيل في الصحابة والصحابيات، ما الذي جعل علاقة النبيﷺ بهما على هذا المستوى من اهتمام النبيﷺ وكثرة السؤال عنهم.

إِنَّ هذا لا يكون إلَّا هي حالة واحدة، وهي أن تكون هناك درجة من الغرابة تجعل المرأتين من محارم النبيﷺ سواء أكان ذلك من جهة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النسب كما قال بعض المؤرخين، أو كان من جهة الرضاعة كما قال البعض الآخر، وإلَّا فهل يمكن عقلاً للنبيﷺ أَنْ يُخالف النَّاس إلى ما ينهاهم عنه، وهل يمكن عقلاً أو اتفاقا أن تقوم علاقة غير مشروعة وحاشاه بينه وبين أختين في وقت واحد، وهل يجيز المنطق أو العادة أن يسمح النبيﷺ لغير قريبه من الصبيان أن يخدمه في بيته عشر سنوات كاملات.

أمور كلها تعد من قبيل الشواهد التي لا تخطئ، والدلالات التي تورث اليقين بأنَّ النبيﷺ كان قريبًا قرابة[١] محرمة لأم سليم وأختها أم حرام، وخصوصًا وأَنَّ بعض الروايات تقول: إن أم حرام كانت تستجيز غسل رأسها في حضرة النبيﷺ بقى أن يتشدق صاحبنا فيقول: هَب أَنَّ ذلك صحيح (وهو صحيح قطعا) فكيف يدخل النبيﷺ بيتًا لمحرمة وهي أم حرام من غير إذن زوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنه ؟!

وأم حرام كانت قد تزوجت مرتين، تزوجت مرة قبل عبادة بن الصامت رضي الله عنه وأنجبت، ثم قتل ابنها شهيدا في إحدى معارك الإسلام، وبقيت بغير زواج لكبر سنها، ثُمَّ شاء الله أن تتزوج بعبادة بن الصامت رضي الله عنه ويبقى معها بعد انتقال النبيﷺ .

---

(١) قد يقول قائل قريبات النبي ﷺ معروفات، وليس منهنَّ أم سليم ولا أم حرام، والجواب أننا نتحدث عن مجتمع لم يكن يمسك سجلات للقرابات، وخاصة إذا كانت القرابة في النساء، فهناك قريبات كثيرات أغفلَهُنَّ التاريخ في هذا المجتمع وأهملهنَّ الرواة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد وقع ذلك في كلام أنس بن مالك نفسه، وهو يُحدِّثُ عن خالته بالحديث الذي هو موضوع كلامنا الآن، ففي بعض روايات الحديث قال: ثم تزوجت بعد ذلك بعبادة بن الصامت رضي الله عنه.

أَمَّا هذه الجملة التي وقع عليها صاحبنا، وهي الواردة في بعض روايات هذا الحديث وهي ـ كانت تحت عبادة بن الصامت ـ فقد أجمع العلماء أَنَّ هذه الجملة معترضة وهي من كلام الراوي يشرح بها حال أم حرام حين ذهبت إلى بلاد الشام، أو إلى جزيرة قبرص وماتت بها .

وفيما ذكرناه كفاية لاستجلاء الموقف ولكني أحب أن أزيد قارئنا إيمانا، ثم أُحب أن أوقفه على ما يفعله هؤلاء من التدليس العلمي، وقبل أن أدخل بقارئي إلى مسببات مزيد الإيمان، قبل أن أوقف قارئي على شئ من البصيرة بما يفعله هؤلاء وهم يكتبون، أحب أولا أن أذكره بما قاله هذا الكاتب من أَنَّ النبيﷺ كان يبادل أم حرام كلمات غير مقبولة ، وحاشاه عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

النبيُّﷺ كان عند أم حرام، ونام عندها واستيقظ يضحك، وسألته أم حرام عن الأمر الذي يضحك منه، فأخبرهاﷺ أَنَّ أناسا من أمته سيركبون البحر ظهره ووسطه. ويكونون فيه، وهو أمر فيه أمثال الملوك على الأسرة، وهذا أمر يُسعد النبيﷺ ويرضيه، وفيه من المخاطر ما فيه، ففيه خطر ركوب البحر، وفيه الجهاد وما في الجهاد من أهوال، وفيه احتمال الموت والشهادة، وأم حرام تعرف ذلك وتدركه، ثم تطمع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيه وتبتغيه، وتسأل النبيﷺ الذي لا تُردُّ دعوته وتقول له: سل الله أن يجعلني منهم، والنبيُّﷺ سأل ربه، واستجاب له ربه، فسألته أم حرام بعد أن نام المرة الثانية في الوقت نفسه وقام يضحك، مِمَّ تضحك يا رسول الله؟ فقال كما قال في الأولى: إِنَّ أناسا من أمتي سيركبون البحر مثل الملوك على الأسرة، قالت: يا رسول الله أأنا منهم قال: لا، أنتِ من الأولين .

ومرت الأيام وركبت أم حرام مع زوجها، وعلى ساحل البحر ركبت دابة فسقطت من على دابتها فماتت، وقبرها على رأى البعض ما يزال ظاهرًا، يعرفه الناس في قبرص باسم قبر المرأة الصالحة.

أي حديث هذا الحديث الذي جرى بين النبيﷺ وبين أم حرام، إنَّه حديثٌ عن المخاطر والأهوال، وهو حديث عن الموت والشهادة، وهو حديث عن استكمال الذات إلى ساعة الممات، وهو حديث فرح النبيﷺ بأمته حين ينتشرون بالدين ويحملون لواء الجهاد .

إِنَّ مثل هذا الحديث لهو حديث الرجولة والكمال، وهو حديث الطمع في رحمة الله ورضوانه .

فما علاقة مثل هذا الحديث بأحاديث الرضا ومتابعة هوى النفس.

إن المرء ليسمع الحديث المستقيم فيدركه على وجهه إن كان سليم النفس حسن الطوية، وهو ينحرف به إذا كان إنسانا مريض النفس

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

معوجًا، وهل ينضح البئر إلا بما فيه، وهل يمكن أن تتطلب من الماء جذوة نار؟ أو تغترف من النار ماء ؟

قديمًا قالوا: إنَّ كل إناءٍ بما فيه ينضح .

أشهدُ أَنَّ الله قد قال في نبيه ﷺ: ﴿وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عظيمٍ﴾.

إلى هنا قد طوفتُ بِكَ عزيزي القارئ حول ما ذكره القوم.

وما ذكره القوم ليس بالكثير، وإنَّما هم يتحمسون إلى ما ذكروه ليصلوا بالقارئ إلى ما يريدونه، وما يريدونه هو أَنَّ السُنَّة عملٌ شيطانيٌّ.

وهم قد لبسوا لهذه النتيجة لباس العلماء لإيهام القارئ أَنَّهم على صواب! فساروا خلف مجموعة من الأحاديث تعد على أصابع اليد الواحدة، واعتبروها عينات تؤهلهم بعدها إلى التعميم استنادًا !!

ولما كانت العينات لا تدل على ما يريدونه عمد القوم إلى بئر الرواية أحيانا وإلى إعادة صياغة الرواية بأسلوبهم أحيانا، وإلى تحميل الألفاظ ما لا تحتمل من المعاني في معظم الأحايين.

وأعترف أنهم قد بذلوا في سبيل الله جهدا عظيما ينكر ولا يشكر، وحتى لو سلمت لهم هذه العينات، وسلم أنَّها تدل على ما يريدونه منها، فإنها ستبقى مع هذا الافتراض عينات قليلة لا تقوى على تمثيل ما ذكره العلماء من تراث ضخم، صحيح النسبة إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولما أدرك أصحاب هذا الاتجاه أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا أحدا بسلامة المنهج فيما ذكروه، جنحوا إلى القضايا الخلافيَّة، وربما تلك القضايا التي يكون الخلاف فيها لفظيًّا من نحو قضية الشفاعة، ومالوا إلى رأى مخالف للجمهور، واصطنعوا شبهة وتعلقوا بها تعلقا شديدا على وجهها كما ذكرها أصحابها من غير زيادة عليها، وهم بالطبع لا يريدون أن يحسموا هذه القضايا أو يصلوا فيها إلى رأى معين، وإنَّما كل ما أرادوه هو لونٌ مِنَ التشويش على العقول والضوضاء التي تصم الآذان، بحيث يتمكنون من هذه الحال من أَنْ يوهموا العامة بسلامة منهجهم وصدق قضيتهم.

وقد حاولتُ أن أذكر لك كل ما ذكروه لتكون معى على بينةٍ مِمَّا أرادوه، حتى ننتهي جميعًا إلى هذه النتيجة الحاسمة، وهي: **إن القول بإنكار السنَّة واتخاذ الذرائع إليه واصطناع الأسباب في محاولة إثباته، ما هو إلَّا اعتداء صارخ على المناهج العلميَّة ومجافاتها.**

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الخامس

دقة المحدثين في نقل السُّنَّة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الآن وقد وصل بنا الحديث إلى نهايته في مناقشة منكري السنَّة فعرضنا تصوراتهم وشبههم ومشاغبتهم بدقةٍ تفوق ما كانوا يريدون أن يصلوا إليه في عرضهم لمذهبهم، ثُمَّ ناقشناهم مناقشةً علميَّةً قصدنا منها أول ما قصدنا أن نبتعد بها عن المقاصد والبواعث بقدر الإمكان، وكان ما أردناه بفضل الله ونعمته.

وقد بقى أمامنا الآن أن نعرض للجمهورِ المنهجيَّة التي اتبعها العلماءُ في تسجيلهم للسنَّة وتدوينهم الحديث النبويَّ الشريف.

والتاريخ له قضاياه الخاصة والتي يحكمها منهج خاص.

في ماضي الزمان كان المؤرخون يعتمدون على مجرد الرواية ويسجلونها هكذا كما وردت، والكتب تمتلئ بهذه الروايات وتتضخم تضخمًا عظيمًا.

والقراء يقرأون هذه الكتب بإكبارٍ وإعزاز واحترام، وهم يجهلون الجهل كله أنَّهم باحترامهم لهذه الكتب يكون مثلهم كمثل الذي يستسمن ذا ورم، واستمرَّ الحال على هذا النحو في الشرق وفي الغرب إلى أَنْ جاء عبد الرحمن بن خلدون في القرن الثامن الهجريّ فلم يعجبه هذا الحال، ولم ينخدع بالورم فيستسمنه، وإنَّما رأى أَنَّ التاريخ يحتاج إلى منهج،

الجديد و طهري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومنهجه غائب ولن ينصلح التاريخ ورواياته إلَّا على أساس من منهج سليم.

والتفت ابن خلدون التافتة صائبةً إلى النص نفسه الذي يتناقله الرواة، ورأى أن هذا النص يحتاج إلى تحليل وتمحيص ودراية، ووضع لذلك علمًا خاصًا اقترحه وأسماه (علم العمران)، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ علم العمران عِلْم مهم لأمرين:

أحدهما: أَنَّه سيصلح من التاريخ ورواياته ويذيب عنه شوائب الهوى وحكايات الخيال،

وثانيهما: أَنَّ هذا العلم سيؤسس على قواعد، ويضم مجموعة من المسائل، وستكون له غاية تؤدي إليها وسائل.

والعلم بهذا المعنى يكون شريفًا في ذاتِهِ عظيمًا، لأَنَّهُ يؤدي غرضه ويضيئ النفس البشرية منطقة كانت قد أظلمت[1].

وفرح التاريخ والمؤرخون بصنيع ابن خلدون، ثُمَّ هبت الرياح على هذا الضوء الخافت وحاصره الظلام محاصرة شديدة حتى بدا مختفيًّا عن العيون إلى أن جاءت العصور المتأخرة ففتشت في التاريخ الإسلامي، وعثرت على هذه المحاولة القديمة فطورتها فظهرت للنَّاسِ تحمل سمة فلسفة التاريخ، ثم عاد به المؤرخون والعلماء على وجه

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤ وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العموم إلى وضعها الأول (علم العمران) وهو الذي ظهر فيما بعد يحمل أسماء مختلفة إلى أَنْ اصطلح أهل الفن على تسميته بـــ (علم الاجتماع).

والذي ينظر في هذه المحاولات جميعًا يرى أَنَّ النص التاريخيَّ قد احتاط به المنهج من ناحيتين،

الناحية الأولى: تتصل بالرواة،

والناحية الثانية: تتصل بالنص المروي.

المؤرخون يفعلون ذلك ويحاولون محاولات لم تستقر بعـــد، فـــي حين أَنَّ هناك جمهرة من علماء المسلمين منذ القرن الأول الهجري ومـــا بعده بقليل قد انتهوا تمامًا من وضع المناهج الدقيقة التي تتصـــل بالســـند وتتصل بالمتن على السواء .

ولم يكن الدافع وراء هؤلاء المحدثين هو إنشاء علمٌ له شرف العلم في ذاته فحسب، ولم يكن هدف المحدثين هو إنشاء علم له من القواعد ما يصون بها علمًا آخر وكفى، ولكنهم يقصدون إلى ذلك قصدًا ثانيًا .

أَمَّا قصدهم الأول فقد كان هو الحفاظ على سنة النبـــيﷺ مـــن الضياع أو الاختلاط ، كان قصدهم الأول ألَّا يتسلل إلى سُـــنَّةِ النبـــيﷺ أمور ليست منها، وألَّا يتفلت ويخرج من سُنَّةِ النبيِّﷺ أمور هـــي مـــن صميم هذه السُنَّة، وهي صحيحة النسبة إلى خاتم المرسلينﷺ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولقد كانت نيتهم منعقدة على أنَّهم يبذلون هذا الجهد وهم يقصدون من ورائه رضا الله ﷻ، ومحبة رسوله ﷺ، والتقرب إلى الله بالحفاظ على سنة نبيِّه وإنقاذ أمته من أن يضيع جزء من تشريعها وهم ينظرون .

إِنْ علمًا مِنَ العلوم يكون الدافع وراء العمل فيه والبحث في مسائله الحصول على محبة الله ورضاه، لهو علم قد حصل على السهم المعلي وحاز قصبة السبق في ميدان السباق بين العلوم .

والذي يقرأ بإخلاص في تاريخ هؤلاء القوم يجد بعناية أَنَّ النَّاسَ قد خدموا العلم خدمة عظيمة، ووضعوا أيديهم على الجانبين جميعًا مِن جوانب منهج التاريخ وهما فحص السند وفحص المتن جميعا .

وقد أطلقوا على فحص السند وما يلزمه من قواعد اسم (علم الحديث رواية) كما أطلقوا على فحص المتن اسم (علم الحديث دراية).

وتقدَّمَ النَّاسُ تقدُّمًا عظيمًا في هذين الجانبين جعل بعض الكاتبين يقول ونحن نوافقه فيما يقول كما يوافقه غيرنا في مقالته (لا يستطيع من يدرس موقف العلماء ـ منذ عصر الصحابة إلى أن تَمَّ تدوين السُنَّةِ ـ من الوضع والوضاعين وجهودهم في سبيل السُنَّةِ وتمييز صحيحها من فاسدها، إِلَّا أَنْ يحكم بِأَنَّ الجهد الذي بذلوه في ذلك لا مزيد عليه، وأن الطرق التي سلكوها هي أقوم الطرق العلميَّة للنقد والتمحيص، حتَّى لنستطيع أن نجزم بِأَنَّ علماءنا رحمهم الله، هم أول من وضعوا قواعد النقد العلمي الدقيق للأخبار والمرويات بين أمم الأرض كلها، وأن جهدهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك جهد تفاخر به الأجيال وتتيه به على الأمم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم[١].

في أيام النبيِّ ﷺ كان الصحابة ينقلون عن النبي ﷺ أقواله وأفعاله، والصحابي يسمع من النبي ﷺ ، ثم ينقل إلى صحابي آخر شاء الله ألا يكون معه في مجلس النبي ﷺ، وإنما شغلته عنه ما يوجه الإسلام إليه الناس من الانشغال بأسباب المعايش وتحصيل الأرزاق.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يحبون مجالس النبي ﷺ ويستجيبون للإسلام في نفس الوقت حين يطالبهم بالعمل من أجل تحقيق الرزق والأخذ في أسبابه.

وكانوا يحرصون الحرص كله على الاستجابة لأمر الله وعلى ألا يضيع منهم شئ من أحاديث رسول الله ﷺ وما يدور في مجلسه، فكانوا يحتالون لذلك بأن يتفق اثنان من الصحابة على أن يتبادلا الحضور مع النبي ﷺ وملازمته يومًا بعد يوم، فهذا يذهب يومًا لتحصيل معايشِهِ، في حين أنَّ زميله يلازم النبي ﷺ نهاره ويحفظ عن النبي ﷺ قوله وفعله، فإذا جاء صاحبه قَصَّ عليه ما سمع ورأى من النبي ﷺ فيحفظه عنه، وفي اليوم الثاني يتبادلان المواقع، فالذي انشغل بالأمس في تحصيل معايشه يلزم النبي ﷺ اليوم ويتابع مجالسه ويذهب أخوه ليأخذ في

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٩٠.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تحصيل أرزاقه وينشغل بأسباب معايشه، فإذا ما عاد سمع من صاحبه ما رآه من أفعال النبيﷺ وما سمعه منه .

واستمرَّ الحال على هذا النحو يأخذ الصحابة بعضهم عن بعـــض، لا يرو أحدهم رواية صاحبه، ولا يطالبه على ما نقله بالدليل.

فالصحابة جميعا يسمعون من النبي ﷺ سماع العبادة والطاعـــة، وهم جميعا ينظرون إلى النبي ﷺ نظرة من يبتغي أن يقلده طمعـــا فـــي رضا الله ومغفرته.

ولم يكن الواحد منهم يحتوي قلبه على شئ خفي يعتقده أو يعتنقـــه بقصد الكيد إلى الإسلام ونبيه .

وعاش المسلمون على هذا النحو يتقبل الواحد منهم رواية إخوانه من غير أدنى تحفظ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إسناد الحديث : ـ

وكان ما كان مِمَّا أرادَهُ الله ﷻ مِنَ الفتنة الكبرى، ونشأ في ظل هذه الفتنة مَا نشأ من الأحزاب السياسيَّة التي تحولت فيما بعد إلى فرق دينيَّة.

والأحزاب السياسية في كل عصر ومصر يرتكب كل حزب منها في سبيل تأييد مذهبه الصعب والذلول.

والذي كان يروج من أمور السياسة في ذلك العصر هو ما يخاطب المشاعر الإيمانيَّة، فالناس جميعا كانوا مسلمين، وإسلامهم قوي جارف، وكانوا مؤمنين ولإيمانهم أثر على سلوكهم في الحياة، ومن أراد أن تكون له الغلبة حاول أَنْ يقترَّبَ مِنَ الدين يؤيد ما ارتآه بنصوص منه.

والذين يكونون على جادة الطريق لن يعدموا هذه النصوص الصحيحة النسبة إلى النبي ﷺ ، كما أنهم لن يعدموا الفهم الصحيح في كتاب الله وسنة رسوله، فالحق أبلج ظاهر لن يتنكب الطريق إليه إلا صاحب هوى أو ابتداع .

الذين هم على جادة الطريق إذن سيجدون ما يؤيدهم في مذهبهم وينصرهم على الشيطان وحزبه.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

غير أَنَّ سنَّة الله في خلقه اقتضت أن يكون للحــق منــاوئ، وأن يكون في مقابلة النور ظلمة، وفي مقابلة الهدى ضلال، وفي مقابلة الرأي الرأي الآخر.

وأصحاب الرأى الآخر في عصر الفتنة الكبــرى كثيــرون رأى بعضهم أن يضع الحديث لتأييد مذهبهم فوضعوه، وفطرة الناس ما زالت سليمة.

وإلى جوار هؤلاء أناس آخرون غير المسلمين قد انهزموا أمــام المسلمين في ساحات القتال، فرأى كبراؤهم ومفكروهم أن يدخلوا علــى المسلمين في دينهم بقصد تشويه نصوصه وإضافة ما ليس منهــا إليهــا، وإخفاء ما هو منها إن أمكن ذلك.

أضف إلى هذين بعض الجهلة من الناس الذين خيــل إلــيهم أنــه بالإمكان حمل الناس على الأعمال الصالحة بأحاديث مبتكرة ترغبهم في هذه الأعمال بكثرة الثواب عليها أو بالتخويف من أضرارها أو التكاســل عنها.

حدث ذلك كله والفطرة في نقائها وسلامتها وكثير من الصحابة ما يزال حيا، فتنبهوا لذلك ووضعوا خطة عاجلة لمقاومته، والزمان ما يزال زمان الصحابة والوقت ما يزال متاحا جدا للفحص والتنقية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تَنبَّه من الصحابة رجال فلم يقبلوا من حديث رسول الله ﷺ إلا ما عرفوا إسناده، وإلا ما عُرِضَ عليهم أسماء رجاله.

ولم يكونوا سلبيين أمام النص، ولكنهم كانوا ببصيرتهم يفهمون ويميزون بين صحيح النسبة للنبي ﷺ، وما زُيِّفَ عليه.

وها هو ابن عباس ﷺ تروي عنه مواقف تنسب إليه فتؤكد ما ذكرت لك.

جاءَ في مقدمة صحيح مسلم: وحدثني محمد بن عباد وسعيد بن عمرو الأشعثي جميعا، عن ابن عيينة، قال سعيد: أخبرنا سفيان عن هشام بن حجير عن طاوس، قال: جاء هذا إلى ابن عباس رضي الله عنهما (يعني بشير بن كعب) فجعل يحدثه فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له ثم حدثه، فقال له: عد لحديث كذا وكذا فعاد له، فقال له: ما أدري ، أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا؟ أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا؟ فقال ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يكذب عليه. فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه. اهـ

وحدثني محمد بن رافع، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قالَ: إنما كنا نحفظ الحديث. والحديث يُحفظ عن رسول الله ﷺ فأمَّا إذ ركبتم كل صعب وذلول فهيهات . اهـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي مسلم أيضًا إلى مجاهد قالَ : جاء بشير العدوي إلى ابن عباس ﷺ فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه فقال: يا ابن عباس! مالي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عَنْ رسول الله ﷺ ولا تسمع، فقال ابن عباس: إنَّا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقولُ: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب النَّاس الصعب والذلول، لم نأخذ من النَّاسِ إلَّا ما نعرف.

وعن ابن أبي مُليكة، قال: كتبت إلى ابن عباسٍ أسأله أن يكتب لي كتابا ويخفي عني. فقال: ولد ناصح أنا أختار له الأمور اختيارا وأخفي عنه، قال فدعا بقضاء علي. فجعل يكتب منه أشياء ويمر به الشئ فيقول: والله ما قضى بهذا على. إلَّا أن يكون ضل.

وعن طاوسٍ قال: أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء على رضي الله عنه فمحاه إلَّا قدر. وأشار سفيان بن عيينة بذراعه .

وعن أبي بكر بن عياش قال: سمعتُ المغيرة يقول: لم يكن يصدق علي عليٍّ رضي الله عنه في الحديث عنه، إلَّا من أصحاب عبد الله بن مسعود.

حرص الصحابة هذا الحرص كله بعد عصر الفتنة وما نجم عنها، وحرص كحرصهم كبار التابعين الذين عاصروهم، وقد بلغ من هذا الحرص أن متأخري الصحابة وأوائل التابعين ما كانوا يبخلون بجهدهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في طلب العلم، وإنما كانوا يرتحلون من مصر إلى مصر قاطعين الفيافي والقفار من أجل حديث واحد أو بعض حديث كانوا يعرفون أن فلانا سمعه من رسول الله ﷺ أو سمعه ممن سمعه من رسول الله ﷺ.

وما كانوا يحبون أن يأخذوا ذلك بكثرة الوسائط، ولذا فقد حملتهم الرغبة في العلم الصحيح إلى كثرة الارتحال.

وكأني بك مأخوذا مشدوها وأنت تتصور ابن عم رسول الله رضي الله عنهما يقول لك أنه كان يعلم أَنَّ حديثًا ما عند فلانٍ مِنَ النَّاس، وهو يحب أن يعلمه من مصدره، ولو أرسل إلى راوي الحديث كي يأتيه ويحدثه لفعل مغتبطا بذلك راضيًّا، ولكن ابن عباس لم يشأ أن يفعل فكان يذهب إلى الرجل الذي يريد أن يعلم من طريقه في وقت الظهيرة فيكره أن يزعجه فيقيل أمام بابه حتى يخرج إليه فيسأله عن الحديث، وإن بعضهم ليخرج إلى ابن عباس وهو على هذا الحال، وابن عباس يسأله ويأخذ عنه، والعالم يعطيه ثم يقبل يديه وهو يقول له: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا، ويقبل ابن عباس يده ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا.

أهذا حديث العواطف والأشجان أم أَنَّه حديث الواقع التاريخي الذي يؤكد حرص الأمة في خاصتها على أهل بيت نبيها، وحرص آل بيت النبي على عدول الأمة الذين يتوارثون علمها .

وقد أحسن ابن عبد البر رحمه الله حين كتب قطعة يبين من خلالها جهود العلماء من صغار الصحابة وكبار التابعين في طلب العلم، وتحري

الدقة في ذلك تحريا غير معهود في أمة من الأمم، ولكن الله أراد لأمة النبي الخاتم أن تحافظ على علم نبي أخبر به بعد أن أوحى إليه به، فكان للأمة رصيدًا محفوظًا من الضياع إلى أن يقبض الله العلماء فيخلفهم الجاهلون فيسألون فيجيبون بغير علم فيضلون ويضلون.

وأنا سأنقل إليك الآن قطعة ثمينة تعبر عن اهتمام صغار الصحابة وكبار التابعين بسنَّةِ سيد المرسلين ﷺ، كتبها عالم جليل هو ابن عبد البر ، لا أجد مني عوضا عن كلامه فأردت أن أنقل كلامه بين يديك لعل الله يفتح له بابًا من أبواب قلبك فتسر بما فعل رجال السلف من أمتك، قال تحت عنوان باب ذكر الرحلة في طلب العلم: [حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا أحمد بن زهير قال حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا عبد الواحد بن زياد قال حدثنا صالح بن صالح الهمداني قال حدثنا الشعبي قال حدثنا أبو بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : "أيما رجل كانت عنده وليدة، فعلها وأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، وأعتقها فتزوجها فله أجران، وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وأيما مملوك أدى حق مواليه وأدى حق ربه فله أجران " خذها بغير شئ قد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة (كان) الشعبي يقوله.

وحدثنا عبد الوارث حدثنا قاسم حدثنا أحمد بن زهير حدثنا محمد بن سعيد أخبرنا شريك عن صالح بن حبان عن عامر قال : حدثني أبو

بردة عن أبيه عن النبي ﷺ مثله، قال وقال عامر: أخذتها مني بلا شيء وقد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة .

أخبرنا أحمد بن قاسم قال أخبرنا قاسم بن أصبغ قال أخبرنا الحارث بن أبي أسامة قال أخبرنا هدية ويزيد بن هارون ـ واللفظ لهدية ـ قالا حدثنا همام قال حدثنا القاسم بن عبد الواحد قال سمعت عبد الله بن محمد يحدث عن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فابتعت بعيرا فشددت عليه رحلي ثم سرت إليه شهرا حتى قدمت الشام فإذا عبد الله بن أنيس الأنصاري فأتيت منزله وأرسلت إليه أَنَّ جابرًا على الباب، فرجع إلى الرسول فقال جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج إلى فأعتنقته واعتنقني، قال قلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه أنا منه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يحشر الله تبارك وتعالى العباد أو قال الناس ـ شك همام ، وأومأ بيده إلى الشام ـ حفاة عراة غرلا بُهما ، قال قلنا ما بُهما ؟ قال : ليس معهم شئ ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ويسمعه من قرب : أنا الملك الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة. ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة. قال قلنا له كيف وإنما نأتي الله ﷻ حفاة عراة غرلا قال: بالحسنات والسيئات.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحدثنا عبد الله بن محمد بن أسد قال حدثنا إسماعيل بن محمد بن محفوظ الدمشقي قال حدثنا أحمد بن علي بن سعيد القاضي قال حدثنا شعبان بن فروخ قال حدثني همام بن يحيي عن القاسم بن عبد الواحد قال: حدثني عبد الله بن محمد بن عقيل أن جابر بن عبد الله حدثه قال: بلغني، فذكره .

وروى سفيان بن عيينة عن ابن جريج قال : سمعت شيخا من أهل المدينة قال سفيان هو أبو سعيد الأعمى يحدث عطاء أن أبا أيوب رحل إلى عقبة بن عامر فلما قدم مصر أخبروا عقبة فخرج إليه قال: حدثنا ما سمعته من رسول الله ﷺ في ستر المسلم لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من ستر مسلما على خزية ستره الله يوم القيامة" فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة وما حل رحله.

وذكر الحلواني قال: حدثنا زيد بن الحباب قال حدثنا ابن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، فلو شاء أن أرسل إليه حتى يجيئني فيحدثني لفعلت، ولكني كنت أذهب إليه فأقيل على بابه حتى يخرج إلى فيحدثني.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حدثني ابن عباس قال حدثني ابن أبي مريم قال حدثنا خالد بن نزار قال حدثنا مالك بن أنس عن يحيي بن سعيد قال، قال سعيد : إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد.

قال أبو عمر: روينا هذا الخبر من طرق عن مالك من رواية ابن وهب وعبد الرحمن بن مهدي عن مالك أن سعيد بن المسيب قال: إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد. ووصله خالد بن نزار عن مالك عن يحيي بن سعيد عن سعيد بن المسيب، وخالد بن نزار مصري ثقة. أخبرنا أحمد بن عبد الله ابن محمد قال حدثني أبي قال حدثنا عبد الله بن يونس قال حدثنا بقي بن مخلد حدثنا أبو بكر قال حدثنا وكيع عن سفيان عن رجل لم يسمه أن مسروقا رحل في حرف، وأن أبا سعيد رحل في حرف.

قال أبو بكر: وحدثنا ابن عيينة عن أيوب عن مخلد عن الشعبي قال: ما علمت أن أحدا من الناس كان أطلب لعلم في أفق من الآفاق من مسروق. قال حدثنا وكيع حدثنا على بن صالح عن أبيه قال حدثنا الشعبي بحديث ثم قال لي أعطيتكه بغير شئ وإن كان الراكب ليركب إلى المدينة فيما دونه.

وحدثنا عبدة بن سليمان عن رجل قال قال لنا الشعبي في حديث أعطيناكها بغير شئ، وإن كان الراكب ليركب فيما دونها إلى المدينة.

الجديد و طهري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال وحدثنا زيد بن الحباب عن شعبة عن عمارة عن أبي مجلز عن قيس بن عبادة قال خرجت إلى المدينة أطلب العلم والشرف حدثنا يونس بن عبد الله بن معتب قال حدثنا محمد بن معاوية قال حدثنا الفريابي قال حدثني أحمد بن أبي الحواري الدمشقي قال حدثنا الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن بسر بن عبيد الله الحضرمي قال: إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه.. [١].

إنني أتأمل كلام ابن عبد البر وهو يحكي عن صغار الصحابة وكبار التابعين هذا الحديث عن ارتحالهم في طلب العلم، فأظن أن الخيال ما كان يستطيع أن يرسم صورة لجيل من الأجيال يبلغ من جهود هؤلاء ولا عشر معشارهم.

ثم أتساءل: ما الدافع وراء هذا الجهد المبذول، وما المحرك وراء هذا العمل المضني إلى حد استفراغ الوسع والطاقة ؟ .

وكان الجواب أولاً: ما ذكرت لك من أن الدافع وراء هذا كله هو هذا الحرص على رضا الله ونوال مغفرته، وثانيًا: أَنَّ هؤلاء قد رأوا أن من آفات الأخبار رواتها، فأرادوا أن يتجنبوا الوسائط ما أمكنهم ذلك،

---

[١] جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله لأبي عمر يوسف بن عبد البر، ج ١ ص ١١١ : ١١٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيأخذون الخبر من مصادره، ويرشفون رشفات علمية من هـذا المعين الرائق الذي صلته برسول الله ﷺ مباشرة ، وأنوار النبوة لم تنقطع عنه.

هذا لونٌ من ألوان تحمل الأخبار، وهذا درب فريد فـي المناهج حين ينهجه علماء المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم نقل سنة رسول الله ﷺ كما وقعت.

والنَّاس في طول البلاد وعرضها لم يأخذوا على علماء المسلمين مأخذا في تحملهم الحديث فيما عدا أصحاب الهوى ومرضـى القلـوب، والمناهج العلمية تأباهم وترفضهم، يرحم الله صغار الصحابة وكبـارهم، ويرحم الله أوائل التابعين وأواخرهم، ويرحم الله من أخلص في دينه قولا وعملا .

ولم يكن تحمل المشاق في سبيل الرواية، ولم يكن تحمـل قسـوة الرحلة من هنا إلى هناك في سبيل حرف أو حرفين هما ميـزة علمـاء المسلمين الوحيدة التي تميزهم في مجال المنهج التاريخي، وإنما كانـت لهم ميزة أخرى لا تقل عن هذه الميزة اعتبارًا، إذا أردنا المفاضلة بـين الرجال في مجال ابتكار المناهج واصطناعها.

وهذه الميزة التي نقصد إليها هي ما يعرفه علماء الحـديث باسـم (الإسناد)، والإسناد هو: (رفع الحديث إلى قائله) وهو والسند (متقاربـان في معنى اعتماد الحفاظ في صحة الحديث وضعفه عليهما)، كما ذكـره

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الطيبيُّ إذْ السند هو الإخبار عن طريق المتن كما قال البدر ابن جماعة والطيبي.

وهو مأخوذٌ إِمَّا مِنَ السند، وهو ما ارتفع وعلا من سفح الجبل، لأنَّ المسند يرفع إلى قائله، أو من قولهم: فلان سند، أي معتمد.

ونحن نسمي (الأخبار) عن طريق المتن سندًا لاعتماد الحفاظ في صحة الحديث وضعفه عليه[١].

والإسناد أو السند بهذا المعنى قد ابتكره المسلمون ابتكارا واصطنعوه في مجال العلم اصطناعًا لا مزيد عليه.

وإذا كان المسلمون هم الذين اصطنعوا الإسناد بعد ما ابتكروه في مجال تمحيص السنَّة وهي من التاريخ، فإنهم وإلى الآن يتربعون القمة في هذا المجال لم يصعد إليهم من خالفهم أو ناوأهم، وبقيت روايات التاريخ في الغرب على وجه الخصوص محرومة من هذه الدقة في النقل ، وليس من الإنصاف أو من دقة العلم ومنهجيته أن يُقال إننا سنستعيض عن السند في مجال الرواية لتمحيص المتن معتمدين على القدرة الخارقة التي يتميز بها الباحث في مجال التاريخ، والشئ العجيب والعجيب جدا أنَّ الباحث في مجال التاريخ إذا أتت إليه رواية من الروايات مبتورة من أولها أو ناقصة من آخرها، أو محذوفا منها من وسطها فإنَّ أمام الباحث

---

(١) راجع تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي لجلال الدين السيوطي ج١ ص٤١ ،٤٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مساحة مسموح بها في مجال علم التاريخ، تعطي الباحث الحق في أن يكمل هذه الفراغات من صنع خياله، وأنا لست بحاجة بعد ما ذكرت لك كي أقول إنَّ رواية التاريخ بعد ما سمح للباحث أن يضيف إليها من خياله لم تعد معبرة عن الواقع بأمانة ودقة .

ونعود إلى ميزة المسلمين التي امتازوا بها عن غيرهم، وهي ميزة الإسناد لتجد المسلمين في مجال الإسناد وقد تحروا الدقة البالغة ونبهوا على ذلك في عدة محاور تدفعهم إلى العمل، وترفع عنهم جميعهم الحرج والتأثم.

ومن هذه المحاور :

أولاً: أَنَّهم قد اعتبروا الإسناد مِنَ الدين .

ولم لا وهم لم ينشطوا إلى ابتكار الإسناد واصطناعه منهجًا لهم إلا للحفاظ على سُنَّةِ النبي ﷺ؟!، ولذا فقد صرح كبراؤهم بهذه الحقيقة.

يقول محمد بن سيرين رحمه الله : إِنَّ هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

ويقول عبد الله بن المبارك رحمه الله : الإسنادُ مِنَ الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثانيًّا: إِنَّ القوم في إسناده لم يقصدوا إلى الرواية إلا عن الثقات، إذْ الثقة مأمون على روايته، والثقة عند القوم له معايير وصفات وضوابط بعضها يتصل بإمكاناته وعدده واستعداداته في مجال العلم، فـلا يجـوز عندهم مثلاً أَنْ يكون الرجل كثيرَ الغفلة لكبر سِنِّهِ أو اختلاطٍ في عقلـه، ولا يجوز عندهم مثلا أن يكون الراوي ضعيفًا في حفظه، ناقصًـا فـي همته واهتمامه، وبعض هذه الصفات التي اشترطوها في الراوي تتصـل بأخلاقه وشيمه فهو لا يجوز عندهم أَنْ يكونَ من أهل البدع والأهواء، إذا اشتهر بتعصبه لبدعته وهواه، وهو لا يجوز عندهم أَنْ يكـونَ مخالطًـا للمعصية يغلب عصيانه طاعته أو يساويها، وهو لا يجـوز عنـدهم أن يكون قد اشتهر بالكذب ولو في غير مجال الحديث ونقل الرواية .

إِنَّ القوم على الجملة قد اشترطوا أَلَّا ينقلوا إِلَّا عَـنْ الثقـة علـى اتساع هذه الكلمة، وما يفيده هذا الوصف من معنى، وقد قالوا في ذلـك كلامًا يتناقله الرواة عنهم، وخاصةً أوائلهم من كبار التـابعين وصـغار الصحابة .

يقول ابن سيرين ﷺ: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلمَّا وقعـت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخـذ حـديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.

وقال سليمان بن موسى ﷺ: لقيت طاوسًا فقلتُ: حـدثني فـلان كيت وكيت قال: إن كان صاحبك مُليا فخذ عنه.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقصد طاوسٌ من قوله مليًّا: الرجل يكون ثقة ضابطا متقنا يوثق بدينه ومعرفته ، يعتمد عليه كما يعتمد على الملي بالمال ثقة بذمته .

وقد يكون الرجل صاحب دين، ولكنه لا يؤخذ عنه في الحديث لأنَّه ليس من أهله.

روى ابن أبي الزناد عن أبيه قال: أَدْركتُ بالمدينة مائة كلهم مأمون. ما يؤخذ عنهم الحديث. يُقال : ليس من أهله .

وعن سفيان بن عيينة عن مسعرٍ قال: سمعت سعد بن إبراهيم يقول: لا يُحَدِّثُ عن رسول الله ﷺ إلَّا الثقات.

والواحد من هؤلاء قد تستثار حميته وتهيج غريزته، ويدفع في وجهه بمغريات المكانة الاجتماعيَّة فلا يستجيب لحميَّةٍ كاذبة ولا لغريزة تعمل في غير وظيفتها الحقيقيَّة، وإِنَّما يضع الحق في نصابه.

روى مسلم بن الحجاج في مقدمة صحيحه قال: حدثني أبو بكر بن النضر بن أبي النضر قال حدثني أبو النضر هاشم بن القاسم حدثني أبو عقيل صاحب بهية قال: كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيي بن سعيد فقال يحيي للقاسم: يا أبا محمد! إِنَّه قبيح على مثلك عظيم أن تسأل عن شئ من أمر هذا الدين، فلا يوجد عندك منه علم، ولا فرج، أو علم ولا مخرج فقال القاسم: وَعَمَّ ذاك؟ قال: لأنَّك ابن إمامي هدي بن أبي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بكر وعمر. قال يقول له القاسم: أقبح من ذاك عند من عقل عــن الله، أن أقول بغير علم أو آخذ من غير ثقة. قال فسكت فما أجابه.

حدثني بشر بن الحكم العبدي قال: سمعت سفيان بن عيينة يقــول: أخبروني عن أبي عقيل صاحب بهية أَنَّ أبناء لعبد الله بن عمــر ســألوه عن شئ لم يكن عنده فيه علم فقال له يحيي بن سعيد: والله إني لأعظــم أن يكون مثلك، وأنت ابن إمامي الهدى، يعني عمر وابن عمر، تسأل عن أمر ليس عندك فيه علم فقال: أعظم من ذلك، والله، عند الله، وعند مــن عقل عن الله، أن أقول بغير علم أو أخبر عن غير ثقة. قال: وشــهدهما أبو عقيل يحيي بن المتوكل حين قالا ذلك.

ثالثًا: إِنَّ القوم قد عَرَضَ لهم هنا مسألة فقهيَّة وخلقيَّة فــي نفــس الوقت وهم لم يترددوا في حسمها من غير أن يقع بينهم الخلاف.

وبيان ذلك أننا منهيون دينًا وخلقًا عن أَنْ يغتاب أحدٌ منا صاحبه، وتقييم الرجال في رواية الحديث لا يخلو عن إبراز عيوب المجــروحين منهم وغير الثقات من رجال الرواية، وكانت المعضلة أمامهم هي: هــل يستجيب دارس الحديث إلى القاعدة العامة التي تنص علــى أَنَّ الغيبــة محرمة شرعًا، وفي هذه الحال يترك دارس الحديث المجــروحين بغيــر بيان، فينخدع بهم من ينخدع ويقع الضرر على العلم، وينال الســنَّة فــي روايتها ما ينالها من إلحاق روايات ليست منهــا، أم أَنَّ دارس الحــديث عليه أن يبرز عيوب المجروحين والضعفاء ويبين للناس أسباب ضعفهم،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي هذه الحال يلحق الضرر بهؤلاء المجروحين من حيث إنَّ الواحد منهم سيظهر بين النَّاسِ سيئ السمعة والسيرة .

والقوم من الحصافة وحسن الرأى، والقدرة على الموازنة بين الأمور، بحيث رأوا أنه لابُدَّ من تحمل أخف الضررين في قضيةٍ لابُدَّ من تحمل أحد الضررين فيها ولا مفرَّ مِنْ ذَلِكَ، وأخف الضررين هو ذلك الذي سيقع على الفرد، وكان هو المتسبب الأول فيه، فالمسألة هنا لا تعدو أن يقوم دارس الحديث بإبراز صفةٍ خلقية في شخصٍ هو الذي جلبها على نفسه، وفي هذا على أيَّة حال إيذاءٌ سيقع على فرد واحد من النَّاس حين يصرح عالم الحديث بما في هذا الفرد من العيوب التي جلبها هو على نفسه.

أَمَّا حين يكتم دارس الحديث هذا العيب الذي اطلع عليه من الراوي فإنَّه بذلك يكون قد أوقع ضررًا على أمة في أعز ما تملك من غير أن يكون هذا الراوي المجروح مستحقًا للستر عليه.

قارن علماء الحديث ووازنوا ولم يطل أمد المقارنة والموازنة ثُمَّ انتهوا بالإجماع إلى القول بجواز إبراز ما في المجروحين من العيوب، غير أَنَّهم لِمَا انطبع فيهم مِن خلق النبوَّةِ رأوا أَنَّ الإشارة إلى المجروح تجوز في حدود ما يعرف حاله معها من الرواية، وليس لدارس الحديث فوق ذلك أن يستجيز لنفسه إبراز أمورٍ في الراوي لا تخدم الناقلين عنه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولو تفحصت كتب الجرح والتعديل التي تتحدث مثلاً عن الضعفاء والمتروكين وهي كثيرة لوجدت عباراتهم لا تعدو ما أتيح لهم من حدود.

المهم أَنَّ القوم قد استجازوا لأنفسهم أن يبرزوا ما في السند من المجروحين، وأن ينبهوا النَّاسَ علنًا إلى أَنَّ هؤلاء القوم لا تقبل رواياتهم في فن الحديث.

قال أبو إسحق إبراهيم بن عيسى الطالقاني، قلتُ لعبد الله بن المبارك: يا أبا عبد الرحمن، الحديث الذي جاء "إِنَّ مِنَ البر بعد البر، أَنْ تُصلي لأبويك مع صلاتك، وتصوم لهما مع صومك" قَالَ: فقال عبد الله: يا أبا إسحق عَمَّنْ هذا؟ قال: قلتُ له: هذا من حديث شهاب بن خراش. فقال: ثقة. عَمَّنْ؟ قال: قلتُ: عَنْ الحجاج بن دينار. قال: ثقة عَمَّنْ؟ قال: قلتُ: قال رسول الله ﷺ، قالَ: يا أبا إسحق! إِنَّ بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز، تنقطع فيها أعناق المطي، ولكن ليس في الصدقة اختلاف.

وأنت خبيرٌ إن كان لك بهذا الفن صلةٌ أَنَّ ابن المبارك طعن في هذه الرواية لِمَا فيها من انقطاع السند، وأرشد سائله إلى عدم الأخذ بما ترشد إليه من أحكام كالصوم عن الميت والصلاة له، وأن يأخذ بمبدأ التصدق على ميته، وقد وردت من طرقٍ صحيحة ليس عليها خلاف بين القوم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي المسألة عن ابن المبارك أيضًا فيما نقله عنه على بن شقيق قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول على رؤوس النَّاسِ: دعوا حديث عمرو بن ثابت فإنَّه كان يسب السلف.

وعن يحيي بن سعيد قال: سألت سفيان الثوري وشعبة ومالكا وابن عيينة، عن الرجل لا يكون ثبتًا في الحديث فيأتيني الرجل فيسألني عنه، قالوا: أخبر عنه أنه ليس بثبت.

وعن النضر أنَّه قال: سُئِلَ ابن عونٍ عن حديث لشهر وهو قائم على أسكفة الباب، فقال: إِنَّ شهرا نزكوه إن شهرا نزكوه.

قال مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: يقولُ: أخذته ألسنة الناس. تكلموا فيه.

ومسلم قد فهم ذلك من قوله : نزكوه إذْ معناها الأول من حيث وضعها اللغوي: طعنوه بالنيزك وهو الرمح القصير، ودلالة العبارة على المقصود واضحة.

وعن عبد الله بن المبارك قال: قلت لسفيان الثوري: إِنَّ عباد بن كثير من تعرف حاله، وإذا حدث جاء بأمر عظيم فترى أن أقول للنَّاس: لا تأخذوا عنه؟ قال سفيان: بلى. قال عبد الله: فكنتُ إذا كنت في مجلس ذكر فيه عباد، أثنيت عليه في دينه، وأقول: لا تأخذوا عنه.

قال عبد الله بن المبارك : انتهيت إلى شعبة فقال: هذا عباد بن كثير فاحذروه .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وروى مسلم بن الحجاج عن بعضهم قال: حدثني الفضل بن سهل قال: سألت معلي الرازي عن محمد بن سعيد، الذي روى عنه عباد، فأخبرني عن عيسى بن يونس، قال: كنت على بابه وسفيان عنده . فلما خرج سألته عنه، فأخبرني أَنَّه كذاب .

وجماع القول إِنَّ القوم قد امتازوا مِنْ بين الأمم بميزةِ إسناد الروايَّةِ، وهم حين أسندوا هذه الروايات قد اعتبروا هذا الإسناد من الدين، ولم يأخذوا إلَّا عن الثقات من المسلمين، وقد أجمعوا على جواز إبراز حال المجروحين كما رأيت وهو أمر عظيم له ميزته في مجال المناهج والحديث عنها في ميزان من يتعرضون لتقييم المناهج.

ولم يكن هذا الذي ذكرت لك شيئا نظريًّا يقولونه ولا يطبقونه ليعد من قبيل السياحة الذهنيَّة يتفاخرون به في أسواق الأدب، أو في حلبة السباق في مجال القول والحديث، وإنَّما هذا الذي ذكرته لك ونسبته إلى هؤلاء القوم قد تحول على أيديهم إلى شئ عملي محسوس، ودونك مثلا أو مثلين يؤكدان صحة ما نقول: فهذا ابن سيرين وهو إمامٌ متقدم من أئمة الحديث يقولُ عَنْ إخوانه من المحدثين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد. فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم .

ويقول ابن المبارك: بيننا وبين القوم القوائم يعني الإسناد[١].

---

(١) صحيح مسلم : المقدمة ص ١٤ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نقـــد الـــرواة :ـ

ظهر لَكَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ المسلمين في روايتهم للســنَّة النبويَّــة قــد اصطنعوا لها القوائم، وابتكروا السند والإسناد، وهــي أمــور ظهــرت أهميتها بين أمم الدنيا كأشياء لها قيمة في تأسيس قواعد المنهج .

ولم يكن الإسناد عندهم مجرد ذكر راو تحمل عن راو مــن أول السند إلى منتهاه في عدة أجيال من الموتى، أو في مجموعة طبقات مــن الموتى والأحياء، وإنَّما وضع المسلمون قواعد وضوابط يعرضون كــل راو عليها حيث تعد هي ميزان الشعرة الدقيق الذي يقاس إليه الــراوي، فإما أجيزت روايته بعد هذا العرض أو ترك الأخذ عنه.

ونحن حين نتأمل القواعد التي ذكروها أو المعايير التــي نصــوا عليها نجد أنها أمور في مجموعها صعبة التحقيق وعزيزة المنــال ممــا جعل بعض العلماء من المحدثين أنفسهم يطالب إخوانه بأن يخففــوا مــن قسوة هذه الشروط ويقللوا من ثقل وطأتها، ولكنهم لــم يفعلــوا، وبقيــت شروطهم هكذا مرعية إلى أن وضعت السنَّة في حصنها المنيع الــذي لا ينال منه هوى مكابر أو جموح في الطبع معاند .

ودعنا من لفت الأنظار إلى ما يجب أن تحتله السنَّة في النفــوس من التقدير بِأَنَّ المخلص للعلم تكفيه الإشارة، وَأَنَّ مَنْ فسد طبعه لا تقومه ألف عبارة .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

دعنا من هذا لندخل معًا على قائمة الشروط التي وضعها أهل العلم وطلبوا تحقيقها في كل راوٍ للحديث إذا ما أراد منا أن نقبل روايته .

وجميع الشروط التي اشترطها العلماء يمكن أن نجمعها أمامك في نقطتين اثنتين هما معًا ناصية الأمر كله وهما ــ العدالة والضبط ــ .

أ ــ العــــــدالة : ــ

والعدالة تطلق عند تحقق مجموعة من الشروط الجزئيَّة في الراوي وهي: البلوغ، والعقل، والإسلام، والسلامةُ مِنْ أسباب الفسق وخوارم المروءة.

وهذه الجزئيَّات الأربع هي الأخرى ينطوي تحتها أمور هي أكثر تفصيلاً، ولكنها على أَيَّة حالٍ لابُدَّ مِنْ اجتماعها حتَّى تتحقق العدالة للراوي.

وَإِنْ كان لبعضهم شئ من التفصيل هنا، كأن يقفوا عند شرط البلوغ فيقول بعضهم إِنَّه يكفي في الراوي أَنْ يكون مُميزًا ولو كان صبيًّا إذا توافرت فيه الشروط الأخرى، وتلك على أَيَّةِ حالٍ قضيَّة خلافيَّة.

وعدالة الراوي تثبت إذا شهد له شاهدان بأنَّه رجل عدْل، وقيل: يكفي شاهد واحد إذا كانَ مَنْ شهد للراوي بالعدالة عدلا .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويحتاج الراوي إلى مَنْ يعدله إذا لم يكن مشتهرًا بين النَّاسِ بالعدالة كالسفيانين والثوري والشعبي وأحمد بن حنبل وغيرهم، فإنْ كان الواحد منهم مشتهرًا بالعدالة كهؤلاء الذين ذكرت لك، فإنَّ أحدا لا يطلب على عدالتهم شاهدًا .

فهذا أحمد بن حنبل يُسأل عَنْ إسحق بن راهويه فيقول: مثل إسحق يُسأل عنه ؟!

وهذا ابن معين يُسأل عن أبي عبيد فيقول: مثلي يسأل عن أبي عبيد؟ إِنَّ أبا عبيد هو الذي يُسأل عن الناس.

ويرى أبو عمرو بن عبد البر أَنَّ راوي الحديث على أصل القاعدة العامة وهي أَنَّ المسلمين كلهم عدول إلَّا من ظهرت عوامل تجريحه .

ويُفهم من كلام ابن عبد البر: أَنَّ راوي الحديث لَا يسأل عن حاله ولا يطلب من يعدله ما دام لم يظهر منه عوامل تجريحه، وابن عبد البر بذلك يكون قد توسع جدًّا في قبول الرواية عن الرواة، وقد تساهل في نفس الوقت في تحقيق شرط العدالة، وهي أمور لم يقبلها منه إخوانه من العلماء وردوها عليه لما فيها من التساهل المذكور.

والعدالة في الرواة تشبه إلى حَدٍّ كبيرٍ اشتراطها في الشهود عند التقاضي، ولا فرق بين الحالتين في الجملة إلَّا أَنْ نقول: إِنَّ الفقهاء في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

باب الأقضية والشهادات قد اشترطوا في الشاهد بالإضافة إلى ما ذكرناه الحرية والذكورة، وهذان الشرطان لا محل لهما هنا في رواة الحديث.

ب ـ الضبط : ـ

وهم يفسرون الضبط بأن يكون الراوي للحديث متيقظًا، ومعنى أن يكون متيقظا أَنَّه لا تعتريه الغفلة إذْ المغفل عندهم مطعون في روايته، وأن يكون حافظًا متمكنا من حفظه إن كان يروي معتمدًا على حفظه، ضابطًا لكتابه آمنًا عليه من التبديل والتغيير إن كان يحدث من كتاب، كما أَنَّهم يشترطون لتحقيق الضبط أنْ يكون الراوي عالمًا بِمَا يغير المعنى ويحيله إذ كان سيحدث بالمعنى .

وهذه الأمور الثلاثة في مجموعها تعطينا معنى الضبط، فليس بضابطٍ مَنْ كان غير متيقظ، وليس بضابط من لم يكن حافظا إن كان يحدث من حفظه، ومن لم يعتن بكتابه ويأمن عليه من التبديل والتغيير إن كان يحدث من كتاب، وليس بضابط من لم يعرف الأمور التي تحيل المعنى وتغيره.

فالعدالة والضبط إذًا هُما جماع القول في راوي الحديث، والعلماء يدرسونهما جميعا حين يتعرضون لعلم الحديث رواية، ويرتبون على هذين الأمرين أمورًا تتعلق جميعها بالراوي من حيث قبول الرواية أو رَدِّهَا، فهم يقبلون رواية الرواة حين يتحقق فيهم هذان الشرطان،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأصعبهما تحققا في الراوي هو شرط العدالة، ولـذا فإنَّـكَ تجـد دارس الحديث يهتم بمراعاة هذا الشرط اهتمامًا يكاد يرهق طبيعة المحدثين.

فلو اختلف النَّاسُ مثلاً في راوٍ معين بعضـهم يصـفه بالعدالـة وبعضهم يجرحه ويطعن في عدالته، نرى علماء الحديث يرجحون جرحه على تعديله؛ لأنَّهم يقولون: إِنَّ الذي قد جرحه لديه من المعلومـات مـا يزيد على مَنْ عَدَّلُوه، ومن هنا يقدمونه على غيره ويجرحـون الـراوي لذلك.

وهذا إذا كان الذي قد جرحه قد أتى بسبب ذَا بال، أَمَّا حين يعلـن الباحث في الحديث أَنَّ فلانا من الرواة مجروحٌ من غير أن يبين سـبب الجرح؛ فإنَّه لا يقبل منه ذلك على الأرجح، إذْ من الممكن أن يكون الذي حكم عليه أنَّه مجروح، يكون لديه من الأسباب التي تعـد مـن أسـباب التجريح عنده، وهي في الواقع ليست كذلك.

وقد ذكر السيوطيُّ أَنَّ الخطيب ذكر طائفة مِمَّا يصلح للتمثيل فـي هذا المقام، روى فيه عن محمد بن جعفر المدائني قال: قيل لشـعبة: لـم تركت حديث فلان؟ قال: رأيته يركض على بـرذون فتركـت حديثـه، وروى عن مسلم بن إبراهيم أنَّه سُئِلَ عن حديث صالح المري، فقال: وما تصنع بصالح؟ ذكروه يوما عند حماد بن سلمة فامتخط حماد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وروى عن وهب بن جرير قال: قال شعبة : أتيت منزل المنهال بن عمرو، فسمعت صوت الطنبور فرجعت، فقيل له: فهلا سألت عنه إذْ لا يعلم هو ؟

وروينا عن شعبة قال: قلت للحكم بن عتيبة: لم لم ترو عن زاذان؟ قال: كان كثير الكلام، وأشباه ذلك[١].

ويترتب على اشتراط العدالة والضبط في الراوي أَنَّهم يردون روايَّة مَنْ ثبت أَنَّه كذب على النبي ﷺ ولو مرة.

واختلفوا فيه من جهة هل كذبه على النبي ﷺ يرجع به كافرًا أم هو دون ذلك ؟!

واختار بعض العلماء أَنَّه يكفر بِكذبِهِ على النبي ﷺ، في حين اختار بعضهم الآخر أَنَّه لا يكفر ذلك.

غير أَنَّ القضية الهامة والتي تتصل بهذا الذي ثبت أَنَّه كذب على النبي ﷺ هي حكم هذا الذي ثبت كذبه إذا مَا عاد وتاب ..

والرأى الأرجح عند المحدثين أَنَّ مَنْ كذب على النبي ﷺ ولو مرة ترد أحاديثه في أزمنته الثلاثة، فهو ترد أحاديثه الماضية جميعها، وهو لا يقبل حديثه في الحال، فهو لا تقبل روايته في مستقبل حياته ولو

---

(١) تدريب الراوي ج١ ص ٣٠٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تاب عن جريمته، لأن النبي ﷺ قد رتب على هذه الجريمة عذابا أليما بوحيٍّ مِنَ الله تعالي، ولعل توبته تنفعه فيما بينه وبين ربه ﷻ.

وَمَنْ يتأمل اشتراط الضبط والعدالة في الراوي يجد أَنَّ القوم قد رتبوا على ذلك رَدَّ رواية من ثبت كذبه في أموره العامة، أعني أَنَّه لا يكذب على النبي ﷺ ولكنه يكذب في غير ذلك، فهو على أي حال غير مؤتمن في روايته، لكنه إذا تاب وأعلن توبته من هذا العمل الذي يمارسه وهو تعاطي الكذب، فإنَّه عند الجمهور تقبل روايته.

وهذا هو الفرق بين مَنْ يثبت كذبه على النبي ﷺ، وَمَنْ يثبت كذبه في الأمور العامة التي تتصل بهذه الحياة التي نعيشها.

فالذي يكذب على النبي ﷺ لا تقبل روايته ولو تاب،

والذي يكذب في غير ذلك ترد روايته فإنْ تاب = قُبلت.

والقوم يرتبون على اشتراط العدالة والضبط في الراوي رَدَّ رواية أصحاب الأهواء والبدع وشريطة أن يثبت أن صاحب البدعة والهوى قد كفر يقينا ببدعته لا احتمالاً، إذْ قد درج الناس على تكفير مخالفيهم في الرأى وهم غير كافرين.

أَمَّا مَنْ ينكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، أو يخرج من عقيدته خروجًا صريحًا والعياذ بالله فَإِنَّ هذا ترد روايته، وكذلك يرد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العلماء على أهل الأهواء والبدع روايتهم إذا ثبت أن الواحد منهم يخترع الأحاديث ويبتكرها لتأييد بدعته، وهذا يرجع إلى النوع الذي ذكرناه قبل.

وهذه كلها أمور قد ترتبت على اشتراط العدالة والضبط حيث أصبح المحدث راوي الحديث في نوع من الجهد حيث كلف منهجيًّا من أمور الشريعة ومكونات الشخصيَّة ما يكاد يستغرق معه الوسع والطاقة، وهي أمور كلها تجعلنا نكبر رجال الحديث في أعيننا ونرفعهم إلى مصاف أهل العلم الحقيقيين والصفوة من النَّاسِ، والممتازين من الرجال.

وبعد هذا أراك ستنظر معي نظرة الإكبار لمنهج ابتكره المسلمون، اعتمد على السند وتأسس على فحص الرجال وعرضهم على قواعد قاسية، ووضعهم في أطر لا يقوى عليها إلَّا الأشداء[١].

(١) راجع تدريب الراوي ج١ النوع الثالث والعشرون ص ٢٩٩ وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أ ــ وضع قواعد عامة لتقسيم الحديث وتمييزه:

وَمِمَّا يتصل بمنهج المحدثين في التأكد من الرواية والتحقق من المروي أنهم قد أضافوا إلى ابتكار الإسناد والتحقق من الرجال مجموعة من القواعد العامة على أساس منها يقسم الحديث إلى أقسام وأنواع باعتبار الثقة فيه وعدم الثقة.

والمسلمون على اختلاف مذاهبهم مجمعون على ضرورة تقسيم الحديث وتصنيفه ووضعه في درجات يعلو بعضها فوق بعض.

وهم مع اتفاقهم على هذا المبدأ يختلفون فيما بينهم على أسلوب التقسيم اختلافًا أَدَّى إليه الإطار المذهبيّ العام الذي ينطوي تحته فكر كل طائفة من الطوائف، فبينما يقسم أهل الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف نرى الشيعة الإماميَّة يقسمون الحديث إلى صحيح وموثق وحسن وضعيف.

فالقسمة ثلاثيَّة عند أهل السنة، ولكنها عند رجال الشيعة رباعيَّة، وقد قُلنا إنَّ الدافع إلى هذا الاختلاف هو الإطار المذهبي العام، وهذا يتضح لنا حين نعرض لتعريف كل قسم من الأقسام من منظور كل طائفة من الطوائف، وسوف نحاول أن نعبر عبورًا سريعًا على تعريفاتِ الشيعة بمقدار ما يتضح لنا من اتجاههم المذهبيّ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١ــ **فالصحيح عند أهل الشيعة هو:** مَا اتصل سنده إلى المعصوم (ع) بنقل الإمام العدل عَنْ مثله في جميع الطبقات.

وأنت ترى من هذا التعريف أَنَّ شرط الصحة عندهم أَنَّ سلسلة الرواة يكونوا جميعها من الإماميَّة، والإماميَّة عندهم شرط كما هو واضح ثم تنتهي السلسلة مِنْ إماميٍّ عَنْ إماميٍّ إلى المعصوم .

ولعلك قد رأيت الآن هذا الإطار المذهبي الذي اتضح لك من خلال التعريف .

فأهل السنة ليس عندهم هذا اللون من العصمة لغير النبي ﷺ وهو متوافر ضمن الإطار المذهبي للشيعة الإماميَّة .

٢ــ **والموثق عندهم:** ما دخل في طريقة من نص الأصحاب على توثيقه مع فساد عقيدته، ولم يشتمل باقيه على ضعف .

وفسادُ العقيدة التي نصوا عليها ليس هو بالأمر المخرج من الملة على ما نرى وإلَّا كان أصحاب المذهب يأخذون روايات الحديث عن الكافر كفرًا صراحًا وهو أمر غير معقول.

وإنَّما فساد العقيدة هنا يبدو أَنَّه لونٌ من الخفة في الدين ونوع من التساهل في اتباع الشرع، ومن التساهل في اتباع الشرع عند الشيعة ألا يلتزم الراوي التزاما تاما بقضايا المذهب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا الأمر له نظير عند أهل السنة على ما رأيت قبل، إِذْ إِنَّ علماء السُنَّةِ يقبلون الرواية عن راو له اتجاه مذهبي، شريطة ألا يكون الحديث واضح الدلالة في تأييد المذهب الذي ينتمي إليه؛ لأنَّ هذا الوضوح نفسه يحمل الباحث على اعتقاد شبهة الوضع، أو افتراضها على الأقل.

وإني لأتساءل فيما بيني وبين نفسي عن الراوي الذي تسقط هيبته الدينيَّة، ومع ذلك يكون ماهرًا من حيث الضبط والاعتناء بالتحمل والأداء، هل يعد هذا عند الشيعة الإماميَّة مِنَ المحدثين الثقات على أساس أنهم يعتبرون المهنة فقط، ومقدار حذف الراوي لها ؟!

إن كان الأمر على ما نظن أو نعتقد أَنَّ عبارتهم تدل عليه، فَإِنَّ أهل الشيعة يكونون قد حسموا مسألة كان بعض أهل السنَّة[١] يتمنون حسمها بشكل من الأشكال، وإن كان جمهور أهل السنة قد تشددوا غاية التشدد في شرط العدالة في الراوي يضمونه إلى شرط الضبط لا تقبل رواية الراوي عندهم عند غياب واحد منهما.

٣ــ والحسن عند أهل الشيعة هو: ما يتصل سنده إلى المعصوم (ع) بإمامي ممدوح من غير نص على عدالته، مع تحقق ذلك في جميع مراتبه أو بعضها، مع كون الباقي من رجال الصحيح.

---

[١] راجع المسألة في تدريب الراوي ج١ ص ٣٤٠ ، ٣٤١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والحسن بهذا التعريف عند الشيعة يكون قد حكم عليه بالحسن من حيث هو في الواقع ونفس الأمر، وليس ذلك هو حال الحسن عند أهل السنّة كما سيتضح بعد.

٤ـ أَمَّا الضعيف عند الشيعة الإماميَّة فهو: ما لا يجتمع فيه شروط أحد الثلاثة المتقدمة، بأن يشتمل طريقه على مجروح بالفسق ونحوه، أو مجهول الحال . وهو تعريف واضحٌ لا سترة به(١).

هذا هو ما ذكره الشيعة في أقسام الحديث وتصنيفه.

أَمَّا مَا ذَكَره أهل السُنَّة مِنْ تقسيم الحديث فهو دائر على أقسام ثلاثة : ـ

١ ـ الصحيح :

وقد عرَّفوهُ بِأَنَّهُ مَا اتصل سنده برواية العدل الضابط عن مثله من أول السند إلى منتهاه من غير شذوذ أو علة.

وكُتَّابُ علوم الحديث مهما اختلفت عباراتهم فهي مؤدية جميعها إلى هذا الغرض، ومعظم الخلاف بينهم متصل بالصياغة والدقة الفنية في الدلالة على المقصود.

---

(١) راجع قواعد الحديث ، محيي الدين الموسوي الغريفي طبع دار الأضواء بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ص ٢٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحين يعرف الصحيح بِأَنَّه ما اتصل سنده برواية العدل الضابط عن مثله من أول السند إلى منتهاه من غير شذوذ أو علة، فإنَّ هذا التعريف نفسه يستبعد مجموعة كبيرة من الأحاديث المرويَّة، تحتاج كلها من العلماء وقفة تأمل، فمن خلال هذا التعريف يخرج: المنقطع والمعضل، والمعلق، والمدلس، والمرسل، والمرسل لا يخرج على نحو ما ذكرناه إلَّا على القول الذي يرده، ولا يقبل الاحتجاج به، إذْ العلماء منقسمون بالنسبة لقبول المرسل إلى قسمين: فمنهم من يقبله من علماء الحديث، ومنهم من يرده [٢] ، وَمِنْ علماء الفقه والأصولِ مَنْ يقبل الاحتجاج به، ومنهم مَنْ يرفض ذلك.

ويخرج هذا التعريف أيضًا ما ينقله المجهول جهالة عين أو جهالة حال، كما يخرج المعروف بالضعف من باب أولي.

ويخرج بالتعريف كذلك ما ينقله المغفل كثير الخطأ .

أضف إلى ذلك الحديث الشاذ ، والحديث الملل بعلة [١].

٢ـ الحسن :

هذا هو النوع الثاني من الأنواع الثلاثة التي قَسَّمَ علماءُ الحديثِ من أهل السنَّة الحديث إليها.

---

[٢] هناك طائفة من العلماء تتوسط الطائفتين فتقبل المرسل بشروط ذكروها ، كالشافعيِّ.

[١] راجع تدريب الراوي ج١ ص ٦٣ ، ٦٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والحديث الحسن وسطٌ بين الحديث الصحيح والحديث الضعيف وهذه الوسطيَّة ذاتها قد جعلته خاليًّا من العناصر الموضوعيَّة التي يمكن أخذها في التعريف فتميز المعرَّفَ تميزًا حقيقيًّا من بين قرنائه.

ومن أجل هذا كان تعريف الحسن بطريقة موضوعيَّة أمرًا عسيرًا إذْ الحكم بالحُسن على حديثٍ معينٍ مبني في حقيقة الأمر على وجدان داخلي يجده الخبير في علم الحديث من نفسه وهو يقرأ حديثًا معينًا .

والاعتماد على هذا الوجدان أو الحدس الذي ينقدح في ذهن العالم الخبير أمرٌ مشروع منهجيًّا في جميع العلوم حتى التجريبيِّ منها، إذْ الحدس عِنْدَ العالم من أَجلِّ نعم الله عليه باعتباره أول خطوة في طريق صحيح يتعين على العالم سلوكه وهو يبحث عن قضية معينة، وليس معنى ذلك أن العالم سيعتمد على حدسه وحده في الحكم على حديث بعينه، وإنَّما سيكون لهذا الحديث متتابعات وروايات من طرق أخرى تعضد هذا الحدس وتقويه .

توسط الحديث الحسن إذن بين الحديث الصحيح والحديث الضعيف واعتماده على حدس الخبير في علم الحديث بالدرجة الأولى جعل التعبير عنه ضعيفا، فضلا عن إرادة الدقة الفنيَّة في التعبير عن الحديث، والسبب هنا معروف، وهو أَنَّ العالم من علماء الحديث، والراوية الخبير له قد ينقدح في نفسه شئٌ مَا بحكم خبرته وقوة الدربة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لديه، لا تسعفه اللغة في التعبير عنه، فيأتي تعبيره ناقصا حين نحتكم إلى قواعد المنطق في اختبار الحدود.

وهذا أمرٌ قد لاحظه بعض علماء الحديث أنفسهم.

قال الحافظ البلقينيُّ: الحسن لما توسط بين الصحيح والضعيف عند الناظر كان شيئا ينقدح في نفس الحافظ، وقد تقصر عبارته عنه، كما قيل في استحسان، فلذلك صعب تعريفه، وسبقه إلى ذلك ابن كثير(١).

ولما كان التعريف تكتنفه هذه الصعوبات وجدنا الكثير من العلماء يقسمونه أولاً إلى قسمين، ثُمَّ يعرفون كل قسم على حدة، لعل التعريف لكل قسم على حدة يضفي على المعنى شيئًا من الجلاء، فالشيخ النواوي يسلك هذا المسلك ثم يعزوه إلى ابن الصلاح في مقدمته.

قال النواوي في التقريب: قال الشيخ : ــ يعني ابن الصلاح ــ هو ــ أي الحسن ــ قسمان:

أحدهما: ما لا يخلو إسناده من مستور لم تتحقق أهليته، وليس مغفلا كثير الخطأ، ولا ظهر منه سبب مفسق، ويكون متن الحديث معروفا براوية مثله أو نحوه من وجه آخر.

---

(١) تدريب الراوي ج١ ص ١٦٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الثاني : أن يكون راويه مشهورا بالصدق والأمانـــة، ولـــم يبلـــغ درجة الصحيح لقصوره في الحفظ والإتقان، هو مرتفع عن حال من يعد تفرده منكرًا[٢]. اهـــ

والحديث الحسن لم يكن معروفًا في عصر المبعث، بل لـــم يكـــن معروفا في المائة الأولى بتمامها، وإنَّما عُرِفَ فـــي عصـــورٍ متـــأخرة واستقرَّ الأمر على هذا الاصطلاح فيما بعد ..

يقول الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله: هذا ولم يكن قدماء المحـــدثين في القرن الأول والثاني قد اصطلحوا على تسمية قسم من الأحاديث بهذا الاسم (الحسن) وإنَّما حدث بعد ذلك في عصر أحمد والبخاري، ثُمَّ اشتهر بعد ذلك[١]. اهـــ

٣ــ الضعيف :

هذا هو النوع الثالث والأخير.

وقد عَبَّرَ عنه القوم بِأَنَّه هو الذي خـــلا عـــن شـــروط الصـــحيح وشروط الحسن، ولو أَنَّهم قالوا: إِنَّ الضعيف هو ما خلا عـــن شـــروط الحسن فقط لكان كلامهم كافيًا، وشروط القبول عند العلماء ســـتة هـــي:

---

[٢] تقريب النواوي بشرح السيوطي ج١ ص ١٥٨.

[١] السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٩٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الاتصال، والعدالة ، والضبط، والمتابعة في المستور، وعدم الشذوذ، وعدم العلة.

وهذه الشروط الستة لو اجتمعت = كان الحديث مقبولا، إِمَّا في درجة الصحيح بقسميه، أو في درجة الحسن بقسميه باعتبار قوة تحقق هذه الشروط وضعفها.

أَمَّا أَنْ يغيب واحد من هذه الشروط أو أكثر = فَإِنَّ هذا الغياب ينزل بالحديث من درجة المقبول إلى درجة الضعيف.

والضعيف بعضه أوهى من بعض، كما أَنَّ المقبول بعضه أعلى من بعض، والمعيار هو نفس الشروط الستة، فالحديث الذي يغيب منه شرط واحد، غير الحديث الذي يغيب منه شرطان، والحديث الذي يغيب منه الشرط الأول والثاني غير الحديث الذي يغيب منه الشرط الأول والثاني والثالث، وهكذا أخذ العلماء يرتبون هذه الشروط من حيث غيابها، ويضربون بعضها في بعض ليخرج العدد معهم زائدا على المائة بحسب العقل، بالغًا إلى الثمانين بحسب إمكان الوقوع، لكن السيوطيّ تبعًا لغيره رأى أَنَّ هذه العملية الحسابيَّة خالية من الفائدة العمليَّة، إذْ هي إلى التجريب أقرب.

وقد ذكر العلماء من أصناف الحديث الضعيف طائفة:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فمنه (المنقطع) وهو = أَنْ يسقط من الإسناد رجلٌ(غير الصحابي) أو يُذكر فيه رجلٌ مبهم.

ومنه (المعضل) وهو = مَا سقط من سنده إثنان فصاعدا، ومنه ما يرسله تابع التابعي عن الرسول ﷺ.

ومنه (الشاذ) وقد عَرَّفه الشافعيُّ = بِأَنْ يروي الثقة حديثا يخالف ما روى الناس فهذا يتوقف فيه، وعرفه حفاظ الحديث = بأنَّه ما ليس له إلا إسناد واحد يشذ به ثقة أو غير ثقة فيتوقف فيما شَذَّ به الثقة ولا يحتج به، ويرد ما شذ به غير الثقة. وتعريف الشافعيُّ أَوْلى لأنَّه يلزم على التعريف الثاني التوقف في أحاديث كثيرة لا يرويها إلَّا راو واحد من الثقات، كيف وقد قال مسلمٌ: للزهري تسعون حرفًا لا يرويها غيره ؟!

ومنه (المنكر) وهو = مَا شَذَّ بِهِ الراوي الذي ليس بعدل ولا ضابط فإنَّه يرد ولا يقبل.

ومنه (المضطرب) وهو = أَنْ تختلف روايات الحديث في متنه أو سنده، ولا يمكن ترجيح إحداها على الباقية لاستوائها جميعا في الصحة ورواية الثقات، وهو ضعيف إلَّا أنه إذا كان الاختلاف في اسم راو أو اسم أبيه أو نسبته مثلا ويكون الراوي ثقة، فعندئذ يحكم للحديث بالصحة[1].

---

[1] السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٩٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوضع وسماته : ـ

تحدثنا حديثًا موجزًا عن السند واختباره وعن الرواية عن الثقات وعن تقسيم الحديث باعتبار هذا السند إلى أقسامه الثلاثة، وهذا حديث اقتضته ضرورة المنهج.

وتقتضي ضرورة المنهج أن نضيف إلى ذلك الحديث عن الوضع والموضوع وعلامات الحديث الموضوع.

ولقد اقتضت الظروف السياسيَّة والدينيَّة في بعض الأحيان أن يقدم النَّاس على وضع الحديث على رسول الله ﷺ، وهذا أمر وارد لا يعيب السنَّة ولا يعيب رجالها، وإنَّما الذي ينال من مكانة السنَّة ومن علم رجالها أن تمر حوادث الوضع من غير معيار يبتكره العلماء يخرجون على أساس منه ما عسى أن يكون قد زيف على سنَّة رسول الله ﷺ ، وأُلحَقْ بها زورًا وبهتانًا.

وعلماء الأمة ـ نفعنا الله بعلمهم ـ كانوا من الوعي بحيث ابتكروا لكل ضلالة الضوء الذي يكشف عن جذورها، والطاقة التي تبلغ من القوة بحيث تردها وتدفع في صدرها.

وجهودهم في سبيل الكشف عن الحديث الموضوع لا تقل عن جهودهم السابقة، بل هي من نفس المعين وتنتمي إلى نفس هذا الجنس والنوع.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولذلك فإنك تراهم وهم يبحثون عن علامات الوضع في الموضع، يقسمون هذه العلامات إلى قسمين:

قسم يتصل بالسند ويتعلق بالرجال وفي هذا القسم تجد لعلماء الأمة قواعد ثابتة تشتمل عليها علوم منفردة كلها يخدم سنة رسول الله ﷺ وينقيها مما علق بها .

والقسم الثاني يتعلق بالمتن ذاته وهنا تتركز جهود الأمة فتفرز مجموعة من القواعد هي بمثابة المصابيح الكاشفة التي تضئ جوانب المتن وتكشف عن خفاياه، بحيث يعبر هو عن نفسه وعما إذا كان ينتسب حقا وصدقا إلى رسول الله ﷺ أم لا .

أ ـ العلامات التي تتصل بالسند :

ونحن نبدأ باستعراض العلامات التي تتصل بسند الحديث، وهي تشير إلى علامة الوضع فيه. ومن هذه العلامات :

أولاً: أَنْ يكون الراوي مشهورًا بين العلماء بالكذب سواء كان هذا الكذب على رسول الله ﷺ أو كان في الأمور العامة.

وسبق أن قلنا إنَّ الكذب على رسول الله ﷺ يردُّ حديث الراوي الحال منه والسابق واللاحق، وأن الكاذب على رسول الله ﷺ يكفر عند معظم العلماء بكذبه ، وإذا تاب لا تقبل روايته.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والعلماء ينظرون إلى من يكذب في أموره العامة ولم يكذب على رسول الله ﷺ نظرة أخف حدة من هذه النظرة، فهم مثلا يقبلون روايته إذا تاب على ما يرى جمهور المحدثين.

المهم أَنَّ مَنْ ثبت كذبه على رسول الله ﷺ ردت روايته، وحكمنا على هذه الرواية بالوضع إن لم يروها غيره، فإنْ جاءت من طريق أخرى صحيحة كان لها حكمها من الطريق الذي جاءت منه .

ثانيًّا: أَنْ يعترف المحدث بأنَّه يضع الحديث، والاعتراف برهان قويٌّ على أَنَّ الحديث الذي يأتي عن طريقه موضوع .

ولقد ثبت في التاريخ الخاص بالسنَّة النبويَّة وتدوينها أَنَّ بعض الرواة قد اعترف بأنَّه يضع الحديث على رسول الله ﷺ ، وهذه من بركات سنَّة النبيِّ ﷺ، وبركاتها كثيرة لا يعقلها إلا العالمون المؤمنون بها.

ومن هؤلاء الوضاعين الذين اعترفوا بأنَّهم يضعون الحديث على رسول الله ﷺ أبو عصمة نوح بن أبي مريم الذي اعترف بأنَّه وَضَعَ أحاديث فضائل سور القرآن الكريم، واعترف عبد الكريم بن أبي العوجاء بأنَّه وضع على النبيِّ ﷺ أربعة آ لاف حديث زورا يحرم فيها الحلال ويحلل فيها الحرام.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثالثًا: أَنْ يروي الراوي حديثا عن شيخ لم يثبت أنه قابله أو التقى به إذا كانا في زمان واحد، أو ثبت أن الشيخ قد مات قبل تلميذه الذي يدّعي أَنَّهُ أخذ عنه، أو أن هذا المدعي لم يثبت أنه دخل المكان الذي فيه شيخه الذي يدعي أنه روى عنه أو دخله لكن في وقت لم يكن الشيخ فيه.

ومن أجل ذلك اكتشف العلماء أَنَّهم محتاجون إلى إنشاء علوم منفصلة تخدم حديث رسول الله ﷺ من هذه الجهة، وَمِنْ أهمها علم الطبقات وتسجيل تاريخ الرجال، وقد أنشأوه إنشاء واهتموا به اهتمامًا لا نظير له في قطر آخر من أقطار العالم.

وقد أفادهم هذا العلم الذي اعتنوا به اعتناء شديدا في كشف الحديث الموضوع.

ومن أمثلة ذلك، أَنَّ مأمون بن أحمد الهروي قد ادَّعى أَنَّه سمع من هشام بن عمار، فسأله الحافظ ابن حبان: متى دخلت الشام؟ قال: سنة خمسين ومائتين. قال ابن حبان: فإنَّ هشاما الذي تروي عنه مات سنة خمس وأربعين ومائتين.

وكما حدث عبد الله بن إسحاق الكرماني عن محمد بن أبي يعقوب، فقيل له: مات محمد قبل أن تولد بتسع سنين.

وكما حدث محمد بن حاتم الكشي عن عبد بن حميد فقال الحاكم: هذا الشيخ سمع من عبد بن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي مقدمة مسلم: أَنَّ المعلي بن عرفان قال: حدثنا أبو وائل، قال: خرج علينا ابن مسعود بصفين، وقال أبو نعيم يعني الفضل بن دكين حاكيه عن المعلي: أتراه بعث بعد الموت؟ وذلك لأنَّ ابن مسعود توفى سنة اثنين أو ثلاث وثلاثين قبل انقضاء خلافة عثمان بثلاث سنين. اهـ

ولقد بلغ من اهتمام علماء الحديث بالتاريخ وعلم الطبقات أنْ قال حفص بن غياث القاضي: إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين، يعني سنه وسن من كتب عنه.

وقال سفيان الثوري: لَمَّا استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التواريخ.

<u>**رابعًا:**</u> وقد يبدو من حال الراوي وبواعثه النفسية بغاية الجلاء أنه يكذب على رسول الله ﷺ كما ظهر من حال سعد بن طريف فيما أخرجه الحاكم عن سيف بن عمر التميمي أنَّه قال: كنا عند سعد بن طريف فجاء ابنه من الكتاب يبكي فقال: مالك؟ قال: ضربني المعلم، فقال سعد: لأخزينهم اليوم، حدثني عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا : "**معلمو صبيانكم شراركم، أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين**"، ومثل حديث " **الهريسة تشد الظهر**" فإنَّ واضعه محمد بن الحجاج النخعي كان يبيع الهريسة[١].

---

[١] السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي من ص ٩٧.

ب ـ العلامات التي تتصل بالمتن :

وبعد هذه العلامات التي تتصل بالسند نشير إلى أهم العلامات التي تتصل بالمتن وهي كثيرة قد وضعت المؤلفات للحديث فيها وشرحها وتطبيقها على الأحاديث الموضوعة باستخراجها من بين نسب إلى النبي ﷺ من أحاديث ليصفو المعين وينقى ماؤه وينفي عنه خبثه.

ومن أهم ما أشار العلماء إليه من علامات الوضع في المتن : ـ

أولاً: أَنْ يبدو الحديث المنقول المنسوب إلى رسول الله ﷺ ركيكًا في لفظه، فإنَّ العلماء يعدون مثل هذا الكلام الركيك المنسوب إلى رسول الله ﷺ حديثًا موضوعًا، إذْ علامة الوضع فيه بارزة، فالله ﷻ قد منح نبيه ﷺ لونًا من الفصاحة لم يتوافر لغيره فهو يملك ناصية الكلام ويقبض على أزمة البلاغة، ويستحيل أن يخرج منه لفظ ركيك.

ثانيًّا: الاضطراب في المعنى، فكما منح اللهُ النبيَّ ﷺ الفصاحة في القول منحه كذلك الفصاحة بمعنى الدقة في معالجة الموضوع الذي يكون بصدده، فلا يأتي المعنى معه مضطربا، كما لا يمكن أن يرد على لسانه لفظ لا يحدد معناه بدقة، فإذا ما ورد شئ من ذلك منسوبا إلى النبي ﷺ فإنَّه يكون من باب الزور الذي لا تقبله العقول.

ثالثًا: أَن يأتي الحديث المنسوب إلى النبي ﷺ مخالفا لحقائق القرآن الكريم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومعنى أَنْ يكون الحديث مخالفًا لحقيقة قرآنيَّة؛ أَنَّه يأتي متناقضًا معها تناقضًا يحير العقول بحيث لا يمكن الجمع بينهما.

والحكم بأنَّ الحديث قد خالف حقيقة قرآنيَّة يحتاج إلى رجال ذوي بصر وبصيرة، إذْ من كثرت غفلتهم عن المناهج قد يظنون أنَّ الحديث حين يفصل مجملا، أو يجلي مبهما أو يخصص عاما، أو يضيف جديدا يكون قد خالف حقيقة قرآنيَّة، وهذا أمر قد دفع إليه قلة البضاعة في العلم، ونقص الفهم عن الله ﷻ وعن رسول الله ﷺ.

وهذه هي قضيتنا بتمامها بيننا وبين منكري السنَّة.

وأيّا ما كان الأمر فَإنَّ الحديث إذا خالف حقيقة قرآنيَّة مخالفة تجعل الجمع بينهما صعبًا عسيرًا على الباحثين، فإنَّ هذا الحديث يعد موضوعا على رسول الله ﷺ ، ومن وضعه يكون من الكاذبين.

رابعاً: وَمن علامة الوضع في الحديث المتصلة بالمتن أن يأتي الحديث مخالفًا لحقيقة تاريخيَّةٍ ثبتت أيام النبي ﷺ بأدلتها، وحيث جاء الحديث مخالفا لها مخالفة تصل إلى حد التناقض، وبحيث يصعب الجمع بينهما . ففي هذه الحال يُعد الحديث المخالف للحقيقة التاريخية موضوعا، وآية وضعه هو هذه المخالفة ذاتها.

خامسًا: أن يأتي الحديث يحكي حادثة لها من دواعي الاهتمام ما يجعل الكافة يتناقلونها، ويصرح أَنَّ النبي ﷺ قد قاله في زمان ومكان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحال تدفع المسلمين من الطبقة الأولى إلى روايته ونقله، ومن هذه الأمثلة تلك الأحاديث التي نصت على خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومنها حديث الدار وحديث غدير خم، إذْ حديث غدير خم مثلا يُروي على أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد قاله في حضور الصحابة جميعًا أو معظمهم على الأقل.

الحديث ينص وكذا سائر الروايات في خلافة على تنص بفحواها على أَنَّ الدواعي قد توافرت لنقلها على سبيل التواتر، ومع ذلك فلم يروها إلَّا آحاد الناس الذين لهم في روايتها غرض مذهبي، وكان ذلك وحده كافيًّا في الحكم عليها بالوضع.

سادسًا: أن يكون راوي الحديث له مذهب معين وهو معروف بالتعصب لمذهبه ووضع الأحاديث لتأكيد ما انتمى إليه من الآراء والأفكار ثم جاء حديثه موافقا لهواه، فإن مجئ الحديث على هذا النحو يعد آية من آيات الوضع فيه.

سابعًا: أن يأتي الحديث وهو يفرط في الوعد بالثواب العظيم على عمل صغير، فإن هذا الإفراط في الثواب آية من آيات الوضع في الحديث ولا ينفع صاحبه أن يعتذر بأنَّه قد فعل ما فعل ليحمل الناس على فعل الطاعات والإكثار منها، لأنَّ الله قد أكمل دينه وأتم على الناس نعمته.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذه هي آيات وعلامات الوضع في الأحاديث اتصل بعضها بالمتن واتصل البعض الآخر بالسند، وهي دقة عالية في اختبار الرواية، تضاف إلى ما ذكر من قبل في هذا الفصل لتؤكد لك جميعها أن علماء السنة قد وقفوا سدا منيعا أمام من أراد سنة النبي ﷺ بسوء فكشفوه وعروا سوءته، وفضحوا نواياه ومقاصده حتى بدا معين السنَّةِ رائقًا وسهمهما غاليًّا فائقًا .

ولقد ألف العلماء كُتُبًا كثيرة في الوضع والوضاعين وتتبعوهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتَّى لم يتركوا ثغرة لمرتاب ولا ترددا لمتشكك ابتغاء وجه الله ﷻ وطلبًا لرضاه .

ما يترتب على جهود المحدثين : ــ

ينظر الناظر في جهود المحدثين فلا يجد ثغرة يمكن أن ينفذ منها إلى الطعن على مناهجهم.

وينظر الناظر في جهود المحدثين فلا يجد عنصرا من عناصر المنهج قد غاب فيتخذ من غيابه تكأة بانتقاص عظيم منهم في عظمته أو ثلم شريف منهم في شرفه.

ينظر الناظر في جهود المحدثين فلا يجد إلَّا مجالا واسعا من التقدير والتكريم يضع هؤلاء المسلمين فيه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد ترتب على هذه الجهود التي بذلوها أمور كل واحد منها عظيم في بابه شريف في وظيفته فعال في مكانته من المنهج العلمي ومن هـذه الأمور.

١ـ تسجيل السنة والاعتناء بها :

حرص المسلمون من أيام النبي ﷺ على تسجيل سنة رسـول الله ﷺ بعناية مطلقة، وتابعوها بدقة فائقة .

وسبق أن ذكرنا أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كـانوا يتنـاوبون علـى مجلس النبي ﷺ في السماع منه ليوازنوا بين السماع وتحصيل المعـايش فلا يفوتهم شئ من تحصيل أرزاقهم، ولا يفوتهم شئ مما ينسب إلى نبيهم من الأقوال والأفعال والتقريرات.

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَالَ: كنتُ أنا وجار لي من الأنصار في بني أميـة بن زيد ــ وهي من عوالي المدينة ــ وكنا نتناوب النزول على رسـول الله ﷺ ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخير ذلك اليـوم مـن الوحى وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك، فنزل صاحبي الأنصـاري يـوم نوبته فضرب بأبي ضربًا شديدًا فقال: أثم هو؟ ففزعت، فخرجـت إليـه فقال: قد حدث أمر عظيم .. قال فدخلت على حفصة فإذا هـي تبكـي،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فقلت: طلقكن رسول الله؟ قالت: لا أدري. ثُمَّ دخلت على النبي ﷺ فقلت وأنا قائم: أطلقت نساءك؟ قال: لا. فقلتُ: الله أكبر[1].

اعتني المسلمون إذن بالسنَّة في عصر النبيِّ ﷺ اعتناءً عظيمًا وكان اعتناؤهم على طريقتهم، وطريقتهم هي طريقة العرب قاطبة التي تدور على اعتقاد أَنَّ الإنسان إذا أراد أن يعتني بشئ من العلوم له فيه منفعة فإنه يجب عليه أن يحفظه في ذاكرته ليدخل في مكونات شخصيته، ثم إن العرب إذا أرادوا الاعتناء بالعلوم والمعارف لم يجدوا أوسع عندهم من الحفظ فيحفظون معارفهم وأنسابهم وأشعارهم.

أعتني المسلمون إذن أيام النبي ﷺ بسنة النبي فحفظوها، والحفظ عندهم كان هو الوسيلة الأولى المتاحة لتسجيل العلوم والمعارف، وهي الوسيلة التي كانوا يتفاخرون بها فيما بينهم.

وإني لأرى أَنَّ منكري السنَّة قد تعسفوا قاصدين إلى التعسف حين قالوا إِنَّ السنَّة لم تحفظ في عهد النبيِّ ﷺ ولا العهود التاليَّة بِأَنَّها لم تدون كتابة حين سمعت أو رؤيت مِنَ النبي ﷺ.

وإني لأرى كذلك أَنَّ المسلمين حاولوا أن يدافعوا عن قضية طرحها أصحابها طرحا خاطئًا قاصدين إلى هذا الطرح الخاطئ حتى

---

(١) البخاري كتاب العلم باب التناوب في العلم حديث رقم ٨٩ وللحديث أطراف في صحيح البخاري راجع أرقام ٢٤٦٨ ـ ٤٩١٣ ـ ٤٩١٤ ـ ٤٩١٥ ـ ٥١٩١ ـ ٥٢١٨ ـ ٥٨٤٣ ـ ٧٢٥٦ ـ ٧٢٦٣ .

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يوقعوا المسلمين في حرج علميٍّ إِنْ هم أرادوا أن يجيبوا عن القضية المطروحة خطأ قبل أن يعدلوا في طريقة طرحها.

والقضية تطرح خطأً حين يُقال إِنَّ السنَّة لائقة فيها لأنَّها لم تحفظ بالكتابة والتسجيل الخطى.

والقضية يعدل طرحها فتكون صوابًا إذا قيل إِنَّ السنَّة قد حفظت واعتني المسلمون بها بأفضل طريقة متاحة للحفظ آنذاك.

ومع ذلك فإنَّه قد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أَنَّ النبي ﷺ قد أذن في كتابة السنَّة عنه في أخريات عصر المبعث.

وظل المسلمون بعد النبي ﷺ وفي عصر الراشدين أنفسهم يكتبون السنة في حذرٍ لما ذكرنا من الأسباب، مع قناعتهم بأن الكتابة وسيلة ثانية من وسائل حفظ العلوم، وإن كانوا يرونها وسيلة معيبة، إذ هم لا يريدون أن يحتفظ الواحد منهم بالسنَّة في كتاب يضعه في قمطر يرجع إليه كلما شاء، فإذا بعد عنه لا يدري شيئا عَمَّا في داخله، ولكنهم يحرصون غاية الحرص أن يكون الذي ينقل شيئا عن رسول الله ﷺ ينقله بعد أن استقرَّ في ذهنه محفوظًا وتحول على يديه عملا وسلوكا ملموسًا.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في عهد عمر بن الخطاب ﷺ رأى أَنْ يتحول بالسنَّة من عمل فردي إلى عمل عام ترعاه الدولة، ويشرف عليه أمير المؤمنين، ويوجه إليه العلماء بأمر نافذ وقرار مطاع.

ولقد استشار عمر بن الخطاب ﷺ أهل الحل والعقد، وأصحاب البصيرة والرأى فلم يعترض عليه واحد منهم، وإنما وافقوه إيمانا منهم بأن حفظ السنَّة من الدين، يستفرغ فيه الوسع ويبذل فيه أقصى الطاقة، ومن الطاقات المباحة والمتاحة الحفظ بالكتابة.

وظل عمر بن الخطاب ﷺ بعد أن أشار عليه النَّاسُ ووافقوه على ما يريد، ظل يستخير ربه شهرًا كاملا، ثُمَّ رأى بعد ذلك ألَّا يفعل، وكان الصواب ما رأى عمر، فالعصر عصر صحابة للنبي، لا عصر تابعين، وهم أشبه ما يكون بحواري عيسى عليه السلام، ولنا في الديانات الأولى تجربة حين سجل أصحاب النبي عيسى عليه السلام ما سمعوه وما رأوه نسبت الأناجيل إليهم لا إلى عيسى ولا إلى الله. واختلط الأمر وحار الباحثون وخشى عمر لو أتاح للسنَّةِ أَنْ تُكتب وهي ستكتب بيد الصحابة، خشى عمر أن ينسب كل كتاب من السنَّةِ لصاحبه من الصحابة ويفتن الناس بها ويشتغلون بقراءتها، ويصلح لكل جماعة من المسلمين كتاب كتبه صحابي من صحابة رسول الله ﷺ على أَنَّه جزءٌ من السنَّةِ سمعه منه أو رآه، وينتشر هذا في الأقاليم خاصة والفتوحات قد اتسعت وكثر الذين دخلوا في الإسلام جديدًا، وهم يحملون في رؤوسهم ثقافات لا تعصمهم من الاعتقاد في الرجال.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خاف عمر بن الخطاب ﵁ أَنَّه لو أذن بكتابة السـنَّة، والعصـر عصر الصحابة لتعددت كتب السنَّة بتعدد قائليها وتنوعت بتنوع أسـماء كاتبيها، فتكون أناجيل في الأمة، ويهمل الكتاب الأصلي الـذي هـو درة التاج وقلادة العقد.

ما هذه البصيرة النافذة إن لم تكن لعمر بعد النبي ﷺ ؟!

وما هذا القول الفصل إنْ لم يكن للفاروق بعد الرسول ﷺ ؟!

وما هذا الحرص الشديد إن لم يكن لهذا الغيور على دينه ؟!

ويا ليت قومي يعلمون!

ذكر ابن عبد البر بسندهِ إلى عروةَ أَنَّ عمر بن الخطاب ﵁ أراد أن يكتب السنن، فاستغنى أصحاب النبي ﷺ في ذلك فأشاروا عليه بـأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرًا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبـوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشـئ أبدا[١].

يسجل هذا القول عن عمر أَنَّه ما كان يريد أن يصدر أمرًا عامـا بكتابة السنَّة لا يكون للنَّاسِ فيه خيار، وهو في نفس الوقت لم يكن له أن

---

[١] جامع بيان العلم وفضله ج١ ص ٧٧.

يصدر أمرا عاما يحظر الكتابة في غير القرآن، وإنَّمَا ترك النَّاسَ على ما هم عليه من سجيتهم وطبيعتهم لا يقدم على كتابة السنَّة إلَّا مَنْ يعجز عن حفظها من السماع لأول مرة، ومن يقدر على الحفاظ بالتكرار كتبها ليعود إلى الكتاب فإذا ما حفظ ما في الكتاب محاه، ومن لم يمنح ذاكرة حافظة يبقى الكتاب عنده يرجع إليه كلما شاء، وكلهم على غاية الحرص وقمة التمسك بهذه السنَّة تتحول على أيديهم إلى سلوك وعمل، وهذه أسمى آيات الحفظ لعلم يخاف النَّاس عليه الضياع.

ومضى عهد الراشدين أو كاد، والنَّاسُ على ما هم عليه يعيبون الذين لا يحفظون إذا كانت لهم ذاكرة واعية ويمتدحون من يحفظون حيث يدخلون السنَّة وحفظها عنصرا من عناصر تكوين الشخصية.

ذكر ابن عبد البر قصصاً طريقة توضح وجهة نظر هؤلاء حين ينظرون إلى من يحفظ العلم نظرة الإكبار والإجلال، ويعيبون من عداه ما دام قادرًا، قال: عن مغيرة عن إبراهيم قال: كنت أكتب عند عبيدة فقال: لا تخلدن عني كتابا.

عن جرير عن أبي زيد المرادي قَالَ: لَمَّا حضر عبيدة الموت دعا بكتبه فَمحاهَا.

عن النعمان بن قيس عن عبيدة أَنَّه دَعَا بكتبه عند الموت فمحاها، فقيل له في ذلك، فقال: أخشى أن يليها قوم يضعونها غير موضعها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأنت ترى من هذه النقول أولاً أَنَّ القوم كانوا يكتبون ولكنهم ما كانوا يعتمدون كل الاعتماد على الكتاب، ولا كانوا يحبونَ أَنَّ تلامذتهم ينظرون إلى الكتابة على أَنَّهَا الوسيلة الوحيدة، ولا حتَّى الوسيلة الأولى، وثانيًّا أَنَّهم حينما وقعَ في صدورهم ما وقع في صدر عمر رضي الله عنه مِنْ أَنَّ بعض النَّاسِ ربما يضع كتبهم في غير موضعها دعوا بها فمحوها، وهم قادرون على أن يحدثوا من محفوظهم أو دعوا بها فمحوها وهم على أول عتبات الآخرة.

وينقل ابن عبد البر أقوالًا أخرى تؤكد الأمر ثانية غير ما أكدته النقول السابقة، قال: عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم قال: سمعت الأوزاعي يقول: كان هذا العلم شيئًا شريفًا إذا كان من أفواه الرجال يتلاقونه ويتذاكرونه فلما صار في الكتب ذهب نوره وصار إلى غير أهله.

عن عمرو بن قيس عن إبراهيم قال: لا تكتبوا فتتكلوا ...

عن الفضل بن عمرو قال: قلتُ لإبراهيم: إنّي أتيك وقد جمعت المسائل فإذا رأيتك كأنما تختلس مني وأنت تكره الكتابة، قال: لا عليك فإنه قل ما طلب إنسان علما إلا ما آتاه الله منه ما يكفيه، وقل ما كتب رجل كتابا إلا اتكل عليه .اهـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن هذه الأقوال الأخيرة يتضح لنا السبب الثاني وهو مخافة أَنْ يتكل الناس على الكتاب ويتركوا الحفظ فتبدو شخصيتهم العلمية مهزوزة في أعين المسلمين.

فإذا ما أضفت هذا إلى ما ذكرناه قبل من خوف العالم أن يتخذ كتابه إنجيلاً في الأمة، علمت مبلغ حرص الرجال على دينهم وشخصيتهم العلميَّة.

وفي نقول ابن عبد البر ما يجمع السببين جميعًا قال: قال أبو عمر: من كره كتابة العلم إِنَّما كرهه لوجهين، أحدهما أَلَّا يتخذ مع القرآن كتابًا يضاهي به، ولئلا يتكل الكاتب على ما كتب، فلا يحفظ؛ فيقل الحفظ[١].

ويتبين مِمَّا سبق جميعه أَنَّ المسلمين قد حرصوا الحرص كله منذ أيام النبي ﷺ على حفظ السنَّة والاعتناء بها بطريقة مثلى، يحفظون الآثار إلى حد أن تتشربها وجداناتهم، ثُمَّ ينقادون إليها انقياد المتدين حتى تبدو ظاهرة على سلوكهم، ثم يتحملها بعد من يريد أن يتحملها بنفس المشاعر وذات الصفات.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ج١ ص ٨١ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

امتنع القوم عن الكتابة إذن لما منحوه من الثقة في ملكاتهم الحافظة وهي بذلك جديرة، لا يماري فيها إلا صاحب هوى، ولا ينتقص منها إلا فاقدها مخافة أن يعيبه الناس بسوء الحافظة عنده.

غير أَنَّ الأمر الذي يحتاج إلى تسجيل هو أَنَّ القوم ما كانوا يتأثمون تأثمًا شرعيًّا حين يرون مَنْ يكتب أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته، وكانوا يرون أَنَّ النبي ﷺ قد أذن فيه، والآثار الواردة عنه كثيرة كلها يبيح كتابة السنَّة، ويأذن في استعمال الخط لتسجيل الصادر عن النبي ﷺ.

وكتب الكاتبون أيام النبي ﷺ ، وكتب الكاتبون بعده في أيام الراشدين، والجميع ينظرون ولا يعترضون.

ثُمَّ كثر الوضع والحشو وكان على الحفاظ أنْ يتابعوا هذا وذاك، أن يتابعوا الصحيح فيحفظوه، وأن يتابعوا الضعيف والمكذوب فيلفتوا النظر إليه.

وكثر المنقول والمكذوب حتى ثقل على الذاكرة فقرر جهابذة العلماء في الوقت المناسب جمع السنَّة في كتابٍ، إذْ لكل عَصْرٍ مَا يُناسبه فبينما كان العصر الأول يناسبه حفظ السنَّة في الذاكرة أصبح العلماء يحتاجون في عصورٍ متأخرة إلى حفظ السنَّة في كتاب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتجمع الروايات على أَنَّ أول مَنْ فَكَّرَ في جمع السنَّةِ في كتاب هو الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب، وهو بهذا التفكير يكون قد أعاد إلى الأذهان ما فكر فيه من قبل، لكن الزمان غير الزمان، فليس هنا خوف كما كان في عهد عمر بن الخطاب من مخاوف، ولذا لم يتردد عمر بن عبد العزيز تردد جده وأرسل أمرًا بعزيمةٍ قويَّةٍ إلى عامله على المدينة أبي بكر بن حزم أَنْ أنظر حديث رسول الله ﷺ فأجمعه، وأرسلْ بِهِ إِلَيَّ، ثُمَّ طلبه أَنْ يرسل إليه بأحاديث مكتوبة كانت عند القاسم بن محمد بن أبي بكر وأخرى كانت عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصاريَّة.

والذي لا نشك فيه هو أَنَّ أبا بكر بن حزم قد فعل ما أمره به أمير المؤمنين الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وعمر بن عبد العزيز رحمه الله لم يكن قد أرسل إلى عامله في المدينة وحده، ولكنه قد أرسل إلى غيره كما أرسل إليه.

ويأتي ابن شهاب الزهري (١٢٤هـ) علمًا بارزًا في مجال تدوين السنَّة حيث جمع الكثير منها في كتب، وكان يخرج بالجزء من كتبه فيدفع به إلى تلاميذه ويأذن لهم في روايته عنه.

غير أَنَّه مِمَّا لا شك فيه أَنَّ طريقة الزهري في الكتابة وتسجيل السنَّة لم تكن على نظامٍ منهجيٍّ منضبطٍ، وَإِنَّمَا كان يجمع في المكان الواحد بين أحاديث في مسائل مختلفة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بل إِنَّه كان يجمع أقوال الصحابة وتفسيرات العلماء ضمن ما كان يجمعه، من غير أن يكون بين المجموع وحدة في الموضوع، وإن كانت كتاباته يمتاز بعضها عن بعض في نسبة كل قول لقائلـــه طبقـــا لمـــنهج الرواية الصارم الذي أخذ العلماء أنفسهم به وعلى رأسهم ابـــن شـــهاب الزهري.

وبعد الزهري وجيله شاع التدوين بعد ذلك في البلدان والأمصار.

فكان أولَ مَنْ جمعه بمكة ابن جريج (١٥٠هـ) وابـــن إســـحاق (١٥١هـ) ،

وبالمدينة سعيد بن أبي عروبة (١٥٦هـ) والربيـــع بـــن صـــبيح (١٦٠هـ) والإمام مالك (١٧٩هـ)،

وبالبصرة حماد بن سلمة (١٦٧هـ)،

وبالكوفة سفيان الثوري (١٦١هـ)،

وبالشام أبو عمرو الأوزاعي (١٥٧هـ)،

وبواسط هشيم (١٧٣هـ)،

وبخراسان عبد الله بن المبارك (١٨١هـ)،

وباليمن معمر (١٥٤هـ)،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبالري جرير بن عبد الحميد (١٨٨هـ)،

وكذلك فعل سفيان ابن عيينة (١٩٨هـ) والليث بن سعد(١٧٥هـ) وشعبة بن الحجاج (١٦٠هـ)[١].

وهؤلاء جميعا مثلهم مثل الزهري في منهجه يجمعون الأحاديث أينما اتفق لا يحرصون على تبويبها ولا تنظيمها بقدر ما يحافظون على حسن روايتها ودقة نقلها، وهذا أمر طبيعي، فتدوين الحديث اتجاه جديد في القرن الثاني الهجريّ، إذا قصدنا بالتدوين أن يكون ظاهرة في المجتمع، وشأن الجديد أن يكون كذلك، ثُمَّ يرقى شيئًا فشيئًا إلى أن يشتد عوده، وينتصب قوامه.

يقول الحافظ بن حجر: (إِنَّ مَا ذكر إِنَّمَا هو بالنسبة للجمع في الأبواب، وَأَمَّا جمع الحديث مثله في باب واحد فقد سبق إليه الشعبي فإنه روى عنه أَنَّه قَالَ: هذا باب من الطلاق جسيم)[٢].

انقضى القرن الثاني الهجري بتمامه تقريبًا واستقبل المسلمون القرن الثالث الهجري، فكان هذا القرن أزهى العصور وأجلاها في تدوين السنَّة.

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع ص ١٠٥.

(٢) توجيه النظر ص ٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبدأ المؤلفون تآليفهم على طريقة المسانيد، وهي طريقة تقوم على جمع الأحاديث التي يرويها صحابي بعينه في مكان واحد، بصرف النظر عن اختلافها في الموضوع.

وكانت هذه الطريقة أكثر تنظيمًا مِمَّا سبق، غير أَنَّ مصطنعيها كانوا لا يميزون بين صحيح الحديث وضعيفه، وإن كانوا قد حرصوا كل الحرص على أن لا يدخل مع حديث النبيﷺ شيئا من أقول الصحابة رضي الله عنهم.

وكان من أوائل من كتبوا في القرن الثالث الهجري: عبد الله بن موسى العبسي الكوفي، ومسدد البصري، وأسد بن موسى، ونعيم بن حماد الخزاعي، ثم اقتضى أثرهم الحفاظ فصنف الإمام أحمد مسنده المشهور. وكذلك فعل إسحاق بن راهويه، وعثمان بن أبي شيبة وغيره.

وطريقة هؤلاء جميعًا فيها من التنظيم ما يجعلها تمتاز عَمَّا سبقها من الطرق، فهي لا تدخل على حديث رسول الله ﷺ قولاً لصحابي ولا فتوى لتابعي، لكنها ما كانت تميز بين ضعيف الحديث وصحيحه، وفي هذا من العنت على طالب الحديث ما فيه، إلَّا أن يكون طالب الحديث من أهله وذويه، فإنْ كان من أهل غير الفن بقى الحديث مستغلقا عليه ومجهولا عنده.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذا الأمر من العنت على طالب الحديث قد دفع الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) إلى تصنيف كتابه الجامع الصحيح وهو قد التزم فيه أمرين:

أَمَّا أحدهما: فهو أَنَّه لا يضمّن كتابه إلَّا الصحيح من أحاديث رسول الله ﷺ.

وثانيهما: أَنَّه قد رتب كتابه على أبواب الفقه، ليسهل على طالب الحديث تناول هذا الكتاب، حتى ولو لم يكن من أهل الفن.

وقد سار على طريقة الإمام البخاري تلميذه مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ).

ثُمَّ توالت بعد ذلك الكتب والتصانيف تنهج هذا المنهج أو قريبا منه، ومن ذلك: سنن أبي داود (٢٧٥هـ) والنسائي (٣٠٣هـ) وجامع الترمذي (٢٧٩هـ) وسنن ابن ماجه (٢٧٣هـ).

ومهما كانت لعلماء القرن الثالث من ميزة، فإنَّ السابقين عليهم كانت لهم ميزة السبق، ودقة النقل حتى وصل الحديث إلى هؤلاء .

ولذا فإنَّ علماء القرن الثالث قد اعتمدوا على أحاديث السابقين وروايات الأولين، فأضفوا عليها من حسن التأليف ما جعلها سهلة التناول.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وانتهى القرن الثالث وقد استقرَّت السنَّة، وانتهى العلماء منها جمعًا وتصنيفًا وروايةً ودراسةً .

ثُمَّ جاء القرن الرابع الهجري ، فاستدركَ علماؤه على العلماء السابقين في مصنفات جديدة ومؤلفاتٍ، وكثرت روايةُ الحديث الواحد حتَّى تعددت طرقه.

وَمِنْ أهم علماء هذا العصر: الإمام سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) ألف معاجمه الثلاثة: (الكبير)؛ وذكر فيه الأحاديث بجمع مَا رواه كل صحابيٍّ على حدة. ورتب فيه الصحابة على الحروف وهو مشتمل على خمسمائة وخمسة وعشرين ألف حديث.

(والأوسط)، (والأصغر) ؛ ذكر فيهما الأحاديث بجمع ما رواه كل شيخ من شيوخه على حدة، ورتب فيها شيوخه على الحروف أيضا.

ومنهم الدارقطني (٣٨٥هـ) ألف سننه المشهورة. وابن حبان البستي (٣٥٤هـ) وابن خزيمة (٣١١هـ) والطحاوي (٣٢١هـ) [١].

وأنت ترى أَنَّ السنَّة قد انتهى العلماء من تدوينها مع نهاية القرن الثالث الهجري، وما أضيف بعد ذلك ليس بالأمر الجوهري فيها، وأهمه الاستدراكات على السابقين، كمستدرك الحاكم على الشيخين، حيث رأى مؤلفه أَنَّ هناك أمورا فاتت على الشيخين وهي على شرطهما أو على

[١] راجع السنة ومكانتها في التشريع ص ١٠٦ ، ١٠٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شرط أحدهما، وقد سلم له بعض ما ذكره، ورفض بعض العلماء له البعض الآخر على نحو ما تتبعه الذهبيُّ، وسجلت تتبعاته له في هامش كتابه.

وتبقى السنَّة محفوظة بحفظ الله لها باعتبارها وحيًّا، وهي محفوظة بحفظ العلماء لها باعتبارهم المؤمنين بها، المكلَّفين من الشارع بنقلها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٢ــ علم مصطلح الحديث :

دونت السُنَّةُ على هذا النحو العالي مِنَ التدوين، وحفظت السُنَّة على هذا النحو الراقي من الحفظ، وكان تدوين السُنَّة أثرًا من الآثار الهامة التي ترتبت على صرف جهود علماء الحديث إلى خدمة السُنَّة.

أَمَّا الأثر الثاني من هذه الآثار ــ وهو لا يقل شرفًا عن الأثر الأول ــ هو ما ابتكره العلماء في مجال علوم الحديث حتى أصبحت قواعد عامة يمكن الانتفاع بها من غير مخافة الزلل أو الوقوع في الخطأ.

وعلوم الحديث يجمعها علم الحديث دراية، وعلم الحديث رواية.

وعلى أساسٍ مِنْ هذين الاتجاهين قَسَّمَ النَّاسُ الحديث إلى: صحيح وحسن وضعيف، كما أفرد العلماء بالتأليف كُتُبًا ومصنفات للحديث الموضوع.

وإذا كنا سوف نستبعد الحديث الموضوع مِنْ أقسام الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ، فَإِنَّ القسمة ستبقى على نحو ما ذكرناه ثلاثيَّة.

وهذا هو الاتجاه العام عِنْدَ أهل السُنَّة كما اتضح لنا مِن قبل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإنْ كان أهل الشيعة قد رأوا أَنْ يقسموا الحديث إلى: صحيح وموثق وحسن وضعيف، فهذا اتجاهٌ يخصهم، وتعبيرهم عنه يمتاز بميزته المذهبيَّة.

علماء المسلمين جميعًا قد ترتب على جهودهم في مجال حفظ سنَّة نبيهم ﷺ فيما ترتب نشأة وظهور علوم الحديث، وهي علوم كما فهمناها تشيع في النفس الثقة بالأخبار والاطمئنان إلى الرواية بطريقة لم يسبق لها مثال بين علماء الأرض، وليست هذه دعوى ندعيها دافعنا إليها العصبية والهوى، وإنَّما قد وجدنا مَنْ أَنصف مِنْ غير المسلمين وهو أحد العلماء المتخصصين في التاريخ فأشار إلى دقة منهج المحدثين.

يقول أسد رستم – أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت سابقًا – متحدِّثًا عن منهج المحدثين الذي حاول أن يطبقه على منهج التاريخ: "وَمِمَّا يُذكر مع فريد الإعجاب والتقدير ما توصل إليه علماء الحديث منذ مئات السنين في هذا الباب، وإليك بعض ما جاء في مصنفاتهم نورده بحروفه وحذافيره تنويها بتدقيقهم العلميِّ، واعترافًا بفضلهم على التاريخ ..".

ثم نقل نصوصًا مِنْ مأثورات المسلمين في علوم الحديث تؤكد ما ذكره[1].

---

(١) كتاب مصطلح التاريخ ص ٦٧ ـ ٨٣، وانظر مصطفى السباعي ، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ١٠٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَمَّا علماء المسلمين فقد استفادوا بمنهج المحدثين في مجالات مختلفة، فعلماء التاريخ قد استفادوا من هذا المنهج في روايتهم للتاريخ، وعلماء الأدب شعرًا ونثرًا قد استفادوا من هذا العلم في مجالات بحوثهم، وقد استفاد من هذا المنهج العلماء في مجالات أخرى لثقتهم فيه وطمأنينتهم إلى ما ينتج من نتائج أو يثمر من علم.

ولقد كان علماء الحديث يحفظون هذه القواعد في صدورهم ويحتكمون إليها كلما أحوجتهم الدراسة للاحتكام إليها، وما كان الواحد من المحدثين في أول الأمر يحتاج إلى تدوين هذه القواعد، كما أنَّه من باب أولي لم يكن يحتاج إلى مطالعتها في كتاب، وإنَّما كان معيار كل واحد منهم في صدره، كما كانت الروايات منتقشة في قلبه حيث يعي كل ذلك ويحفظه حفظًا تامًّا ويعيه وعيًّا كاملا.

ثُمَّ تطورت الأزمنة واحتاج العلماء إلى الكتابة في هذا الفن، فكان أول من كتب فيه: عليٌّ بن المديني شيخ البخاري، ثُمَّ كتب البخاري ومسلم والترمذي نتفًا مِن هذا العلم متفرقات في شكل رسائل لم يضم بعضها إلى بعض، ثُمَّ جاء القاضي أبو محمد الرامهرمزي (٣٦٠هـ) فكانَ أول مَنْ كتب في هذا الفن كتابة منظمة، حيث صدر كتابه ـ المحدث الفاصل بين الراوي والسامع ـ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكان العلماء يلاحظون على هذا الكتاب أَنَّه لم يستوعب مسائل هذا الفن، ثُمَّ جاء الحاكم ليتطور العلم على يديه شيئا من التطور فكتب كتابه ــ معرفة علوم الحديث ــ .

ولقد جاء من بعده أبو نعيم الأصفهاني (٤٣٠هـ) فكتب مستخرجًا على كتاب الحاكم.

ثُمَّ جاء البغدادي الخطيب أبو بكر البغدادي (٤٦٣هـ) فأصدر كتابين أحدهما في الرواية وأسماه ــ الكفاية في علم الرواية ــ وثانيهما في آداب الرواية وأسماه ــ الجامع لآداب الشيخ والسامع ــ.

ثُمَّ أَلَّفَ القاضي عياض كتاب الإلماع في علوم الحديث، يعتمد فيه على بحوث الخطيب البغدادي.

ثُمَّ شهدت علوم الحديث تحولاً عظيمًا على يد ابن الصلاح الذي أملى على تلاميذه بحوثًا في علوم الحديث اشتهرت بين المحدثين باسم مقدمة ابن الصلاح، وهذه المقدمة كتبت عليها شروح ومختصرات وألفت فيها منظومات من نحو ألفية العراقي وشرحها للسخاوي، والتقريب للنووي، وشرحه التدريب للسيوطي، ثم انتهت البحوث بالمختصرات من نحو مختصر علوم الحديث للحافظ بن كثير.

وهذه كلها جهود تنم عن عقليَّة منهجيَّة متفتحة في بابها، استفادت منها السنَّة استفادة عظيمة في نقل آحادها وجملتها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد يظن الظانون أَنَّ السنَّة عندما استقرَّتْ في بطون الكتب لم تعد بحاجة إلى مثل هذا المنهج وهذا غير صحيح، ذلك أَنَّ الكتب ظلت فترة من الزمن غير يسيرة يتناقلها النَّاسُ بنسخ اليد، والكتابة الفرديَّة وهي طريقة غير مأمونة، إذْ يمكن الحذف والإضافة على يد النساخ والنقلة، وليس هناك من طريق لسد هذه الثغرة إلَّا أَنْ تنقل الكتب بما احتوت عليه مِمَّا استبطنه فيها أصحابها بنفس الطريقة التي كانت تنقل بها الأخبار المنفردة، وهذا ما قد وقع بالفعل، حيث حرص المحدثون على نقل الكتب بينهم بنفس الطريقة المنهجيَّة بما تحتويه من الصرامة والدقة .

ولما نقلت هذه الكتب بهذه الطريقة من العناية، علم جماعة المسلمين وآحادهم أَنَّ الكتاب الذي بين أيديهم كصحيح البخاري مثلاً هو نفسه الكتاب الذي كتبه محمد بن إسماعيل البخاري من غير زيادة ولا نقص.

وقل مثله في كل كتاب يقع بين يديك من كتب السنَّة، حيث قد أصبح الطريق الآن مغلقًا أمام كل من يريد أن يتخذ من كتب السنَّة منديلا أحمر يثير به غرائز المغرضين في حلبة من حلبات الرياضة غير المشروعة.

ويبقى المنهج أثرًا من آثار جهود علماء السنَّة التي بذلوها قاصدين بها وجه ربهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣ــ علم الجرح والتعديل : ــ

ومن الثمار التي ترتبت على جهود علماء الحديث ما يعرف الآن بيننا بعلم الجرح والتعديل.

وعلم الجرح والتعديل = هو علمٌ يعني بأحوال الرجال من حيث عدالة كل واحد منهم وضبطه.

وعلماء الحديث وهم يبحثون عن أحوال الرجال كانوا لا يتأثمون ولا يترددون في ذكر معايب الواحد من الرجال بقدر ما يحتاج المقام إليه من غير زيادة مقصودة لا حاجة إلى السنة بها .

وسبق أن أشرنا إلى أن هذا المسلك من العلماء لا يعد من الغيبة المنهي عنها شرعًا أو هو يعد منها، ولكن لحاجة الشريعة إلى بيانه رخص للعلماء فيه.

وأنت ترى الإمام البخاري عندما كتب كتبه في تاريخ الرجال والحكم عليهم من حيث صلاحيتهم للرواية أو لا، وأصدر في ذلك تواريخه الكبير والأوسط والصغير اتهمه من لا يعقل بأن الرجل قد وقع في جريمة الغيبة، وهي جريمة منهي عنها شرعًا، فكتب البخاري يدافع عن نفسه ويجلي وجه الحقيقة قال: إِنَّما روينا ذلك رواية ولم نقله من عند أنفسنا، وقد قال النبي ﷺ: "بئس أخو العشيرة " .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهو يُشير إلى حديث أخرجه في صحيحه في أماكن عدة منها ما ذكره في كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب بالسند من طريق عيينة إلى عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة، فلما دخل آلان له الكلام، قلت: يا رسول الله قلت الذي قلت ثم آلنت له الكلام، قال: أي عائشة، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تركه الناس ـ أو ودعه الناس ـ اتقاء فحشه[١].

رأى البخاري بمقتضى هذا الحديث وبمقتضى مسالك أئمة هذا الفن أنَّه يجوز ذكر الرجل بما فيه لمصلحة تترتب على ذلك، ومصلحة نقل السنَّة وروايتها دونها بكثير مصالح الناس العامة، فإذا كان المشهور بالفسق والفحش معا يجوز ذكره بما فيه لمصلحة الناس في معرفته، والوقوف على حقيقة أمره، كان ذكر المشتغل بالسنَّة بما فيه حفظا للسنَّة وصيانةً لها أولي وأوقع .

لَمْ يتأثر البخاري ولا مَنْ سبقوه من ذكر هؤلاء بصفاتهم، وكان من اللازم عليهم أن يذكروا العادل بعدالته والضابط بضبطه، كما يذكرون من اخترمت عدالته أو زالت عنه صفة الضبط كلها أو بعضها.

---

[١] هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب في هذا الباب الذي ذكر أعلاه ٦٠٥٤، وقد ذكره قبل في باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا من الكتاب نفسه حديث رقم ٦٠٣٢ ، وذكره في باب المداراة مع الناس حديث رقم ٦١٣١ والحديث في كتب السنة معروف حيث ذكره مسلم وغيره .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنذ أوائل هذا العلم والنَّاس يتكلمون في الرجال ويشيرون بدقـة إلى مَنْ يؤخذ منه ومن لم يؤخذ منه، وكانوا يتناقلون ذلك شفاهًا إلـى أَنْ احتاج الأمرُ إلى الكتابة في الجرح والتعديل فكتب العلمـاء فيـه كتبًـا مبسوطة ومختصرة ومتوسطة بين هذين.

وَمَنْ يتأمل كتب التاريخ يجد طائفة عظيمة مِمَّنْ كتبوا فـي هـذا الجانب من جوانب العلوم، وظَلَّتْ الكتب تتتابع إلى أن جاء القرن التاسع الهجريّ، وكانت الأمة قد حصلت على ما يشفي الصدر ويذهب بالظمـأ، وكتب الجرح والتعديل بعضها كان يختص بالثقات فقط يتحدث عنهم ولا يتحدث عن سواهم، وبعضها كان يتحدث عن المجـروحين والضـعفاء يتكلم فيهم ولا يعدوهم إلى غيرهم، وبعضها كان يـذكر الصـنفين معـا الثقات والمجروحين، ثُمَّ يقول في كل راو منهم ما يناسبه من القول.

وهذه الثمرة من ثمار جهود المحدثين قد وضعت حَدًّا فاصلاً بـين مَنْ تقبل روايته وَمَنْ يُرد عليه قوله.

صحيحٌ أَنَّ علماء الجرح والتعديل كانوا يختلفون فيما بيـنهم فـي المعايير، فمنهم مَنْ كان يتساهل في قبول الرجال نوعًا ما مِن التسـاهل، ومنهم من كان يتشدد، ومنهم من جاء وسطا بين هـذا وذاك، غيـر أن المرء يستطيع أَنْ يقرأ عن الرجل الواحد في كتب مختلفة، ومن وجهات نظر متعددة، ثُمَّ يحكم عليه حكمًا أقرب إلى الصواب، حيث يكون قد قرأ فيه وجهات نظر متعددة ما بين متشدد ومتساهل ووسط بين هذين .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والمرء يكاد يجزم أَنَّ علماء الجرح والتعديل في مجملهم لم يفتهم رجلٌ واحد من غير حديث حوله، ومن غير رأى فيه، وتلك إحدى بركات سُنَّةِ النبيِّ ﷺ وهي كثيرة، حيث توافرت رواياتها ونقلت بين يدي المسلمين جيلا بعد جيل، ثُمَّ إِنَّ أولئك الذين قد قاموا برواياتها ونقلها قد عرفوا جميعا أمام المسلمين، عرف العادل بعدالته، وعرف المجروح بنقيصته، وقدر مستور الحال بقدره الذي يناسبه من معايير العلم.

وحين نضم هذه الثمرة إلى سابقيتها تجد أمامك صرحًا شامخًا في بناء منهجٍ عظيمٍ .

وَمِمَّا سبق ذكره يتبين لك أَنَّ علماء السُنَّةِ مَا رووا السنَّة هكذا جزافًا بغير ضبط، وما تحمَّلوها قبل روايتها هكذا بغير منهج، وإنَّما كانوا منضبطين بالمنهج في التحمل والأداء جميعا، وما كان دافعهم إلى ذلك هو مجرد محبة العلم، وَأَنْ يسجلهم التاريخ أئمة له، وهذا مع أَنَّه في تقدير الرجال عظيم، إلَّا أَنَّ علماء السنَّة كانوا ينظرون إلى ذلك المعيار على أنه باب خطر قد يؤدي إلى الغرور الذي نتيجته بوار العمل والإقامة في جهنم، ولذا فإن دافعهم الأول والأخير هو أنهم قد تحملوا هذا العلم وأدوه طاعة لله ولرسوله، فإذا انفتح عليهم باب من الغرور أمسكوا عن الحديث وامتنعوا عن القول، فهذا سفيان بن عيينة كان يحدث في المسجد فرأى المسجد قد امتلأ عليه وازدحم فحدثته نفسه حديث خلسة فانتفض لذلك انتفاضة عظيمة وقام وهو يردد : ــ أخذنا ورب الكعبة ــ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رجال آمنوا بالله فعرفوا كيف يتعاملون معه، لو قلت لهم إن العلم للمجتمع كما يقول القائلون اليوم أبصرت في وجوههم علائم الاستنكار وإن كان المجتمع سيستفيد، وإن قلت لهم العلم لبناء الشخصية أبصرت وجوههم وقد انقلبت وأفصحت عن غضب في القلب وشعور سيئ في النفس وإن كان العلم سيتدخل في بناء الشخصية تدخلا يفرق بين العالم والجاهل وبين من يحمل راية العلم إمامًا، ومن يتبعه على الطريق سائرا مهتديا، وإن قلت له العلم لله أشرف وجهه ولمعت عيناه لحظة، بعدها يطأطئ ورأسه إلى الأرض وهو يتمتم "وفوق كل ذي علم عليم".

ولقد كان شعار القوم يرفعونه دائما في وجه النَّاسِ: "إِنَّ هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ".

يا لها من دقةٍ يدفع إليها إيمان.

ويا له من منهج يغلفه اليقين.

إنَّها دقة في التحمل.

إنَّها لدقة في الأداء.

* * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفَصْلُ السَّادِسُ

حُجِّيَّةُ السُّنَّة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حين ننتهي إلى هذه القضية من هذا البحث تكون قد انتهينا إلى ما يريده القوم منا، إِذْ هم يريدون أَنْ تسلم لهم طوعًا أو كرهًا ـ بِأَنَّ السُنَّة ليست حجة في مجال التشريع، وهم قد قدموا لذلك بمقدمات ناقشناها وتحدثنا فيها بما أراد الله ﷻ مِنْ نحو أَنَّ السُنَّة إن كانت قد نقلت عن النبي ﷺ وهو قد قالها بالفعل، فهي قد نقلت بغير منهج.

وانتهت إلينا عبر خمسة أجيال من الموتى بغير معبر صحيح، وانتهى القوم من دعاويهم غير المبرهنة إلى نتيجتهم التي يريدون بذل أغلى ما يملكون في سبيل تحقيقها وهي أَنَّ السُنَّة مِنْ عمل الشيطان، وأَنَّها لا مجال لها في شرع الله ﷻ.

والذين حرصوا على هذه النتيجة طبقاتٍ عدة، منهم مَنْ كان على حياء اجتماعيٍّ أو علميٍّ يخشى أن ينسب إليه النَّاس أنَّه يعتنق قضايا غير مبرهنة، ويصل إلى نتائج بغير أدلة، فكان يحاول جهد الطاقة أن يلقي آراءه بين الناس بأسلوب احتماليٍّ كأنه فرض علميّ، وهو يحمل بيد خفية منديلا أحمر يلوح به إلى أقوام، يثير غرائزهم هذا المنديل الأحمر، وقد دربهم عليه فترة طويلة من الزمن.

ومن هذا الفريق الذي يمتاز بالحياء الاجتماعي والخجل العلمي جم غفير من المستشرقين في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، وقد كانت طريقتهم أنهم يحاولون أن يأتوا بنصوص من مراجع في غير

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

موضوعهم ويحيلون عليها، كان يتكلم الواحد منهم في علوم الحديث، وفي رواية السنَّةِ، ثُمَّ يأتي بنصوص من نحو كتاب الأغاني للأصفهاني، ومن نحو كتاب ألف ليلة وليلة، وما يشبه ذلك من الكتب يملأون بها الحواشي ويخدعون بها البسطاء.

غير أَنَّ هذه الطريقة التي انتهجها رجال هذه الطبقة لم يثبت نجاحها إذْ هي موجهة للعلماء، والعلماء أبصر بالمكائد، وأعلم بمكامن الداء، فنشطت الطبقة الثانية في فترة استيقظت فيها الشعوب الإسلاميَّة، وهبت تدافع عن كرامتها وتسترد مكانتها، فوضع على رأسها رجال أخذوا إشارات البدء من سادتهم ومعلميهم، فأبرزوا ما لوحت به اليد الخفية من رجال الطبقة السابقة عليهم، حيث كانت تقبض على المنديل الأحمر، وتخفي حتى أصابعها القابضة على هذا المنديل كي لا يراها النَّاس، وبالترغيب والترهيب مِمَّا اندفع رجال الطبقة الثانية وهم من أبناء جلدتنا، وليس عندهم جديد يقولونه فرددوا ما قاله سابقوهم من نحو الهجوم على أبي هريرة رضي الله عنه، وأَنَّه لا يصلح لرواية الحديث، لأَنَّه لم يكن رجلا إقطاعيًّا، وأنَّه لم يكن رجلا عبوسًا متجهم الوجه، وأنه رجل قد اشتهر بكنيته، واسمه مختلف فيه، وأنَّه كيف يحفظ من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف حديث وهي تملأ كتابا من الحجم الصغير.

ولم يكتف هؤلاء بالحديث عن أبي هريرة ، ولكنهم انتقلوا إلى معلم من معالم تسجيل السنَّة وحفظها في الجيل الثاني وهو جيل كبار التابعين حيث وجهوا سهامهم إلى ابن شهاب الزهريِّ، وقالوا إنَّه لا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يصلح لرواية السنَّة، والسبب أَنَّه كان ينصح الأمــراء والملــوك باتبــاع شرع الله ويذهب إليهم آمِرًا وزاجرًا، وأنَّه كان يعلم ويؤدب أبناء الأمراء والسادة، وكانوا يودون لو ترك هؤلاء الأبناء تعبث بهم الأهواء ويضــل بهم الضالون حتى يعانون من صحراء التيه، ويجدوا فيها ما يجدون مــن ضياع أو لأواء .

مع شخوص الطبقة الثانيَّة ظهرت سهام جارحة ظنوا أنهم ينالون بها تاج الأمة الذي تعتز به بعد القرآن وهو السنَّة النبويَّة .

وفشلت هذه الطبقة كما فشلت سابقتها، وأتى المنديل الأحمر إلــى حلبة النزال بكائنات غير مدربة فهاجت في جميــع الحضــور تدوســهم بأظلافها، وتنطحهم بقرونها، لا ينجو منها إلَّا صاحب دربة على التعامل مع هذه الكائنات التي انطلقت في ساحات النزال بغير ضــوابط، تــدوس الكل وتنطح الجميع، وتنضح في وجوه الكافة بقدر ما تستطيع .

وقدرنــــا أن نكون مجبرين على مشاهدة هذه الطبقــة التــي ظهرت في عصرنا، والمنديل الأحمر ما يزال يغازل عيونهم.

والسنَّة النبويَّة هي الهدف الأول في جميع الطبقات التي عرضــنا لك.

يأتي هذا الفصل من هذا الكتاب ليعالج نتيجتهم التي وصلوا إليهــا بغير مقدمات تحت ستار من الغبار في الطبقة الأولى، وفي نوع ما مــن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوضوح في الطبقة الثانية، وفي سفور قبيح في الطبقة الثالثة غير المدربة، والتي لا ترى في حلبة النزاع إلَّا هذا المنديل الأحمر يغازل عيونهم، ويستثير غرائزهم، فيدوسون مقدساتهم وموضع الذم والمدح فيهم بغير روية أو بصيرة.

السُنَّة ضرورة تقتضيها وظيفة النبيِّ ﷺ : ـ

في مواضع كثيرة مِمَّا قد حرصتُ كل الحرص على أن أبين بغاية الجلاء وظيفة الرسل والأنبياء، ومن بين هؤلاء الأنبياء ومن أوائلهم محمد ﷺ.

ونحن هنا نعيد الحديث عن وظيفته، التي هي وظيفة إخوانه من الأنبياء جميعًا.

ووظيفة النبي محمد ﷺ يمكن أن نشير إليها في هذه النقاط : ـ

١ـ وأولها أَنَّ النبي ﷺ يبلغ عن ربه وحيَّهُ، والوحي الذي يهبط على النبي ﷺ قسمان، قسم منه هو القرآن الكريم الذي أمرنا الله ﷻ باتباع أحكامه والتعبد بتلاوته، فهو من عند الله سبحانه لفظه ومعناه.

والنبي ﷺ مأمور بإبلاغ هذا القسم من الوحي للناس على أنه كلام رب العالمين، قد أوحى به إلى النبي ﷺ، وقد وجده النبي من نفسه بعد الوحى، وعلم أنَّه ليس من ذاته وإنما الوحي قد أتى إليه من

الخارج وهو ليس من مماثل، وإنما هو من موجود أعلى، هو المستحق للعبادة وحده، وقد أمر عباده من خلال هذا الوحي أن يطيعوه.

والنبي حين يبلغ عن الله ﷻ هذا النوع من الوحي، إنما يبلغ أمرا هو شاهده الوحيد، إذ لم يكن معه إنسان آخر شهد هذا الوحي، أو وجده من نفسه، وإذا كان النبي هو شاهد هذا الوحي الوحيد وهو الذي قد وجده من نفسه في حالة من الانفراد لم يشاركه فيها غيره، فإنه مما لا شك فيه أن يكون النبي ﷺ وحده هو القادر على أن يشرح هذا الوحى للناس بعد أن يبينه الله له بواسطة إلهام يقذفه الله في صدره، أو بواسطة نوع آخر من الوحي ينزل على النبي بالمعنى، وتترك للنبي مساحة التعبير عنه بلفظه.

فإذا ما عَبَّرَ النبيُّ ﷺ عن هذا الوحى الذي هو من عند الله محتويًّا على اللفظ والمعنى وكلاهما لله، إذا ما عبر النبي عن هذا الوحى يشرحه للنَّاس بقوله أو بفعله يكون قد عبر عنه بنوع آخر من الوحى معناه من ربه ولفظه من عنده .

وهذا أمر مقبول في العقول، منصوص عليه ضمن المسموع والمنقول.

أَمَّا قابلية العقول له فمرجعها ما قلناه وهو أن النبي ﷺ هو شاهد الوحي الوحيد، وهو الذي وجده من نفسه دون سواه، وكان عليه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هو أن يؤديه للناس، ثم يشرحه لهم حتى يفهموه ويدركوه ويعملوا بمقتضاه.

تلك قضية العقل، وهو لا يحتاج فوقها إلى برهان يؤيدها أو إلى دليل يدعمها.

أَمَّا حديث النص المنقول فإنَّه بإمكانك أن تجده في نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل/٤٤]، وأخواتها، فالذكر هو القرآن، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك، فالرسول ﷺ مُبينٌ عن الله ﷻ مراده مما تحمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغير ذلك مما لم يفصله(١).

الوظيفة الأولى إذن هي : وظيفة البلاغ عن الله، والذي سيبلغه النبي عن ربه قسمان: الوحي الذي هو بلفظه ومعناه من الله وهذا هو القرآن، والوحي الذي معناه من ربه والتعبير عنه من النبي بالقول أو بالفعل وهذه هي السنَّة.

٢- **والوظيفة الثانية** للنبيﷺ هي أن يطبق النبي الوحي على نفسه تطبيقا تاما وفي غاية الكمال بأسلوب لم يفرض نظيره على أمته، فالله حين يكلف الأمة إنما يكلفها في حدود الوسع والقدرة من غير

(١) تفسير القرطبي ج٩ ص ٣٧٢٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

استفراغ الجهد والطاقة، أَمَّا النبي فإنَّ الله يكلفه بأداء هذه المهمة الثقيلة، فهو الذي يجب عليه أن يحول حياته كلها لله ؛ ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾ وهو الذي قد ألقى إليه قولا ثقيلا، وهو الذي أمر أن يكون عاملا بالنهار متبتلا بالليل، وهذه الوظيفة ذاتها يؤيدها العقل ويدعمها النقل.

فالعقل يفهم أن محل القدوة من المجتمع والأمة لابد وأن يطبق على نفسه الشرع بكليته يستوعب قضاياه فكرا وعملا، وينصاع إلى توجيهاته إلى حد الاستقامة ، وإنه وربي لحد دقيق ﴿**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إني بما تعملون بصير**﴾ ويقضي العقل إذن بأن من كان في محل القدوة لابد أن يتربع القمة في مجال التطبيق حتى ينظر الناس إليه راغبين في تقليده، حريصين على قطع المسافة إليه وهم في طريقهم من السفح الهابط إلى القمة السامقة تنقضي بآحادهم الأعمار من غير أن يصلوا إلى محل القدوة، ولكنهم على أية حال صاعدون دائما متدرجون على طريق الكمال بغير انقطاع.

هذا لعمري شرف وجودهم!

وحين ترى الوظيفة الثانية للنبيِّ لا ترى منها إلا شرحا بالفعل العملي لآيات القرآن الكريم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣- **الوظيفة الثالثة** من وظائف النبيِّ ﷺ **هي: أنَّه** يرعى جيلا من البشر يطبق عليهم آيات القرآن الكريم يعلمهم إياها أولا بالقول، ويشاهدهم وهم يطبقون ثانيا فيقرهم على ما أصابوا ويصوب لهم ما أخطأوا .

تلك هي وظائف النبي الثلاثة، وهي وظائف تلائم شخصية النبي، وليست وظيفته منحصرة في هذا الإطار الضيق الهزيل الذي يريد أولئك النفر الذين جذبهم المنديل الأحمر إلى حلبة الصراع بغير تعقل أو دربة، فحاولوا أن يصيبوا ضمن من يصيبون شخصية النبي، فيصفونه بأنه خَطّاء لا عصمة له، وأنَّه رجلُ بريد فحسب ينقل عن الله فقط ويترك موضع القدوة لغيره، وأنَّه لا شأن له بأمته فقد يصعد الواحد منهم إلى محل القدوة ، ويرتد النبي عن دينه.

ألم أقل لك أنه المنديل الأحمر يعبث بغرائز من يوجه إليه المنيل الأحمر؟

وأنت حين تتأمل وظائف النبي ﷺ على نحو ما ذكرت لك تجد أن الإيمان بسنَّة النبيِّ ضرورة تقتضيها وظيفة النبي، فضرورة البلاغ مثلا وهي الوظيفة الأولى تقتضي أن يشرح النبي ﷺ ما يحتاج الناس إلى شرحه من القرآن بوحي آخر غير وحي القرآن ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ [القيامة/ ١٦-١٩].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والوظيفة الثانية للنبي لا تتأتي إلا بالتطبيق الفعلي للنبي، وهذا التطبيق شئ والقرآن شئ آخر، فقد يأمر القرآن بالجملة ما يطبقه النبي صلى الله عليه وسلم تفصيلا، وتطبيقات النبي ﷺ سنة اقتضتها وظيفته.

وفي الوظيفة الثالثة للنبي نجد أقوالا وأوامر يوجهها النبي إلى الجيل الأول، والجيل الأول ينصت إليه، ثم يفرغ آحاد الناس إلى العمل بمقتضى أمر رسول الله، والنبي ينظر فيقر من يقر على صوابه ويصوب من يخطئ فيرده عن خطئه.

وما السُنَّة إلَّا أقوال النبي وأفعال النبي وتقريرات النبي، وهي كلها أمور تقتضيها وظيفته، وقد شهد العقل بها .

العمل بالسنة ضرورة شرعيَّة : ـ

يقول الإمام الشوكانيّ: ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ولا يخالف في ذلك إلا من لاحظ له في دين الإسلام (١).

والإمام الشوكاني قد استفاد هذا الحكم مِمَّا قرأه من نصوص كتاب الله ﷻ وهي جميعها نصوص تثبت حجية السنَّة بشكل قاطع لا يحتاج إلى جدال ، وبأساليب متنوعة تحمل على المطالعة وتورث اليقين.

(١) إرشاد الفحول ص ٣٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأنا أحب الآن أن أعرض عليك أساليب القرآن على اختلاف تنوعها واتحاد غاياتها، لتعلم أَنَّ الله ﷻ قد أراد أن تكون السنَّة مصدرًا من مصادر التشريع لها مكانتها في الشريعة، ولها فاعليتها في نفوس معتنقيها، ولها هيبتها في ميدان التسابق بين المذاهب والشرائع.

والقرآن الكريم حين تحدث عن حجية السنَّة قد نَوَّعَ الخطاب تنويعا شيقًا يمكن تصنيفه إلى أربعة نماذج من نماذج الخطاب:

١ـ هناك طائفة من النصوص تحمل على اتباع النبي ووجوب طاعته طاعة بمقتضى واجبة بمعنى لفظ الوجوب بحيث يحكم بكفر من رد أمر الطاعة على الله، ويحكم بعصيان وفسق من قصر في طاعة النبي كسلا أو تخاذلا.س

ومن الآيات الدالة على وجوب طاعة النبي قوله تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء/٨٠]، وقوله :﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ [النساء/٥٩]، وقوله تعالي: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب/٣٦].

وهذه الآيات تعبر عن نوع من الخطاب في القرآن الكريم يتعلق بالنبي ووجوب طاعته وهو معطوف على طاعة الله ﷻ.

والأمر بطاعة الله محمول على طاعة كلامه وهو القرآن، وهذا لا مدخل للنبي ﷺ فيه بحالٍ مِنَ الأحوال، إذْ القرآن لفظه ومعناه قد نزل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

به جبريل عليه السلام، وتثبيته في فؤاد النبي وقرآنه على لسانه وأشباههم أمور جرت على خلاف العادة وهي من فعل الله المباشر.

أَمَّا تبيين القرآن للنَّاسِ، وتطبيق النبي ﷺ للقرآن ، وتوضيح ما خفي معناه عن النَّاس، أو تفصيل مجمله أو تخصيص العام منه إلى آخره، وَحمل النبيّ ﷺ النَّاسَ في عصر المبعث على فهم القرآن وتطبيقه وهو ينظر أيقرهم على ما أصابوا فيه، ويعدل لهم فيما أخطأوا، أَمَّا هذا كله وكثير غيره فهو بوحى الله نعم، لكن للنبي فيه مدخل ما، وهذا صنف آخر غير القرآن يجب على الأمة أن تطيع فيه النبي ﷺ كما أطاعت ربها في القرآن.

وأنت ترى أن ما تقدَّمَ مِنَ النصوص صريحُ الدلالة في وجوب طاعة النبي ﷺ فيما كان للنبي مدخل فيه، يطيعونه كما يجب عليهم أن يطيعوا القرآن، فماذا عسانا أن نسمي هذا القسم الذي أمرت الأمة أن تطيع فيه النبي بعد أن أمرت أن تطيع الله في القرآن ؟ سَمِّهِ أنت كما شئت إلا أن تقول: إِنَّ المراد بطاعة الله طاعته في القرآن، والمراد بطاعة النبي طاعته في القرآن، لأنَّك إِنْ فعلت ذلك تكون قد حكمت على القرآن في تعبيره بأسلوب لا يليق بالقرآن، ودع من يستجيز ذلك إلى حاله، فإنّي أربأ بك عن حلبة صراع غير مشروع، وإني لأرتفع بك عن أسلوب لا تقره العقول.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ـ ويتبع القرآن الكريم أسلوبًا آخر في الخطاب، وهو يؤكد حُجّية السنَّةِ، هذا الأسلوب هو أنَّه قد بين أَنَّ النبيَّ ﷺ أُمِرَ بالبلاغ عن ربه، وأنَّه حين يقصر في البلاغ يكون كما امتنع عنه، والبلاغ لا يكون فقط هو نقل النص على نحو ما جاء به جبريل عليه السلام، وإنَّما البلاغ في مفهوم الأنبياء هو أن يؤدي النص ويبينه ويطبقه على نفسه لتتحقق القدوة، ويشرحه لمجتمع عصر الدعوة، ويشرف عليهم وهم يطبقونه، وهو وإنْ قَصَّرَ في واحدةٍ من هذه يكون قد حكم عليه بأنه لم يبلغ، وأمر الله بالبلاغ جازم، وتكليفُ النبيِّ بإتمام البلاغ واضح لا سترة به، ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ [المائدة/٦٧].

ما أيسرها من مهمة إذا كانت مهمة الرسول هي عبارة عن قراءة الوحى يؤمن به من يؤمن ويكفر به من يكفر، بل إني لأقولُ: إِنَّ فرحة كل عدو للإسلام في أي عصر ستزداد بغير حدود إذا قلت له إن مطلوب الله ﷻ من النبي والداعية بعده هو فقط مجرد تلاوة القرآن الكريم، ولا يشترط بعد ذلك أن تتحول هذه الأحكام التي ينطوي عليها النص إلى آثار حية تحكم سلوك الناس وأقوالهم، بل إني لا أستطيع أن أفسر حملة قريش على النبي في أيام النبي وحملة أصحاب المذاهب على الإسلام في كل عصر بعد النبي، إذا قلنا أن المطلوب هو مجرد تبليغ كلام لا يطلب بعده أن يحمل المجتمع والناس أنفسه على سلوك أو فعل من الأفعال.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإنك لعلى يقينٍ معي أن هذه الحملات المسعورة ضد السنة الآن وقبل الآن هدفها الوحيد أن تبقى وظيفة النبي والدعاة من بعده منحصرة في مجرد قراءة قرآن يقرأه القارئ بين النَّاس لا يغادر ترقوته، ويسمعه السامعون فلا يلمس من القلوب حتى شغافها ولا يطبع على الجوارح آثارها، فيحجم الإسلام كما يريدون، وتنتصر المذاهب في مجالس باقي الشرائع بشكل يريده أصحابها ويسعون سعيا حثيثا من أجل تحقيقه.

٣ـ ومن أساليب الخطاب في القرآن الكريم وهو يتحدث عن حجية السنة هذا الأسلوب الذي يقرر القرآن فيه أَنَّ النبيَّ ﷺ حين يتحدث إنَّما يتحدث عن الله، وعندما يفعل إِنَّما يفعل استجابةً لأمر الله، إذْ ليس للنبيِّ الحق أن يشرع من عند نفسه، ولا أن ينصب من نفسه إنسانا له الحق في أن يضيف أو يحذف من الشريعة من غير أن يكون لذلك سندٌ من الوحيِّ، حتى هذه الأشياء التي يقول عنها القائلون أنها من اجتهادات النبي ﷺ وهي مما أعمل فيه القياس، لأنا لو سلمنا بذلك كان لابد وأن نقول مع هذا التسليم إن الله ﷻ لن يقر نبيه على خطأ، فإن اجتهد وأصاب وأقره ربه على اجتهاده كان هذا الإقرار بمنزلة الوحى الموافق، وإذا أخطأ وعدل له الشرع ما أخطأ فيه كان هذا التعديل الأخير وحيًّا صريحًا بلا مراء، وتبقى السنَّة هكذا نوعًا من أنواع الوحي يسير مع القرآن جنبًا إلى جنب، حيث إنَّ النبيَّ بنص القرآن يتكلم عن الله، قال الله تعالي: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم/ ٣-٤]، وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء/١١٣].

٤ــ ومن أساليب القرآن المتنوعة في مجال حُجية السُنَّة تلك الآيات الدالة على الإيمان بالنبي ﷺ إذْ فرض القرآن الكريم على أمة الإسلام أن تؤمن بالنبي، كما فرض القرآن الكريم على أمة الإسلام أن تأخذ بناتج هذا الإيمان، فالإيمان الحقيقي ليس مجرد شعارات ترفع، أو كلام يقال أو صياح بأصوات عالية، وإنَّما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، وفي إطار هذا المعنى الصحيح للإيمان ولوازمه كيف نفهم الإيمان بالنبي ﷺ ولازم هذا الإيمان؛ ليس لذلك مِنْ معنى إلَّا أَنْ نقول: إِنَّ الإيمان بالنبيِّ ﷺ: هو تصديقه في كل ما جاء به عن ربه بنوعيه، ثم اتباعه في كل ما يقول به أمرا وفيما أردنا أن نقلده فيه من أفعاله.

وهذا هو خطاب القرآن الكريم يأمر بالإيمان بالله والإيمان بالنبي في أسلوبه البديع كعادته، يقول تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف/١٥٨] ، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور/٦٢].

تدل هذه الآيات على وجوب الإيمان بالنبي، وعلى وجوب اتباع النبي، ولم يقتصر القرآن الكريم على تكليف الأمة بالإيمان بالنبي وعلى تكليفهم باتباعه إيمانًا كما يحلو لهم، واتباعا كيفما اتفق، وإنَّما كلفهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالإيمان بالنبيِّ ﷺ واتباعه على شكل خاص من الإيمان والإتباع، إنه يريد إيمانا مغلفا بالرضا، وإِنَّه ليريد اتباعًا محمولا على الشوق والرغبة، أما وجدته يقول في قضية اجتماعية من أحرج القضايا ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء/٦٥].

أي مستوى من مستويات الخطاب هذا المستوى الذي لا يقبل إيمانًا إِلَّا أَنْ يكون الإيمان مشفوعًا بالرِّضَا، وأي مستوى من الخطاب هذا المستوى الذي لا يقبل من الأتباع إِلَّا اتباعًا محمولاً على الشوق والقبول.

إِنَّ مثل هذا المستوى من الخطاب ليؤكد أمرين:

الأول/ وجوب اتباع النبي ﷺ بعد وجود اتباع ربه،

الثاني/ ووجوب الرضا عن النبي بعد وجوب الرضا عن ربه.

هذه هي مستويات الخطاب في القرآن وكلها يؤكد حُجّية السُنَّةِ وأنَّها وحيٌّ من عند الله، وفيها ما يؤكد الإيمان بالنبيِّ واتباعه فيما يقول ويفعل؛ لِأَنَّ النبيَّ ﷺ لا ينطق عن الهوى.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حُجِّيَّةُ السنَّة ضرورةٌ نَصَ عليها كلام النبيِّ ﷺ : ــ

تبين لنا بالقرآن والعقل أَنَّ سُنَّةِ النبيِّ حُجَّةٌ في مجال التشريع .

ونحن هنا نريد أن نبين من خلال كلام النبي نفسه أَنَّ سُنَّتَهُ حُجَّةٌ، وتلك قضية قد تبدو غريبة لأول وهلة، إذْ إِنَّ الشئ سيبدو هنا شاهدًا على نفسه، وهو أمرٌ قد لا يقبله البعض وهم محقون فيما يعتقدون في تطبيق هذه القاعدة مطردة في كل العالمين وفي جميع الأشياء، لكنها لا تقبل التطبيق على النبي وسنته، إِذْ إننا نقبل منه أن تتخلف تلك القاعدة في أمر هو أكبر من ذلك، نحن نقبل منه حين يقول لنا إِنَّه نبيٌّ مرسل وأَنَّه يأتيه الوحى من ربه، وأنَّه يجد الوحى من نفسه وجدانًا ذاتيًّا فيكون هو شاهد الوحي الوحيد، والكثيرون من العقلاء لا يحتاجون على ذلك دليلاً سوى ما يطلعون عليه من خلقه الذي يصل إلى حد الإعجاز فيؤكد أَنَّه معصومٌ عن الخطأ فضلاً عن الخطيئة في الأمور التي تتصل بالشريعة قولا وتطبيقا، ومسألة العصمة عند النبي ﷺ هي الأساس الذي يدور عليه كل ما نقبله من النبي ﷺ من غير شَكٍّ أو تردد، وهو نفسه الأساس الذي استندنا إليه ونحن نقول: إِنَّ حُجِّيَّةَ السُنَّةِ يمكن الاستدلال عليها بالسُنَّةِ ذاتها الصادرة عن المعصوم ﷺ.

والشئ الذي يجب ذكره أَنَّ سلف الذين ينكرون السُنَّة اليوم كانوا على شئ من الفهم فأدركوا أَنَّ العصمة للنبي هي الأساس المتين الذي يدور عليه استثناء السنَّة النبويَّة من القاعدة القائلة: إِنَّ الشئ لا يمكن أن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يكون شاهدًا لنفسه، فعمدوا إلى عصمة الأنبياء فطعنوا فيها وأوهموا النَّاسَ أَنَّ الطعن في عصمة الأنبياء موضوع من الفكر مستقل يجب على المفكر أن يكون له فيه رأى، وأَنْ يكون له منه موقف مخافة أن يلتفت علماء الأمة إلى الربط بين نفي العصمة وإنكار السنَّةِ، فيتقدموا إلى الأمة ببيانٍ يكشف عن هذا الارتباط ويوقع هؤلاء القوم في حرج .

وجاء خلف هذه الطائفة لا يعقلون، ولوح إليهم بالمنديل الأحمر في حلبة صراع غير مشروع فهاجوا في وجه كل شئ يجدونه أمامهم أينما اتفق، فأنكروا عصمة الأنبياء وهم لا يعلمون: لِمَاذا ينكرونها، فأنكروا سنُة النبيِّ وهم لا يفهمون الهدفَ الحقيقي مِنْ انكارها.

ما لنا ولهؤلاء القوم الذين ضرب لهم القرآن الأمثال من نحو قوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة/١٧١].

أقول ما لنا ولهؤلاء القوم نحلل شخصياتهم، وقد أشار القرآن إلى العنصر الفعال فيها ؟!

أَمَّا السُنَّةُ فستبقى على مر التاريخ يشهد العقل بحجيتها، ويشهد القرآن بحجيتها كما ستبقى هي شاهدة لنفسها استثناء من القاعدة العامة، وهو استثناءٌ مبني على أساسٍ من عصمة النبيِّ ﷺ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والكثيرون من العلماء يهتمون بهذا الموضوع اهتمامًا عظيمًا ومن بينهم القرطبي في مقدمة تفسيره، حيث ينقل عَـنْ النبـيِّ ﷺ حـديثا أخرجه أبو داود في سننه عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ قال: "ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شـبعان علـى أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فـأحلوه ومـا وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كـل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلَّا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه "[١].

هذا حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يعـد فـي التصنيف من أبواب معجزاته، ذَلِكَ أَنَّه أخبر عَنْ طائفةٍ مِنَ البشر لم تكن موجودة في زمانه، ومن أخص صفات أحدهم أَنَّه مشغولٌ بمتعه وملذاته، ولا علاقة له بالعلم ولا بمناهجه، إِنَّه فقط مملوء البطن، وإنَّه فقط متكـئ على أريكته مترف.

ما أحسن الإعجاز حين يكون الإعجاز على يد نبي، وَمَـا أجمـل الإخبار عن الغيب إذا أتاح الله لرسوله أن يخبر عن الغيب.

أتخيل هذا كله ثم أفيق لأسأل نفسي، أخيال هذا أم حقيقة لا يصـل إلى تصويرها خيال ؟ ، ولا يخرجني من حيرتي إلا هذا الحديث النبـوي الشريف الذي يخبر عن الغيب الكامن في ضمير مستقبل قادم.

---

[١] تفسير القرطبي ص ٢٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا غرابة فإنَّ الأنبياء يمنحهم الله الكثير من رحمته، ومنه الإخبار عن الغيب، وفي كلام الخطابي فيما نقله القرطبي قال: وأراد بقوله : "متكئ على أريكته" أَنَّه مِن أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه[١]. اهـ

وابن عبد البر يروي هذا الحديث من نفس الطريق، ولكن بغير هذا الطول، ولفظه عن المقدام بن معدي كرب يقول: قال رسول الله ﷺ: "يوشك رجل منكم متكئا على أريكته يحدث بحديث عني فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل الذي حرم الله ".

وللحديث عنده متابعات من طرق مختلفة، وبألفاظ متعددة منها ما رواه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك بأحدكم يقول هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحللناه، وما كان فيه من حرام حرمناه، ألا من بلغه عني حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله والذي حدثه ".

وبسند إلى أبي رافع رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "ألا لا أعرفن ما بلغ أحدا منكم حديث إن كان شيئا أمرت به أو نهيت عنه فيقول وهو متكئ على أريكته هذا القرآن ما وجدنا فيه اتبعناه وما لم نجد فيه فلا حاجة لنا به"[٢].

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ٢٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس هذا الحديث وحده هو الوارد في الباب، وإن كان فيه وحده الكفاية، وإنما وردت أحاديث أخرى تدل على هذا المعنى وتجليه، منها: حديث العرباض بن سارية مرفوعًا: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ "[١].

وأخرج الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجة الوداع فقال: "إِنَّ الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أمركم فاحذروا، إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنة نبيه"، وهذا الحديث قد روى نحوه الإمام مالك في الموطأ .

وهذه الأحاديث وأمثالها صريحة في وجوب اتباع السنة والعمل بها مع القرآن.

ولهذه الأحاديث نظائر وأشباه، من نحو قوله صلى الله عليه وسلم في الصلاة: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، ومن نحو قوله في الحج : "خذوا عني مناسككم".

ولقد ظلت الأجيال مجمعة على العمل بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وستظل على ذلك ما دام على الأرض إنسان يقول: الله، الله، فيما عدا شرذمة تعيش على ملء البطن ونشدان الترف والمتعة على ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم

---

[١] أخرجه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من قبل. ولقد ظل صحابة رسول الله ﷺ يتابعون هذه السنة ويتبعونها، وهم يعتقدون أن ذلك أمر تكليفي، كلفهم به ربهم في كتابه المجيد، وهو اعتقاد صحيح وفهم ثاقب.

وأمامك طائفة من فهم الصحابة للسنة ومتابعتها واتباعها وهم خير القرون على الإطلاق فهما وخلقا ونقاء سريرة.

روى ابن عبد البر من طريق علقمة يحكي أَنَّ امرأةً من بني أسد أتت عبد الله بن مسعود فقالت له: إِنَّه بلغني أنك لعنت الواشمة والمستوشمة، وإنّي قرأت ما بين اللوحين فلم أجد الذي تقول، وإني لأظن على أهلك منها، فقال لها عبد الله فادخلي فانظري، فدخلت فنظرت فلم تر شيئا، فقال لها عبد الله أما قرأتِ : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت: بلى، قال: فهو ذاك. اهـ

وروى من طريق أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد أَنَّه رأى محرمًا عليه ثياب، فنهى المحرم، فقال ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي، قال فقرأ عليه: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا).

وعنده من طريق سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير قال: كان طاووس يصلي ركعتين بعد العصر، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : اركهما، فقال: إنَّما نهى عنهما أن يتخذا سنة، فقال ابن عباس: قد نهى رسول الله ﷺ عن صلاة بعد صلاة العصر فلا أدري أتعذب عليها أم تؤجر، لأن

الله ﷻ قال: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) [١].

والروايات في هذا المجال تطول، ويحسن للقارئ أن يراجعها في أماكنها.

والذي ينبغي أَنْ ننتهي إليه هُنا أَنَّ سُنَّةِ رسول الله في مجال التشريع حجة، وَأَنَّ حجيتها قد دَلَّ عليها العقل، وَدَلَّ عليها القرآن، وَدَلَّ عليها كلام النبي ﷺ الثابت عنه، كما دَلَّ عليها الفهم الصحيح الذي فهمته الصفوة الممتازة في عصر المبعث لآيات القرآن الكريم ذات العلاقة بهذا الموضوع.

أحاديث العرض على القرآن : ــ

وفي عصورٍ متأخرة وجدنا هؤلاء الذين ملئت بطونهم، وجلسوا على أرائكهم في بيوتهم يلقون في الساحة بأحاديث تناقلوها فيما بينهم، ويحتجون بها في وجه المسلمين، ثم أوهموا العامة والبسطاء أن هذا هو كلام سيد البشر .

ولقد سبق منا القول أَنَّ هؤلاء لا يخجلهم أن يكون المنهج مترنحا بين أيديهم مضطربا على أقلامهم، فهم يقولون مثلا: إننا لا نقبل سُنَّةَ رسول الله، وهذا هو هدفهم الأكبر، ويتأدون إليه بمقدمات منها: أن

---

[١] جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ٢٣٠ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأنبياء ليسوا بمعصومين، ثُمَّ هم يستدلون على هذا الهدف العام، وعلى صحة موقفهم منه بأحاديث ينسبونها لرسول الله ﷺ.

ولقد فعل الشئ نفسه من قبل حين تأدوا إلى هدفهم بمقدمة أخرى مؤداها أَنَّ السُنَّة لا ثقة لهم فيها، لأنَّها لم تحفظ بطريقة سليمة ويستدلون على هذا الهدف بنص من السنَّة أو بنصوص هي نصوص النهي عن كتابة السنة كحديث أبي سعيد الخدري وغيره .

وإن تعجب فعجب موقف هؤلاء، ينكرون الشئ ويستدلون على إنكاره به، فهل يشهد المعدوم على المعدوم، نفي السنَّة معناه أنه ليست هناك سنة ثابتة عن رسول الله والاستشهاد بالسنَّة على ذلك معناه: أن هناك سنة قد ثبتت وهي صحيحة النسبة لرسول الله، وواجبة الإتباع .

فما لهؤلاء القوم يثيرون العقل نحو التفكير في ماضي الأمم حتى يعثر على أمة كانت تؤمن ببعض الكتاب وتكفر بالبعض الآخر، وكانت تجعل كتابها قراطيس يبدون منها ما يشاءون، ويخفون منها ما يريدون، إلى أن عاتبهم رب العباد في أكثر من موقف قال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾

[الأنعام/٩١].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد أورد القوم أحاديث ينسبونها لرسول الله ﷺ، ويورثونها الأجيال من بعدهم ممن هم على طريقتهم، ظانين أنهم بفعلتهم تلك سيقتربون من تحقيق أهدافهم.

والله متم نوره ولو كره الكافرون!

ويجمع هذه الأحاديث كلها فكرة واحدة وهي أنه يجب عرض ما جاء به النبي ﷺ على القرآن، فإن وافق ما جاء القرآن به فإنه حديث صحيح، سواء قاله النبي أو لم يقله (إي وربي هكذا يقولون).

ونحن سنورد أمامك طائفة مما ذكروه، وجهود علماء الأمة فيما ذكروه لتعلم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمنها:

ما روى عن النبي ﷺ أَنَّه قال: "إِنَّ الحديث سيفشو عني فما آتاكم يوافق القرآن فهو عني وما آتاكم يخالف القرآن فليس مني"،

ومنها ما روى عن رسول الله ﷺ أَنَّه قال: "إذا حدثتم عني حديثًا تعرفونه ولا تنكرونه قلته أو لم أقله، فصدقوا به فإني أقول ما يعرف ولا ينكر، وإذا حدثتم عني حديثا تنكرونه قلته أو لم أقله، فلا تصدقوا به فإني لا أقول ما ينكر ولا يعرف".

ومنه ما نُسبَ إلى النبيِّ ﷺ: "إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه ".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي رواية: "لا يمسكن الناس على بشئ فإنه لا أحل لهم إلا ما أحل الله ولا أحرم إلا ما حرم الله"(١).

وقد أشار ابن عبد البر إلى أصل هذا الحديث ولم يتتبع رواياته مقدمًا إليه بنسبته إلى الزنادقة وغيرهم، قال: وقد أمر الله ﷻ بطاعته واتباعه أمرًا مطلقا مجملا لم يقيد بشئ، كما أمرنا باتباع كتاب الله، ولم يقل وافق كتاب الله كما قال بعض أهل الزيغ.

قال عبد الرحمن بن مهدي: الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث يعني ما روى عنه ﷺ أَنَّه قَالَ: "ما آتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فلم أقله، وإنما أنا موافق كتاب الله وبه هداني الله " (٢).

ومن يتأمل في هذه الروايات جميعها لا يصعب عليه أن يجد فيها أثر الوضع، فهي أولاً تشتمل على ما يشجع الناس على قبول القول المكذوب عن النبي ﷺ وإلآ فقل لي بالله عليك ماذا يعني قوله ﷺ في الرواية الثانية لهذا الحديث: "إذا حدثتم عني حديثا تعرفونه ولا تنكرونه قلته أو لم أقله، فصدقوا به" ؟! وما معنى قوله: "وإذا حدثتم عني حديثا تنكرونه قلته أو لم أقله فلا تصدقوا به" ؟!

---

(١) راجع السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ١٥٤ وما بعدها .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ٢٣٣ وما بعدها .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما معنى أن ينسب إلى النبي ﷺ مثل هذا الكلام، إلا أن يكون النبي قد أمر أمته أن تأخذ عنه كل قول مكذوب شريطة أن يكون في ميزان العقل مقبولا، وأن ترفض كل حديث لا يقبله العقل حتى ولو كان النبي قد قاله، أي كلام هذا الذي ينسب إلى ذلك النبي، وبأي منطق نقبل ما ينسب إلى النبي ونرفض، أنصدق ما يروي عن النبي في هذا الحديث المكذوب، أم نصدق ما جاء به الحديث المشهور عنه من قوله: "من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار".

من يتأمل في هذا الحديث برواياته لا يخفى عليه أنه يجوز نسبة الكذب على رسول الله ﷺ من غير أن يكون من ذلك حرج، ومن غير أن يكون على قائله باس.

ومن يتأمل هذه الأحاديث مرة أخرى يجد فيها أثر الوضع، حيث إنها تخالف القرآن الكريم، لأننا إذا عرضنا هذه الأحاديث على كتاب الله لوجدناه يرفضها بنفس المعيار الذي تمسكوا به، ولو عرضنا أحاديث قبول السنة على القرآن لوجدنا القرآن يقبلها بنصوص كثيرة قد ذكرنا لك بعضها من قبل من نحو قوله تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾.

إنه لكلام عجيب يتوارثه القوم فيما بينهم، ويتناقلونه بين أجيالهم، وإن الموعد القيامة، وإن الحكم هو الله، وإنها لجنة أو نار.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولقد تتبع العلماء هذا الحديث المكذوب برواياته ففحصوها من حيث السند والمتن وردوها في وجه أصحابها ردا قاسيا يناسب الافتراء على رسول الله ﷺ.

فالشوكاني رحمه الله ينقل في بعض كتاباته رواية أبي عمر يوسف بن عبد البر على وجهها، ثم يعلق قائلا: وقد عارض حديث العرض قوم فقالوا وعرضنا هذا الحديث الموضوع على كتاب الله فخالفه لأنا وجدنا في كتاب الله: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ووجدنا فيه: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ووجدنا فيه: (من يطع الرسول فقد أطاع الله)[١] .

ويعرض القرطبي لهذا الحديث بشئ من الازدراء في مقدمة تفسيره فيقول: فأما ما رواه بعضهم أَنَّه قال: "إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فاتركوه " فإنه حديث باطل لا أصل له[٢].

هذا ما قاله بعض أهل العلم في متن الحديث.

وللعلماء كلام في سند تلك الأحاديث.

---

(١) إرشاد الفحول ص ٣٢ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال البيهقي في الحديث الأول: رواه خالد بن أبي كريمة عن أبي جعفر عن رسول الله ﷺ، وخالد مجهول وأبو جعفر ليس بصحابي فالحديث منقطع[١].

وقال الشافعي : ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شئ صغير ولا كبير وإنما هي رواية منقطعة عن رجل مجهول ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية في شئ[٢].

وقال ابن حزم في الحسين بن عبد الله أحد رواة هذا الحديث من بعض الطرق: الحسين بن عبد الله ساقط متهم بالزندقة[٣].

وقال البيهقي أيضًا: والحديث الذي روى في عرض الحديث على القرآن باطل لا يصح، وهو ينعكس على نفسه بالبطلان فليس في القرآن دلالة على عرض الحديث على القرآن[٤].

ونحن نتأمل هذا الحديث بجميع طرقه نجد أن العلماء قد ردوه سندا ومتنا، ولم تخف عليهم علامات الوضع فيه، فأشاروا إليه بشئ من الازدراء، كما أشاروا إلى أولئك الذين تحملوا وضعه، وتزييفه على

---

(١) مفتاح الجنة ص ١٥.

(٢) الرسالة ص ٢٢٥.

(٣) الإحكام لابن حزم ج ٢ ص ٧٦

(٤) مفتاح الجنة : ص ٦ وانظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ١٦١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رسول الله ﷺ قاصدين إلى إبعاد السنة عن مجال التشريع، وهو الهدف العام لهم.

وتبقى السنة بعد ذلك نقية بحفظ الله لها، وبجهود العلماء المخلصين في سبيل الدفاع عنها، كما أن السنة تبقى صالحة لاحتلال المرتبة الثانية في مجال التشريع الإسلامي ، وقد احتلتها بالفعل ولله الحمد والمنة.

علاقة القرآن بالسُنَّة : ـ

وهذه النقطة من البحث هي أكثر النقاط حرجا أمام منكري السنة، وهي التي أوضحت ما ستروه من نواياهم وأبانت عما أخفوه من مقاصدهم.

فالقرآن الكريم قد جاء وفيه أمور مبهمة وأخرى عامة وثالثة مجملة فالمجمل يحتاج إلى تفصيل ، والعام يحتاج إلى تخصيص ، والمبهم يحتاج إلى إيضاح، وإنكارهم للسنة على نحو ما أنكروها يترك المبهم من القرآن على إبهامه، والمجمل على إجماله، والعام على عمومه، فيظهر القرآن أمام الناظرين مستعجما يعيي الباحثين فهمه، ويباعد بين القُراء وبين أن ينالوا معانيه .

وكان عامة النَّاس يقرأون لمنكري السنَّة قديما وحديثا، ما يكتبه منكرو السنَّة في القديم والحديث، فيتابعونهم في أفكارهم قراءة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واستظهارًا من غير أن يتضح للقارئين هدف منكري السنَّة الذي ستروه إلى أن وصل البحث لمنكري السنة وقارئيهم إلى هذه النقطة، فكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، كانت هي المحز الذي ينبغي أن يضع الباحث يده عليه، وهنا يتساءل مَنْ يقرأون لمنكري السُنَّة عن العامل المساعد الذي سيأتي بديلاً عَنْ السُنَّة ليفهمنا القرآن الكريم، فهنا يضطرب القول ويصابون بنوع من الهستريا في القول يؤثر على حديثهم فيملأ عباراتهم بالتشويش من نحو إِنَّكم تكذبون القرآن، إِنَّكم لا تصدقون الله فيما يقول، إنكم لا تؤمنون بِأَنَّ القرآن تام ومفصل ومحكم، كلام كثير لا يعقله عاقل، ولا يفهمه صاحب منهج .

والأكثر من ذلك حرجًا أمام القوم ما جاء به القرآن مفصلا، غاية في التفصيل، ثُمَّ جاءت السنَّة بتشريعٍ يتصل بهذا التشريع المفصل في القرآن غاية التفصيل، ولم يُشر القرآن إليه، وكان الأمر أمام هؤلاء برغم أنَّه أكثر إعضالا، إلَّا أَنَّهم قد اعتبروا التصرف فيه أسهل من التصرف في سابقه.

على أَنَّ هناك أمراً ثالثًا من الإعضال قد ظهر في الساحة أمام منكري السنَّة، عندما وصلوا إلى موضوع علاقة السنَّة بالقرآن، وهو أَنَّ السنَّة قد استقلَّتْ بتغطية مساحة عريضة في مجال التشريع الإسلامي، قد بدا لبعض العلماء أَنَّ القرآن لم يتعرض لهذه المساحة بشئ من التشريع، في حين أَنَّه قد بدا لبعض العلماء أَنَّ هذه المنطقة من التشريع التي ظهر أَنَّ السُنَّة قد استقلت بتغطيتها، لها في القرآن أصلٌ ترجع إليه، وإن كان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شديد العموم إلى الحَدِّ الذي يشبه فيه الأجناس البعيدة إن صح استعمال هذا التعبير هنا.

والقوم حين اصطدموا بهذا اللون من الإعضال لم يكن أمامهم إلا أَنْ يصرحوا بنواياهم، إذْ هم في هذه النقطة بالذات قد تركوا بصمتهم التي ترشد إلى الجريمة من غير احتمال شك أو ريب.

إِن القوم حين ظهرت نيتهم، واستدلَّ العلماءُ عليها بما تركوا من بصمات واضحة الدلالة، لم يكن أمامهم إلَّا أَنْ يعلنوا عَمَّا أرادوه سلفا، وهو استبعاد الشريعة إلَّا من مجال تنظيم العلاقات الفرديَّة والجماعيَّة، وترك هذا المجال للعرف الاجتماعيِّ أو الجهد البشريِّ.

وقد تطاول بعضهم فأعلن عن إرادته النيل حتَّى من علاقة الإنسان بربه، فالصلاة والزكاة والحج والصيام أمورٌ يمكن أَنْ ننظمها بكل طريقة إلا أَنْ تتدخل فيها السنَّة المحمديَّة، فنحن يمكننا أَنْ ننظمها بطريقة عد (أبجد ـ هوز ـ حطي ـ كلمن) بعد أن ننزل بها إلى ما هو أقل من لعبة يلعب بِهَا الصبيان.

وتنظيم العلاقة بين الفرد وربه يمكن أن نبحث عنها في صحف إبراهيم الذي اسودَّ وجه التاريخ خجلاً، حين سألناهُ عن صحف إبراهيم، لأنَّها لم تعد موجودة، ولا حتَّى في خيال الحالمين مِنَ الشعراء أو المشعوذين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حرجٌ بالغٌ قد أحاط بالقوم عندما وصل البحث إلى هذه النقطة الحاسمة.

أَمَّا الكلام الهادئ المتعقل، أَمَّا الأفذاذ من القوم والجهابذة من العلماء، فهم يعلمون أَنَّ للإسلام مصدرين في الشكل والمظهر، ومصدرا واحدا من حيث الصدور والمنبع.

إِنَّ علماء الأمة يعلمون أَنَّ للإسلام مصدرين هما: الكتاب والسنَّة، يعودان إلى أصلٍ واحدٍ هو المُشرِّع الحكيم ﷻ، فَقَرَّرَ فِي الكتاب مَا شَاءَ، واستكمل بالسُنَّةِ مِنَ التشريع مَا أَرَادَ.

فإذا تساءل العلماء عَنْ علاقة السُنَّة بالقرآن برغم اتحاد المصدرين كان الجواب الحاسم: أَنَّ السُنَّة لها علاقة بالقرآن يحددها مستويَّات ثلاثة:

١ــ **المستوى الأول**، وخلاصته أَنَّ السُنَّة تعمد إلى القرآن في مبهمه، فتوضحه، وفي عامه فتخصصه، وفي مجمله فتفصله:

وتوضيح المبهم، وتخصيص العام، وتفصيل المجمل أمور ثلاثة رأى العلماء بالإجماع أَنَّهَا ضروريَّة، ولولاها لبقى القرآن مستغلقًا مستعجمًا، بحيث يصعب على الفهم وبحيث يستعصي علينا أن نستخرج منه أحكامه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد فهم العلماء ذلك كله من قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾.

ولقد سفهوا أحلام مَنْ قَال: إِنَّ الذكر وبيانه شئ واحد، بل إِنَّ ابن حزم قد ذهب إلى أَنَّ الله حين قال في القرآن: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ أراد والله أعلم الذكر بعمومه ليشمل نصوص الوحى كلها كتابًا وسُنَّة، وقد خَطَّأَ مَنْ ذَهَبَ إلى أَنَّ المراد بالذكر في الآية الأخيرة هو القرآن وحده، لأنَّ القرآن يحتاج إلى السنَّة والله قد وعد بحفظ نصوص الدين كلها.

قال ابن حزم: هذه دعوى كاذبة مجردة عن البرهان وتخصيص للذكر بلا دليل... والذكر اسم واقع على كل ما أنزل الله على نبيه ﷺ من قرآن أو سنة وحى يبين بها القرآن، وأيضًا فَإِنَّ الله تعالى يقول: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ فَصَحَّ أَنَّهُ ﷺ مأمورٌ ببيان القرآن للنَّاسِ، وفي القرآن مجمل كثير كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك مِمَّا لا نعلم ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه، لكن بيان النبيِّ ﷺ ، فإذا كان بيانه ﷺ لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مِمَّا ليس منه. فقد بطل الانتفاع بنص القرآن، فبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فإذن لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها[١]. اهـ

---

(١) الإحكام ج ٢ ص ١٢١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن هذا الدرب مِنْ علاقة السُنَّةِ بالقرآن ما يحتاج إليه المسلم في الصلاة والزكاة والصيام والحج .

فلولا السُنَّة ما تعرَّفَ المسلم على أوقات صلاته، ولا عدد ركعاتها، ولا كيفية أدائها ..

ولولا السُنَّة ما تعرف المسلم على صيامه من حيث كيفية أدائه، وما يتبع ذلك من أحكام.

وقل مثل ذلك في الزكاة والحج وسائر العبادات على اختلاف أنواعها.

وقد أدرج الشافعيُّ في ذلك الصنف من علاقة السنَّة بالقرآن حديث: "لا تنكح المرأة على خالتها أو عمتها .. إلخ"، حيث رأى الإمام الشافعي أَنَّه مخصصٌ لقوله تعالى: ﴿**وأُحِلَّ لكم ما وراء ذلكم**﴾.

والظاهرُ أَنَّ جمهور الأئمة على ما ذهب إليه الشافعي بالنسبة لهذا الحديث مع اختلافهم في تقديره والحكم عليه .

٢ــ **والمستوى الثاني** من مستويات العلاقة بين السُنَّة والقرآن، هو أَنَّ السُنَّة قد تضيف بعض الأحكام إلى ما جاء به القرآن مفصلا غاية التفصيل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن أمثلة ذلك اللعان، ولقد تكفلت سورة النور ببيان حكم الرجل يتهم زوجته بِأَنَّهُ قد رأى على فراشه ومع زوجته رجلاً آخر في حالة مريبة قد استوثق هو منها، ولا يملك شهود إثبات الجريمة، حيث أباح القرآن له أن يشهد أربع شهادات بالله أَنَّه قد رأى الواقعة بنفسه، ثُمَّ في الخامسة يلعن نفسه إنْ كانَ مِنَ الكاذبين..

ثُمَّ تعقبه المرأة فتشهد أربع شهادات بالله إِنَّه لَمِنَ الكاذبين. وفي الخامسة تشهد أَنَّ عليها غضب الله إِنْ كان من الصادقين، وحينئذ يدرأ عنها العذاب ولا يوقع عليها حَدٌّ.

إلى هنا والقرآن برغم أنَّه قد أخذ في التفصيل إلى أقصى غاية، ولكنه لم يبين حكم استمرار العلاقة بين الزوجين، بعد هذا الموقف الذي أصبح معلنًا، وبعد الحالة النفسيَّة التي قطعت شوطا على طريق الشك والارتياب، لا يمكن العودة بعده.

فجاءت السُنَّة وأكملت في مجال التشريع نقطةً كان لابد من إكمالها ، فحكم النبي ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى بوجوب التفريق المؤبد بين الزوجين.

وهذه نتيجةٌ طبيعية كان التشريع يتعلق بها، إذْ إِنَّه لولاها كان التشريع في هذا الباب سيظل ناقصًا أمامه الكثير من علائم الاستفهام.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣ــ **المستوى الثالث** من مستوى العلاقات بين السنَّة والقرآن، هو أَنَّ السنَّة النبويَّة تأتي بتشريعٍ ليس في القرآن الكريم نص يدل عليه، وهو في نفس الوقت لا يتناقض مع واحد من نصوص القرآن الكريم.

ولقد وضع العلماء أمثلة انتزعوها مِنَ السنَّة النبويَّة تندرج كلها تحت هذا المستوى من العلاقة بين السنة والقرآن .

ومن هذه الأمثلة ما سبق أن أشرنا إليه متضمنًا في بعض أحاديث رسول الله كحل أكل الحمر الوحشيَّة، وتحريم الحمر الأهليَّة، وتحريم أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير .... إلى غير ذلك .

والعلماء مع إقرارهم لهذه الأمثلة قد اختلفوا حول ما إذا كان ما قد ذكرناه من الأمثلة له أصلٌ في القرآن، أَمْ أَنَّ السنَّة قد أتت به بعد أن أنشأته إنشاءً، وليس له نص في القرآن يندرج تحته .

ولقد ذهب فريقٌ من العلماء إلى القول بِأَنَّ هذه الأمثلة وما يشابهها لا تندرج تحت نص من نصوص القرآن، وليس هنا من بأس، إذ البأس أن يكون هناك تشريع قد أتت به السنَّة وهو يناقض نصا من نصوص القرآن، وهذا المحظور عديم المثال في السنَّة، إلا أن يكون قد اشتمل عليه حديث موضوع يجب رده.

وذهب فريقٌ مِنَ العلماء إلى أَنَّه لم يثبت أَنَّ السنَّة قد أتت بتشريع ليس في القرآن نص يشمله، وقالوا في هذا الصدد إنَّه يكفي أَنْ تندرج

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذه الآحاد التي جاءت بها السنَّة في مجال التشريع تحت لفظ عام بالغ في العموميَّة مداه، بحيث يشبه الجنس العالي، يندرج تحته أفراد نوع نازل بينه وبين الجنس العالي أجناس متعددات.

وأيًّا ما كان الأمر، فالخلاف هنا بين الفريقين ليس له كبير قيمة من الناحية العلميَّةِ.

٤ـ وقد نضيف هنا مستوى رابعًا حوله كثير من الجدل نذكره بالإشارة إليه استكمالاً للفائدة مِنْ ناحية، وإثارة للفكر من ناحية أخرى، وهذا المستوى الرابع هو ما ذكره بعض العلماء متحمسين له وهو أَنَّ السُنَّة تأتي لتشير إلى ما نسخ من آي القرآن الكريم.

وأنت خبيرٌ أن مسألة النسخ مسألة خلافيَّة، فَمَنْ قال بالنسخ صَحَّ عنده هنا المستوى الرابع من مستويات العلاقة بين السنَّة والقرآن، ومن لم يقل بالنسخ لم يصح عنده هذا المستوى الرابع، واقتصر على ما قدمناه من المستويات الثلاثة.

تلك هى مستويات العلاقه بين السنَّة والقران،وهى مستويات ذات قيمه عالية عند مَنْ يقول بحُجية السُنَّة وهم جمهور الأمة، والحمدُ لله رب العالمين!

وَمَنْ أنكر السُنَّة أَحسَّ بفراغٍ شديد في مجال التشريع، اضطر أن يملأه من خارج دائرة التشريع الإسلاميِّ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فإن كان يتهم ربه بالقصور = فقد كفر.

وإن كان يزهو بنفسه مع الاحتفاظ بدينه في قلبه، فلله وحده حق الحكم عليه، وليس لنا إلى ذلك من سبيل.

* * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخاتمة

نسأل الله حُسنها

سطرتُ ما سطرتهُ في هذا الكتاب، وقُلتُ بعض ما أردت قوله في هذه الوريقات، ولقد تركتُ أشياء كثيرة كنتُ أود لو قلتُها ولكن منعنى من قولها أمور أهمها أننى قد خشيتُ لو سرتُ وراء كل ما كُتب وعرضتُ على القارئ كل ما وقع تحت يدي، لكنتُ بهذا العرض لكلامهم مِن المتسببين في إيذاء العقول والمشاعر، إذْ أنى قد رأيتُ أمورًا مكتوبة هي إلى الإسفاف أقرب، وبعدها عن العقل والمنطق ليس له مِنْ نظير إلَّا بُعد المشرقين، أو بُعد السماء عن الأرض.

وأمرٌ آخر يكمن في أَنَّ بعض المحاولات التي تهتم بملء فراغ على خريطة التشريع تركته محاولة إنكار السُنَّة قد جمحت إلى حد الاعتقاد في أَنَّ فردا واحدا يستطيع أن يقوم بوظيفة ربه في التشريع، مع أَنَّه ضحل الثقافة قليل الإطلاع، فرأيتُ أن أعرِض على النَّاس بعض ما كتب، ثم أمسك عن البعض الآخر إذْ هو شبيه بما عرضتُه، فأغنى المثال عن تكرار المقال، وإذْ هو في الوقت نفسه يتصل بالتاريخ، والتاريخ لا يملأ بأحداث يبتكرها الفرد ابتكارًا، وهو يتصل بالأخلاق، والأخلاق لا يمكن دراستها إلا في أطرها المذهبيَّة إنْ أردنا لها أن تكون عاملة وفعالة في سلوك الناس.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كتبتُ في البعض وتركتُ البعض، وقد رأيتُ أَنَّ ما تركتُه هو من سقط المتاع ألقيتُ به في البحر لتتمكن سفينة الحياة من أن تمخر عبابه من غير معوقات تعوق الحركة أو تعرقل المسير.

كتبتُ ما كتبته إذن، وقلتُ بعض ما أردت قوله في هذا الكتاب خطابا إلى ضمير الأمة الحائر، وإلى شبابها الذي أريد له أن يفقد القاعدة الثقافية والزاد الفكري.

وانتهيتُ مِمَّا أردتُ أن أنتهي منه، ثم جلستُ في لحظة تأمل أريد أن أطوي الوثائق وأجمع ما نشرتُ من الأوراق، أريد أنْ أسأل نفسي: ما الذي يمكن أن أقوله لأولئك الذين أنكروا سُنَّة النبيِّ محمد ﷺ وضربوا بها عرض الحائط، وماذا أقول للأمة التي ربت وتعهدت أناسا هدهدتهم بين ذراعيها ووضعتهم في محل الرعاية من عينيها، فإذا بهم يخرجون ومعهم نصل مسموم يضعونه في محل هو أكثر المحال حساسية في الأمة، إِنَّهُ عِرْضها الذي هو موضع الذم والمدح منها..

ماذا أقول لأمة قد ربت بعض أبنائها فطعنها الأبناء في غير مقتل، ولكن جاءت الطعنة في مكان يشعر باستمرار الألم، فتمنت الأمة أن لو كان أهل العقوق من أبنائها قد طعنوها في مقتل حتى لا تشعر بالألم، بعد أن خدش أبناؤها حياءها، وحتى لا تشعر بالألم بعد أن رأت بعض الذين تعهدتهم بالتربية قد طعنوها في موضوع كرامتها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

انتهيت مما أردت أن أقول، ثم جلست لحظة للتأمل، مـــاذا أقـــول للأمة الجريحة في لحظة وداع، وماذا أقول لابن من أبنائها قـــد طعنهـــا طعنة عنيفة، ثم هو واقف منتش بالدم ، يلعق في شئ من الزهـــو هـــذا السكين الذي طعن به أمته ؟!

إني أقول للأمة في لحظة وداعٍ: لَكِ الله وكفاكِ أَنْ يكونَ لَكِ اللهُ.

أَمَّا طاعنها المنتشي بالدم الذي يلعق السكين في زهو بعد أن طعن بها أمته، إنني لا أدري على وجه اليقين كيف أصنفكم في مجتمع تعيشون فيه، هل أنصفكم في مكان الاجتهاد من الأمة ؟!

إِنَّ المجتهد يجب أن تجتمع فيه شروط وهي قاسية، لأَنَّ المجتهـــد يخطط لأمة، ويضع للمجتمع نظاما لا يبتكره ابتكارا، وإنما هو يتعـــرف عليه باجتهاده من خلال نصوص آمنت بها أمته.

ولقد تتبعت هؤلاء فلم أجد في واحد منهم شرط العالم المقلد فضلا عن شروط المستقل المجتهد، فقلتُ: لا يليق إذن أن أضعهم في موضـــع الاجتهاد، ثم بدرت لي بادرة كالبرق اللامع فقلت: لا أقل من أن نضـــع هؤلاء موضع المفتي، والمفتي رجلٌ يجيد المـــنهج الـــذي يـــؤمن بـــه، والمذهب الذي ينضوي فكريا تحت لوائه، والقضايا العلميَّة التي استنبطها العلماء من مصادر تشريعهم، والوضع الاجتمـــاعي والنفســـي للأفـــراد المحيطين بهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المفتي في النهاية رجل فاهم لنص ومدرك لظروف مجتمع، وهو قادر على إيقاع الحكم على الحالة الجزئية التي تعرض له .

قلت إنه ينبغي أن نصنف هؤلاء ضمن الرجال المسئولين عن الفتوى، وللمفتي مقوماته .

وعدت أتفحص القوم الواحد بعد الآخر، فما وجدت واحدا منهم يعرف نصا على وجهه الصحيح، وما وجدت واحدا منهم يعرف كيف يسقط الحكم الذي استنبطه غيره من النص على الواقعة الجزئية، وما وجدت واحدا منهم يحب أن يكون في مكان المفتي يتولى وظيفة الإفتاء، وإنما كلهم يريدون أن يكونوا في وظيفة المجتهد بغير عدة الاجتهاد، بل وبغير عدة الإفتاء .

انتهيت مِمَّا انتهيت منه كتابة وقولا، وتأملتُ مفتوح العينين أبحث عن كلمة وداع قبل الفراق، وقلبت الأمر على وجوهه كلها فما وجدت إلا أناسا قد تطاولوا على مقام الأنبياء بعد أن وجهوا إلى هذا التطاول، وهجموا على آثار رسول الله يحاولون أن يجمعوا معهم الحمقى والسفهاء وهم لا ينصاعون إلى نصيحة أحد، ولا يستمعون إلى قول نقاد.

لنا أن نقول لهم قولا حسنا، ونسأل الله لهم ولنا الهداية ، لكننا أمة إسلاميَّة شعبها مسلم، وهناك حدود لحرية الرأى، فحرية الرأي معناها: أن يكون الحديث في قضية فكريَّة ، وَأَمَّا أن يكون الحديث حول شخصية النبيِّ ﷺ وهو عقل الأمة الإسلاميَّة وروحها، وَأَمَّا أن يكون الحديث عما

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تركه النبي من تراث مقدس يملأ مناطق التشريع في الشريعة الإســـلاميَّة فإنَّ هذا لا يُعَدُّ مِنْ حرية الرأى، وإنَّما يُعد من الإســـفاف الـــذي يبـــيح لمؤسسات الدولة أن تتدخل وهو حقها، ويبيح لقياداتها أن تحســـم وهـــو واجبها.

أَمَّا أنا فأقول في لحظة وداع : **أيتها الأمة الجريحة لَكِ اللهُ.**

موعدنا غدًا في يوم تبيض فيه وجوه وتسود أخرى.

والسلامُ على من اتبع الهدى!

أبو صهيب

عمر محمد عمر عبد الرحمن

* * *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع **الصفحـــــة**

المقدمة ٤

الفصل الأول حقيقة السُنَّة ٦

الفصل الثاني شُبهات منكري السنَّة ٢٧

- **الشبهة الأولي** ٣٢
- **الشبهة الثانية** ٥٣
- **الشبهة الثالثة** ٥٨
- **الشبهة الرابعة** ٦٤

الفصل الثالث الآثار المترتبة علي إنكار السنة ٧٠

الفصل الرابع إنكار السنة اعتداء على المناهج العلمية ١٥٢

الفصل الخامس دقة المحدثين في نقلِ السنَّةِ ٢١٦

- السنة ضرورة تقتضيها وظيفة النبي ٣٠٠
- العمل بالسنة ضرورة شرعيَّة ٣٠٥

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- حجية السنة ضرورة نص عليها كلام النبي ٣١٢

- أحاديث العرض علي القرآن ٣١٨

- علاقة القرآن بالسنة ٣٢٥

الفصل السادس حجية السنة ٢٩٦

الخاتمة **٣٣٥**

الفهرس **٣٤٠**

* * *

كل الحقوق محفوظة للمؤلف

تم بحمد الله

محفوظة جميع الحقوق